العقيد الطاهر زبيري

قنـــــاة الجزائـــــر
algeriachannel.net

مذكرات آخر قادة الأوراس التاريخيين

(1962-1929)

منشورات ANEP

العقيد الطاهر زبيري

قنـــــاة الجزائـــــر
algeriachannel.net

مذكرات آخر قادة الأوراس التاريخيين

(1962 ـ 1929)

منشورات ANEP

قنــــــــاة الجزائـــــــــر
algeriachannel.net

جميع حقوق التأليف محفوظة
للعقيد الطاهر زبيري

منشورات © ANEP
ISBN : 978-9947-21-440-4
Dépôt légal : 3742-2008

شكر خاص

أشكر الصحفي مصطفى دالع الذي ساعدني على كتابة هذه المذكرات، دون أن أنسى كل من ساعدني في إنجازها بأي شكل من الأشكال وأخص بالذكر، زوجتي فايزة وبناتي زهرة و نبيلة.

العقيد الطاهر زبيري

إلى روح البطل الشهيد مصطفى بن بولعيد

إلى أرواح شهداء ثورة التحرير المباركة

إلى كل من جاهد مخلصا من أجل استقلال الجزائر

إلى شباب الاستقلال الذين نحملهم أمانة الشهداء

وإلى ابنتي العزيزة نورة التي أتمنى لها الشفاء

قنـــــــاة الجزائـــــــر
algeriachannel.net

توطئة

هذه المذكرات ليست في حقيقة الأمر قصة شخص بل هي مرتبطة بقصة شعب وقصة أمة حرصت فيها على إبراز حجم التضحيات التي دفعها الشعب الجزائري في فترة حساسة من تاريخه، فهذه الثورة العظيمة كلفت الجزائر مليونا ونصف من الشهداء هم خيرة أبنائها وقد أصر علي عدد كبير من الأصدقاء والرفقاء على ضرورة كتابة مذكراتي كلما رويت لهم بعض أحداث ثورة التحرير المجيدة، وكنت أنوي إنجاز هذه المذكرات بعد الاستقلال مباشرة بالاستعانة بأحد الكتاب المحترفين ولكن الظروف التي مرت بها البلاد عقب هذه المرحلة جعلتني أتريث لأتفرغ إلى مهمة توحيد البلاد وجمع شتاتها حتى لا يضيع دم الشهداء هباء.

ومما زادني اقتناعا بضرورة تأجيل كتابة مذكراتي هو وجود حساسيات تاريخية لذلك حاولت تجنب إحراج بعض الناس أو المساس بمشاعرهم، خصوصا وأن الكثير منهم كان على قيد الحياة، لكن ما دفعني لكتابة هذه المذكرات التي بين أيديكم وقوع بعض الكتاب والمؤرخين في أخطاء تاريخية تطلبت مني إبداء رأيي فيها حسب الأحداث والوقائع وتصحيحها من أجل الجزائر والتاريخ، كما أن بعض المذكرات التي كتبت عن الثورة ضخمت أشخاصا وقزمت آخرين بشكل غير دقيق، فضلا عن وجود نقص في الكتابات المتعلقة بالجانب العسكري والميداني للثورة، وهو ما جعلني أحاول من خلال هذه المذكرات تغطية ولو جزء بسيط من هذا الجانب المهم، إذ أن بعض قادة

الثورة يعتقدون أن الكفاح السياسي يوازي في الحجم والأهمية الكفاح العسكري والميداني وهذا غير صحيح، لأن معاناة المجاهدين في الداخل كانت أشد وأصعب ولا يمكن أن يشعر بها إلا من عاش تلك الظروف القاسية التي أشرت إليها في هذا الكتاب.

وبعد لقائي بالصحفي مصطفى دالع في 2006 وعرضه علي فكرة إنجاز كتاب حول قصة كفاحي وجدت أنه آن الآوان ليعرف هذا الجيل بعض ما خفي عن تاريخ ثورة التحرير الجزائرية، ورغم ما بذلته من أجل التدقيق في صحة المعلومات الواردة في هذا الكتاب بمساعدة الصحفي مصطفى دالع إلا أنني أطلب من القارئ الكريم أن يغفر لي بعض الأخطاء ـ إن وجدت – في هذه المذكرات التاريخية، لأنني سجلت فيها ما عشته وما سمعته وما شعرت به خلال الثورة، وعبرت عن انطباعات وأراء شخصية، لا يمكنها أن ترقى إلى مستوى الكتابة التاريخية التي تخضع لمعايير محددة، فكتابة التاريخ لها رجالها المتخصصون أما نحن الذين كنا جزءا من هذا التاريخ، فدورنا يقتصر على الإدلاء بشهاداتنا بكل أمانة وصدق.

أملي أن يشعر هذا الجيل بحجم التضحيات التي قمنا بها من أجل استقلال هذا الوطن وتحريره من العبودية، فالاستقلال لم يكن أبدا سهلا كما يعتقد البعض، لذلك وجب عليهم أن يحافظوا عليه، وأن يصونوا وحدة هذه الأرض.

وقد تضمن هذا الكتاب بين دفتيه أربعة عشر فصلا، لخصت فيها مختلف المراحل التي مرت بها الجزائر من 1929 إلى غاية أزمة صائفة 1962:

الفصل الأول: ويتناول البيئة التي تربيت فيها والتي أثرت في تشكيل شخصيتي وبلورة فكري وانتمائي العربي الإسلامي، فوالدي الذي عمل فلاحا ومعلما للقرآن الكريم، حرص على تعليمي اللغة العربية وتحفيظي القرآن الكريم، ولم يتحمس لإدخالي إلى المدرسة الفرنسية رغم إلحاحي على ذلك، فقد كان والدي ـ رحمه الله ـ يعتقد أن الخلافة الإسلامية

بقيادة الأتراك عائدة لا محالة، وفي المسجد حفظت نصف القرآن الكريم وكنت أؤذن أحيانا للناس بطلب من إمام المسجد رغم صغر سني آنذاك، وهو ما كان محل فخر والدي، وتأثرت كثيرا بمعلمي الشيخ بلقاسم داعي وشقيقي الأكبر بلقاسم الذي ترك الدراسة في المسجد والزاوية وعمره لا يتجاوز الخامسة عشر للعمل في مناجم الرصاص لإعانة والدنا على مصاريف الحياة، فقد كانت أسرتنا تعيش في فقر مدقع إذ خسر والدي أرض أجداده بعدما أثقل المحتلون كاهله بالضرائب وازدادت وضعيته سوءا خلال الحرب العالمية الثانية خاصة بعد أن حرمتهم السلطات الاستعمارية من المواد التموينية.

الفصل الثاني: تحدثت فيه كيف هزت مجازر الثامن ماي 1945 ضمير الجزائريين وجعلتهم يوقنون أنه لا سبيل لإخراج الغزاة إلا بقوة السلاح، وقد سكن حينها شعار "ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة" نفوس مناضلي حزب الشعب الذي كنت أحد مناضليه في قسمة الونزة وقد شاركت في هذه المظاهرات وكدت أعتقل، أما شقيقي بلقاسم فقضى أياما في المعتقل، وبدأت من حينها أفهم حقيقة المحتل ومعاني الوطنية والحرية والاستقلال، وبفضل شقيقي بلقاسم الذي كان عضوا ناشطا في حزب الشعب التحقت بحزب مصالي الحاج وأصبحت أكثر وعيا بضرورة العمل على استقلال الجزائر من الاحتلال الفرنسي، فشاركت في الحملات الانتخابية التي نشطتها حركة انتصار الحريات الديمقراطية، وتابعت بأسف الانقسام داخل الحزب والصراع بين المصاليين والمركزيين واكتشاف المنظمة السرية التي كانت تحضر لقيام الثورة، وعلى صعيد آخر شرعت في العمل في منجم الونزة الذي كان في ذلك الوقت "دولة داخل دولة"، فأكبر مناجم الحديد كانت هناك ولم يكن البترول قد اكتشف في الجزائر بعد، مما جعل الونزة تعرف نشاطا اقتصاديا مزدهرا استغله المحتل في دعم اقتصاده بينما عاش الجزائريون هناك كالأقنان.

الفصل الثالث: في السنوات الأولى من الخمسينات نشطت حركات التحرر في كل من تونس والمغرب، وتلقت فرنسا ضربة مدوية في معركة "ديان بيان فو" بالفيتنام أجبرتها على الانسحاب مهزومة مدحورة، بينما تأخرت الجزائر عن مسيرة التحرر في المغرب العربي بسبب الانقسام الحاصل في حركة انتصار الحريات الديمقراطية بين المصاليين والمركزيين، فبادر قياديون في المنظمة الخاصة للتحضير للثورة حتى ولو بدون دعم الحزب، وتمكنت من ربط اتصال مع "اللجنة الثورية للوحدة والعمل" بسوق اهراس بقيادة باجي مختار، وتلقيت تدريبات عسكرية وتعبوية وأصبحت جاهزا للقيام بأي عمل مسلح ضد العدو، وتشكل أول فوج مسلح في الونزة عقب قيام المجاهدين التونسيين باعتقال شقيق جبار عمر (أحد مناضلي الحزب) بسبب رفضه تسليمهم سلاحه، فأراد نشطاء في حزب الشعب المحظور تحريره ولعبت دورا محسوسا في شراء قطع من السلاح، وبعد تحرير شقيق جبار عمر أمر باجي مختار الفوج بالتحصن بالجبال وعين على رأسه الحاج علي النايلي أحد المجاهدين الجزائريين في فلسطين وفي تونس، لكن الحاج علي النايلي استبق الأحداث وقام بعمليات مسلحة قبل الإعلان عن الثورة مما أدى إلى بروز الخلاف بينه وبين أعضاء من الفوج من الذين كانوا يرون ضرورة انتظار الأوامر من باجي مختار قبل بدء الكفاح المسلح، وانتهى الخلاف بتوقيف الحاج علي النايلي وإعدامه.

الفصل الرابع: بعد اتفاق مجموعة الستة على إعلان الثورة في الفاتح نوفمبر 1954، انطلق باجي مختار من العاصمة إلى سوق اهراس لإعلام المجاهدين بساعة الحسم التي طالما انتظروها إلا أن المخابرات الفرنسية تمكنت من إلقاء القبض عليه ولحسن الحظ لم تكن مناشير بيان أول نوفمبر معه فأطلق سراحه قبل سويعات من الموعد المتفق عليه، وشرعت رفقة جبار عمر في قيادة فوج الونزة من خلال البحث عن الأسلحة كبنادق الصيد إما بشرائها أو انتزاعها سواء من الأهالي أو

من حرس الغابات، إذ أن نصف فوجنا لم يكن يملك من الأسلحة سوى العصي، ووجدنا في البداية صعوبات جمة في الحصول على السلاح، ووقع أول اشتباك مسلح مع العساكر الفرنسيين في 24 ديسمبر 1954 بجبل مزوزية الذي أسر فيه السبتي جبار، ونجوت في هذا الاشتباك من الموت بأعجوبة وظن جبار عمر أنني استشهدت بعد أن حاصرني العساكر الفرنسيون.

الفصل الخامس: تفاعلات الخلاف بين الزعيمين التونسيين بورقيبة وصالح بن يوسف كانت لها آثارها على الثورة الجزائرية، فبينما قبل بورقيبة "الحكم الداخلي" وتبنى سياسة "خذ وطالب"، رفض صالح بن يوسف الاستقلال المنقوص وتسليم المجاهدين التونسيين لأسلحتهم للجيش الفرنسي وأصر بن يوسف على وحدة الكفاح بين أقطار المغرب العربي وهو ما أكدت عليه الثورة الجزائرية، وجرى تنسيق بين الطرفين، وفي هذا الإطار اتصل مجاهدان تونسيان من أنصار بن يوسف بفوج جبار عمر واتفقوا على القيام بعملية مشتركة في جبل "سيدي أحمد" الحدودي لأخذ قطعة سلاح من عند أحد الأهالي، وفي هذه العملية أصبت بطلقة بارود في صدري وفقدت الكثير من الدماء وقبل أن يتمكن جبار عمر من إحضار دابة لحملي حاصر الجيش الفرنسي جبل سيدي أحمد بقوات كثيفة تدفقت من عدة جهات من تونس والجزائر، واعتقلت مع عدد من المجاهدين بينما استشهد الباقون ولم ينج سوى جبار عمر وأحد الجنود والذي كان خارج الحصار العسكري المضروب على جبل سيدي أحمد، وتعرضت خلال فترة الاعتقال للتعذيب الشديد رغم جرحي الغائر، ثم زج بي في سجن قالمة، وحكم علي بالإعدام وأنا شاب لم يتعد سني السادسة والعشرين، ونقلت من سجن القصبة في قسنطينة إلى سجن الكدية أين تعرفت على البطل مصطفى بن بولعيد أول قائد للأوراس الذي روى لي قصة اعتقاله في "بن قردان" على الحدود التونسية الليبية.

الفصل السادس: يروي قصة فرارنا التاريخية مع مصطفى بن بولعيد وتسعة سجناء من المحكوم عليهم بالإعدام من السجن، وهي قصة أقرب إلى الأسطورة التي تتجاوز الخيال، فسجن الكدية الذي يعد من أكثر السجون الفرنسية في الجزائر مناعة وحراسة خاصة على جناح المحكوم عليهم بالإعدام لم يمنع من حدوث المعجزة، فبواسطة قطعتين حديديتين بسيطتين تمكنا من حفر نفق في الأرض يؤدي إلى مخزن للخردوات ومنه صنعنا سلما بسيطا من الأسرة المهملة والأفرشة وتمكن 11 سجينا من الهروب فيما أعيد اعتقال 19 آخرين ونفذ على معظمهم حكم الإعدام ببشاعة، وخلال مرحلة الفرار عانينا من العديد من الصعوبات والمخاطر قبل الاندماج مجددا في نظام الثورة حيث قابلنا البطل زيغود يوسف قائد منطقة الشمال القسنطيني الذي أعادنا إلى مناطقنا سالمين.

الفصل السابع: بعد عودتي إلى ساحة الجهاد في الونزة وجدت أن الكثير من المعطيات تغيرت إذ أن منطقة سوق اهراس أصبحت تابعة للمنطقة الأولى (الأوراس) بعدما كانت تابعة للمنطقة الثانية (الشمال القسنطيني) وذلك إثر استشهاد البطل باجي مختار وعدد من مجاهدي سوق اهراس والونزة الذين اعتقل العديد منهم ولم ينج سوى عبد الله نواورية وجبار عمر وجندي أو اثنين آخرين، وكلفت قيادة الأوراس "الوردي قتال" بقيادة منطقة سوق اهراس وهو ما لم يهضمه جبار عمر الذي كان يرى نفسه أحق بالقيادة، مما أشعل صراعا صامتا بين الرجلين، انتهى بتصفية جبار عمر بعد إيفاد قيادة الأوراس للجنة ثلاثية للتحقيق في التهم التي وجهت إلى "بطل الونزة" الذي دوخ العساكر الفرنسيين، أما أنا وإبراهيم طايبي فأردنا مقابلة مصطفى بن بولعيد بعدما اتفقنا على ذلك قبل الفرار من السجن، لكن الوردي قتال منعنا من مرافقتهم لأننا لم نكن مطلوبين في اجتماع القيادة، وبعد ذهاب وإياب استقر بنا المقام في مركز عباس لغرور أحد قيادات الأوراس الذي وعدنا بإيصالنا إلى مركز القيادة لمقابلة مصطفى بن بولعيد.

الفصل الثامن: ويفتح قضية استشهاد البطل مصطفى بن بولعيد في ظروف غامضة بعد انفجار جهاز إرسال مفخخ، والملابسات التي سبقت اغتياله ورفض عجول إعادة الاعتبار له كقائد للمنطقة إلا بعد مرور فترة محددة، وكان في قرارة نفسه يرغب في تولي قيادة الأوراس، مما جعله يشكك في عملية الفرار من سجن الكدية، بل حاول بث هذه الشكوك وسط المجاهدين من خلال الرسائل التي كان يبعث بها إلى قادة المناطق ويقول فيها "سجن فرنسا ليس كرطونا"، وفي الوقت ذاته سعت أجهزة المخابرات الفرنسية للقضاء على بن بولعيد - الذي تمكن من توحيد قيادات وعروش الأوراس - والانتقام لمقتل أحد كبار ضباطهم على أيدي المجاهدين، وفي هذا الفصل رافقت عباس لغرور إلى مركز المنطقة الأولى في جبل كيمل وبدل أن نقابل مصطفى بن بولعيد الذي استشهد في 22 مارس 1956 قابلنا مع نائبه عجول الذي أمرني بتولي قيادة الناحية التي عينني فيها عباس لغرور ولما رفضت ذلك قبل مقابلة بن بولعيد أمر عجول بتجريدي وابراهيم طايبي من سلاحنا ثم أبقانا عنده في المركز وعندما حاول إبراهيم طايبي الفرار من مركزه أمر عجول بإعدامه، فاضطررت للبقاء في جيشه مرغما إلى أن واتتني الفرصة وفررت من مركزه والتحقت بمنطقة سوق اهراس.

الفصل التاسع: ويتطرق إلى انعقاد مؤتمر الصومام الذي شكل منعرجا هاما في تاريخ الثورة، ويوضح أسباب وخلفيات عدم مشاركة الأوراس وناحية سوق اهراس في هذا المؤتمر ومعارضة قادتهما لقراراته بدعم من أحمد بن بله ورفيقه علي محساس، ونعرج في هذا الفصل على الصعوبات التي واجهتها الثورة في الأوراس عقب استشهاد مصطفى بن بولعيد وظهور صراع حاد بين قادة الأوراس الذين رفضوا الاعتراف بسلطة عجول كقائد للولاية الأولى، كما لم يتمكن عميروش مبعوث لجنة التنسيق والتنفيذ (القيادة العليا للثورة) من حل مشكل الشرعية في الولاية الأولى رغم محاولة القضاء على عجول

الذي نجا من الموت وسلم نفسه للسلطات الفرنسية، وإعدام عباس لغرور لاتهامه بالتورط في مؤامرة اغتيال قادة النمامشة في تونس وإعدامه لشيهاني بشير نائب بن بولعيد، وعينت قيادة الثورة العقيد محمود شريف قائدا للولاية الأولى في ديسمبر 1956 والذي تولى محاربة القادة المعارضين لمؤتمر الصومام في الأوراس، قبل أن يصحح المجلس الوطني للثورة المنعقد في 1957 بعض الأخطاء التي وقعت في مؤتمر الصومام خاصة تلك المتعلقة بالانتماء الحضاري للأمة العربية والإسلامية.

الفصل العاشر: ويبرز البطولات الخالدة والمعارك الشرسة التي خاضها الفيلق الثالث الذي كان تحت قيادتي بعد تشكيل القاعدة الشرقية في منطقتي سوق اهراس والقالة في نهاية 1956، وكيف تولى جيش التحرير بين سنتي 1957 و1958 المبادرة بالهجوم على مراكز العدو المحصنة بعدما أصبح أكثر تسليحا وتنظيما، على غرار الهجوم على مركزي القوارد والمشري، ومعركة جبل واسطة الشهيرة التي وجّه فيها الفيلق الثالث ضربة مزلزلة للجيش الفرنسي بعد أن قضى على 17 عسكريا فرنسيا وأسر أربعة آخرين، والتي كانت من بين الأسباب التي أدت إلى ارتكاب الجيش الفرنسي لمجزرة ساقية سيدي يوسف بتونس والتي هزت الضمير العالمي وجعلت الكثير من الدول تلتفت إلى القضية الجزائرية وتنظر إليها بكثير من التعاطف والتأييد.

الفصل الحادي عشر: ويكشف خلفيات وتفاصيل الخلاف الذي وقع مع العقيد محمد العموري القائد السابق للأوراس بدعم من أطراف داخلية وخارجية، وكيف تطور هذا الخلاف إلى محاكمة قيادات من الأوراس والقاعدة الشرقية، وترأس المحاكمة العقيد هواري بومدين قائد أركان المنطقة الغربية، في حين توليت الدفاع عن المتهمين قبل أن يتم إعدام أربعة ضباط سامين في الثورة وسجن البقية لفترات محدودة، وأدى ذلك إلى حدوث تمرد صامت لفيالق القاعدة الشرقية

وفيالق الأوراس، وتكفلت هذه المرة بمهمة إقناع فيالق القاعدة الشرقية بوقف التمرد والعودة إلى النظام، وفي هذه المرحلة عين العقيد هواري بومدين قائدا عاما للأركان وتمكن من إنهاء التمردات على الحدود الشرقية وإعادة تنظيم جيش الحدود.

الفصل الثاني عشر: بعد وضع خطي شال وموريس على طول الحدود الشرقية والغربية أصبح أمر عبور الخطين مسألة في غاية الخطورة خاصة في الفترة ما بين 1959 و1962 واستشهد آلاف المجاهدين على طول هذا الخط وهم يحاولون عبوره، ورغم كل هذه المخاطر إلا أنني اعتذرت عن قبول منصب نائب قائد الأركان الذي عرضه عليه وزير القوات المسلحة في الحكومة المؤقتة، وفضلت مواصلة الجهاد داخل الجزائر، وبعد عدة محاولات فاشلة لعبور الخط تمكنت رفقة رجال الكمندوس الذين قدتهم من اجتياز "خط ماجينو الجزائر" رغم استشهاد الرائد عمار راجعي في هذه المهمة المستحيلة التي مررنا خلالها بالكثير من الأخطار والأهوال حتى وصلنا إلى قلب الأوراس.

الفصل الثالث عشر: في هذه المرحلة بدأت الولاية الأولى تسترجع قوتها بفضل ثلاثة قادة هم الرائد مصطفى مراردة الذي تولى قيادة الولاية الأولى بالنيابة، والرائد علي سويعي الذي امتص غضب الغاضبين وأدمجهم في القيادة، والعبد الضعيف الذي استطاع جمع قادة وعروش الأوراس على كلمة واحدة، لكن الولاية الأولى على غرار بقية الولايات الأخرى تعرضت إلى عمليات عسكرية كبرى في إطار مخطط شال كعملية الشرارة، واللكمة والتجويع أدت إلى استشهاد المئات من المجاهدين من بينهم الرائد علي سويعي، ولكن جيش التحرير تمكن من التكيف مع أسلوب القتال الجديد وقاتل ببسالة قوات العدو التي كانت تتدفق بعشرات الآلاف على جبال المنطقة الواحدة وعلى مدى أشهر للقضاء على أي أثر للمجاهدين لكنها فشلت في تحقيق هدفها، وقد عينت قائدا للأوراس في أكتوبر 1960 وكنت بذلك آخر قادة الأوراس التاريخيين.

الفصل الرابع عشر والأخير: ويحكي قصة النصر الأكبر في 19 مارس 1962 والذي أعلن فيه وقف إطلاق النار بعد انكسار شوكة فرنسا الاستعمارية أمام قوة وصلابة الثورة الجزائرية، إلا أن هذا النصر كاد يفقد بريقه وسط الخلافات "الشخصية" لزعماء وقادة الثورة، وعدم اتفاقهم في مؤتمر طرابلس على تشكيلة المكتب السياسي الذي سيتسلم قيادة الدولة الجزائرية المستقلة من الهيئة التنفيذية المؤقتة في "الروشي نوار" (بومرداس حاليا)، مما أدى إلى وقوع أزمة صائفة 1962 التي حسم فيها بن بله وبومدين ومن معهما الصراع لصالح الجزائر وأنهوا حالة الشد والجذب التي عطلت بناء المؤسسات الدستورية للدولة الجزائرية الناشئة.

العقيد الطاهر زبيري

قائد أركان الجيش الوطني الشعبي سابقا

الفصل الأول

سنوات الحرمان

الجذور

في دوار صغير يدعى "أم العظايم" الواقعة في الشرق الجزائري ولدت في 4 آفريل 1929، قبل أن ترحل عائلتي إلى قرية "وادي الكبريت" التابعة للبلدية المختلطة سدراته (ولاية سوق اهراس حاليا) وأنا لا أزال رضيعا في قماطه، وأطلق على هذه القرية هذا الاسم نظرا لأن مياهها كانت تحوي نسبة مرتفعة من الكبريت.

ويعود لقب "زبيري" نسبة إلى "أولاد زبير" أحد بطون عرش "أولاد عبد الله" المنتمين إلى قبيلة "أولاد إسحاق" التي تنتمي إلى عرش كبير يدعى "الحراكتة" ذي الجذور الأمازيغية الشاوية، وتعود أصول آل زبيري إلى ولاية أم البواقي في الشرق الجزائري، وبالضبط إلى منطقة تقع ما بين "صبيحي" وجبل "رغيس"، قبل أن تضطرهم الظروف إلى الرحيل إلى دوار "أم العظايم".

وروى والدي لنا القصة التي دفعت أجداده للرحيل جماعيا من منطقة "الصبيحي" بأم البواقي إلى "أم العظايم" بسوق أهراس، حيث ساد في عهد البايات إبان الحكم العثماني للجزائر ما بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر ميلادي الصراع بين عروش وقبائل المنطقة حول الأرض والماء والكلأ، نظرا لأن الأرض جدباء، والمياه شحيحة، وأغلب السكان يعتمدون في معيشتهم اليومية على الرعي والفلاحة.

وحدث ذات يوم أن دخل عرش "أولاد زبير" في صراع دام مع عرش "أولاد مطلّة" الذي كانت بيدهم سلطة القرار في المنطقة آنذاك مما أعطاهم امتيازات عن بقية العروش الأخرى، وبسبب الاقتتال الذي وقع بين العرشين ووقوع قتلى في صفوف الطرفين، اضطر عرش "أولاد الزبير" إلى شد الرحال، والبحث عن مكان يجدون فيه الأمان والماء والكلأ، إلى أن استقر بهم المقام في دوار "أم العظايم" الذي يغلب عليه الطابع الفلاحي والرعوي فزرعوا الأرض ورعوا الماشية.

الشاوش الطيب : **الرجل الورع**

حفظ والدي نصف القرآن الكريم على يد أحد شيوخ المنطقة، وأصبح بعدها معلما للقرآن في المسجد، ولم تكن أجرته سوى بضعة حفنات من القمح والشعير، تدفعها له بعض العائلات التي ترسل أبناءها لتعلم اللغة العربية وحفظ القرآن في وسط كانت الأمية تضرب أطنابها في المنطقة، ونظرا للفقر المدقع الذي عانى منه سكان الدوار، فلم يكن والدي يحصل منهم على ما يكفيه لعيالة أهله فمعظمهم لا يدفع له شيئا، ومع ذلك فقد تعفف عن سؤالهم بسبب علمه بحالهم، أو ربما أراد أن يدخر أجره عند ربه معتبرا عمله ذاك في سبيل الله.

وعُرف والدي بين سكان الدوار باسم الشاوش الطيب لأنه كان يجمع الأموال وبعض الماعز من السكان ويأخذها إلى أحد الرجال الصالحين الذي اتخذ لنفسه صومعة واقعة بجبال "الإيدوغ" الشهيرة بعنابة يتعبد فيها، وكان يقطع الطريق من "أم العظايم" إلى "جبال الإيدوغ" مشيا على الأقدام لمدة يوم أو يومين حتى يصل إلى الرجل الصالح الذي يلقبه الناس بـ"الشيخ بوقشابية" ويسلمه الأمانة كاملة غير منقوصة، ولُقّب والدي بالشاوش لأنه كان بمثابة الحارس الموضوع تحت خدمة الشيخ بوقشابية.

وقد وقّر الناس الشيوخ و أولياء الله الصالحين إلى حد القداسة، وحتى بعد وفاتهم بنوا لهم الأضرحة والمزارات وقدموا لهم القرابين، وأتذكر كيف كانت والدتي تحلف وتقسم بالولي الفلاني، وتؤمن بكل ما يحكى عنهم من خوارق العادات وعجائب المعجزات، أمّا والدي فكان شديد الورع والتقوى، حريصا على أن لا يقرب المحرمات، ويجتنب الشبهات رغم علمه المحدود في أمور الدين، إلى درجة أنه كان يعيد الوضوء إذا صافح معمرا فرنسيا أو أوربيا، معتبرا مصافحة النصارى المحتلين من مبطلات الوضوء.

واشتغل الوالد كفلاح في الأرض التي ورثها عن أبيه رفقة أخيه الربيعي، إلى جانب تحفيظه للقرآن لأطفال الدوار، ولكن الأمطار كانت شحيحة في "أم العظايم" والغلة قليلة، والضرائب الفرنسية أثقلت كاهل الشقيقين حتى

أصبحا عاجزين عن تسديدها، وكي لا تستولي الإدارة الاستعمارية على أرض أجدادهما كما فعلت مع العديد من الفلاحين الذين عجزوا عن تسديد الضرائب، تنازل الشقيقان عن جزء من أرضهما لأحد أبناء عمومتهما - وكان شقيقا لهما من الرضاعة - مقابل أن يقوم بتسديد قيمة الضرائب التي فرضتها فرنسا عليهما، وهكذا ظلاّ على هذه الحال حتى لم يبق من أرض الأجداد سوى اثنا عشر هكتارا.

الرحيل إلى وادي الكبريت

اقتنع والدي أنه لا جدوى من أرض جدباء لا تؤتي الغلة التي تعيل أسرته وأسرة شقيقه الربيعي التي يقارب عدد أفرادهما الثمانية عشر فردا، ولا يفي ما تجود به لدفع الغرامات التي أثقلت كاهلهما، ففكر والدي في إيجاد عمل آخر يتقوت منه، فسافر إلى منطقة "غيم الشواني" القريبة من وادي الكبريت وكان يشتغل في السكة الحديدية بضعة أشهر ثم يعود إلى أم العظايم ويبقى بدون عمل لستة أشهر أو حتى سنة كاملة، ويكتفي برهن الأرض تارة وزرعها تارة أخرى أو يشترك مع أخيه بالرضاعة في زراعتها بعد وفاة شقيقه الربيعي، وبقي على هذا الحال يتردد بين زراعة الأرض وبين السفر للبحث عن عمل حيث يغيب شهورا وشهورا، حتى ضاعت الأرض بين الرهن والغرامة، فسلم والدي أمره لله وغادر "مشتة السوابع" بلا رجعة.

وقد التقى مرة بشخص يُدعى "الحاج عبد الرحمان دبز" ابن الشيخ الذي حفظه القرآن، وكان دبز يعمل مشرفا على ورشة السكك الحديدية بالونزة (تابعة لولاية تبسة حاليا) وهذا بفضل إتقانه للغة الفرنسية التي تعلمها عند أدائه للخدمة العسكرية في الجيش الفرنسي، فطلب منه والدي أن يجد له عملا في شركة السكة الحديدية، فوافق دبز على توظيفه في الورشة التي يُشرف عليها.

عاد الوالد فرحا إلى بيته وهو يحمل معه هذا الخبر السار الذي سيخفف عنه بعضا من ضنك المعيشة، وفي الغد جمع والديّ الأمتعة وسافرنا معه إلى منطقة تسمى "البئر الأعور" التي لا تبعد عن بلدة وادي

الكبريت سوى بنحو كيلومترين أو ثلاثة، وكنا حينها أربعة أبناء: بلقاسم، عائشة، السعيد، وأنا وكنت حينها لم أكمل بعد عامي الأول.

بنى والدي كوخا صغيرا على أرض يملكها رجل تونسي الأصل يدعى "عمر لملاغي"، وكانت جدران الكوخ من الطوب وسقفه من أوراق الديس والحلفاء الجافة، أما دعامة السقف فكانت عبارة عن ضلع خشبي يؤتى به من الجبل ويوضع فوقه الديس والحلفاء ويُصقل بالطين حتى يكون السقف متينا ولا تقطر منه المياه عند نزول المطر، وأقاموا في هذا الكوخ نحو سبع سنوات، كان حينها الشاوش الطيب يستيقظ باكرا مع الفجر وتعد له والدتي الكسرة والقهوة، وبعد تناول إفطاره يتوجه مشيا على الأقدام إلى وادي الكبريت للعمل في ورشة السكة الحديدية ولا يعود إلى البيت إلا مع العشاء أين يجد زوجته وأبناءه الصغار في انتظاره ليتناولوا العشاء مع بعض.

وبعد سنوات من الإقامة في "البئر الأعور" رحلوا إلى دار صغيرة أعطاهم إياها الحاج "عبد الرحمان دبز" الذي سكن في منزل مقاول فرنسي يدعى "بيرار" بصفته مسؤولا عن ورشة للسكة الحديدية بعد رحيل هذا الأخير الذي بنى جسرا صغيرا في منطقة مازالت تسمى باسمه إلى اليوم.

كانت دارنا الجديدة بمحاذاة منزل "الحاج عبد الرحمان" الواقع على أطراف قرية "وادي الكبريت" وأقمنا فيها مدة من الزمن، ولم يطل بنا المقام حتى رحلنا إلى بيت آخر يقع في وسط القرية اشتراه والدي من صهر دبز، فقد ازداد عدد أفراد الأسرة بميلاد يوسف، صالح، ومحمود وكان لا بد من إيجاد منزل أوسع قريب من المسجد لتحفيظ الأبناء القرآن الكريم.

قصة المئزر

التحقت بمدرسة قرآنية وعمري ثماني سنوات رفقة شقيقي يوسف الذي يصغرني بسنتين ودرسنا عند الشيخ "بلقاسم داعي" وهو شيخ ورع من أم البواقي التي كانت تسمى آنذاك "كاروبار" والتي تعني المركز

العسكري أو الثكنة، و لأن الشيخ بلقاسم صديق والدي بحكم أنه "ابن الدوار" ومن أقارب الحاج "عبد الرحمان دبز"، فقد عاملني وشقيقي يوسف معاملة خاصة مقارنة ببقية الأطفال، فكانا محظيين عنده.

الوالد كان يكره فرنسا وحتى لغتها ولم يسجلنا في الحالة المدنية، وفي نظره تعلم ما تيسر من القرآن وقليل من ابن عاشر أو سيدي خليل في غاية الكفاية، كان نصف الطلبة في ذلك الجامع يذهبون إلى المدرسة الفرنسية والنصف الثاني لا يستطيعون الذهاب لأن الآباء كانوا متهاونين أو عاجزين عن الحصول على ورقة من الأوراق الإدارية التي تطلبها المدرسة، علاوة على المقاعد القليلة والقليلة جدا في قرية يفوق سكانها ألف نسمة، فيها مدرسة واحدة لا يتعدى عدد المقاعد بها 50 مقعدا، وعندما كان بعض التلاميذ يخرجون من عندنا أي من الجامع الذي نقرأ فيه سويا ليذهبوا إلى المدرسة الفرنسية بما فيهم أولاد شيخنا شخصيا أحس بالموت تزورني وأبكي بالدموع، لماذا لا أذهب إلى الشكولة (المدرسة) ولكم حاولت أن يمكنني والدي من الذهاب إلى المدرسة لكن بدون جدوى، وهو يقدم لي الأسباب الواهية فتارة يتعلل بضيق الوقت لأنه يعمل حتى يوم الأحد (يوم الراحة الأسبوعية) وتارة أخرى يتحجج بصعوبة تسجيلي في الحالة المدنية حتى يتحصل على شهادة الميلاد لأدخل بها إلى المدرسة، وأحيانا يقول له البعض المدرسة لا تقبله لأن عمره عشر سنوات والعربية خير وخير، ورغم أن الوالد معلم قرآن يقرؤه حزبا حزبا لكن بالنسبة إليه لا يوجد شيء في هذه الدنيا سوى القرآن والله والجنة والباقي كله خرافة.

* * * *

مسجد القرية كان على غرار بقية منازل أهل المنطقة مبني بالطوب والإسمنت ومطلي بالجبس، ولم يكن عدد المصلين يتجاوز الإثنا عشر فردا، يؤمهم "الشيخ بلقاسم داعي"، وأحيانا يختارني الشيخ لأؤذن للصلاة خاصة في شهر رمضان، فيرفعني المصلون فوق سطح المسجد لأؤذن للناس، وكان

ذلك محل فخر والدي واعتزازه بي، خاصة وأن صديقه الشيخ داعي قد أنزل ابنه منزلة الكبار واختاره من بين جميع طلبة القرية ليؤذن للصلاة.

في مبادرة لشاب ذو مستوى نهائي يُدعى "لخضر بوشارب" بتشجيع من سكان القرية قام بتدريس الأطفال الذين لم يلتحقوا بالمدرسة الفرنسية وبنوا له قاعة للتدريس، ودرست رفقة شقيقي يوسف عنده ثلاثة أشهر ولمّا فتحت المدرسة الفرنسية أو ما يسمى المدرسة المسائية لتعليم الجزائريين بمختلف أعمارهم اللغة الفرنسية، توقفت عن الدراسة لدى ذلك الشاب والتحقت بالمدرسة المسائية أين درست بها أربعة شهور.

شقيقي بلقاسم

إحساس كبير بالمسؤولية كان يشعر به شقيقي الأكبر بلقاسم منذ مراهقته، إذ قرر ترك الدراسة في الجامع وهو لم يتجاوز بعد الخامسة عشر من عمره لمساعدة والدي على مصروف البيت، وأتذكر جيدا كيف كان بلقاسم يستيقظ باكرا هو الآخر ويصعد إلى أعلى جبل "مخيريقة" ليشتغل في "الداموس" وهو عبارة عن منجم للرصاص، ولكن هذا العمل رغم صعوبته خاصة بالنسبة لطفل لم يشتد عوده بعد إلا أنه لم يكن عملا قارا فكثيرا ما وجد بلقاسم نفسه بلا عمل.

وتمكن "بلقاسم" أخيرا من الحصول على منصب عمل في منجم الحديد بالونزة واشتغل ككاتب لإتقانه اللغة العربية والفرنسية، حيث يسجل مقدار ما يستخرجه كل عامل من خام الحديد سواء عبر آلة الحفر أو من خلال استعمال المتفجرات، وعلى أساسه يتقاضى كل واحد أجرته.

في 1939 اندلعت الحرب العالمية الثانية بين دول المحور المشكلة أساسا من ألمانيا، إيطاليا واليابان، وبين الحلفاء وعلى رأسهم بريطانيا وفرنسا وروسيا والولايات المتحدة الأمريكية، وقامت حينها السلطات الفرنسية بطرد الإيطاليين الذين كانوا يقيمون بالونزة بكثرة، وقبل مغادرتهم للجزائر قاموا ببيع الكثير من الكراسي والطاولات، واشترى شقيقي بلقاسم بعضا من هذا الأثاث لإعادة بيعه وترك بعضه للعائلة قصد استغلاله، ومنحت كرسيا للمعلم

"لخضر بوشارب"، واحتفظت لنفسي ولأخي يوسف بكرسيين لنجلسا عليهما أثناء دراستنا عند هذا المعلم، أما بقية التلاميذ فبعضهم يجلس على الأرض والبعض الأخر تدبر كرسيا أو طاولة للدراسة عليها، إذ كانت تلك المدرسة التي بناها القرويون غير مجهزة بالكامل.

شقيقي بلقاسم كان يشتغل في "منجم الونزة" لمدة عام أو عامين، ثم يتوقف عن العمل نظرا للمشقة التي يعانيها في المنجم، غير أنه يضطر مجددا للعودة إلى نفس العمل لصعوبة إيجاد منصب شغل، لكنه قرر أن يجرب حظه مع التجارة، ففتح محلا تجاريا صغيرا بعدما اكتراه من أحد المعمّرين الذي كان يربي فيه المواشي والدجاج والخنازير، فقام بلقاسم بكنس وتنظيف المكان وإعادة طلائه من جديد حتى أصبح صالحا ليكون محلا صغيرا، ثم جهّزه بمختلف السلع والمواد الغذائية ، وكنت أنا وأخي السعيد نساعده من حين لآخر في هذا المحل خاصة عندما يضطر للسفر لشراء السلع.

شظايا الحرب العالمية تصل الجزائر

لم تكن الجزائر ساحة رئيسية للحرب العالمية الثانية رغم مشاركتها بعشرات الألوف من رجالها في هذه الحرب إلى جانب الحلفاء ومساهمتهم الجوهرية في تحرير فرنسا الاستعمارية من الاحتلال النازي، لكن موقعها الاستراتيجي في الضفة الجنوبية من حوض البحر الأبيض المتوسط جعل قوات الحلفاء تقوم بإنزال كبير لجنودها في 1943 لوقف تمدد قوات المحور المتمركزة في ليبيا باتجاه الغرب حيث خاض الطرفان معارك شرسة في ليبيا وتونس، بل إن فرق استطلاع عسكرية ألمانية وإيطالية وصلت إلى عدة مناطق جزائرية حدودية في بوشبكة والونزة وتبسة، وقامت طائرة ألمانية في 1944 بقصف جسر بيرار في وادي الكبريت، وقد أثار هذا القصف رعبا شديدا في أوساط السكان، الذين ظنوا أن الألمان يريدون تدمير القرية بمن فيها، وحسب بعض الروايات فإن مغامرين جزائريين تمكنوا من سرقة أسلحة لجنود إيطاليين وحتى أمريكيين، ولم يكن من السهل سرقة أسلحة من الجيش الفرنسي على الرغم من حالة الضعف التي كان يعاني منها خلال الحرب العالمية الثانية.

تموين الشعب خلال الحرب العالمية الثانية

في وادي الكبريت كانت هناك بعض الأفراد من الشرطة البلدية، أما الدرك الفرنسي فكان أقرب مقر له في مدينة "العوينات" وكانوا يأتون من حين لآخر إلى قرية وادي الكبريت على ظهور الخيل في حالة وقوع أي حادث، وكان المعمر "مارسيل آلدي" عونا خاصا مهمته تبليغ البلدية أو الدرك بأي مشكل يقع في القرية، وفوق هؤلاء "القايد" الذي يحكم دوار مداوروش ـ وادي الكبريت، وهذا القايد كان من عرشنا.

في وقت الحرب كان كل شيء مفقودا في السوق لذلك قامت السلطات الاستعمارية بتوزيع حصص تموينية على أفراد الشعب (الدقيق والزيت والصابون...)، و يُشرف على توزيع المواد التموينية شخصان رفضا منح والدي حصته من المواد التموينية بحجة أنه يملك بقرتين و بضعة نعاج وماعز وأتانا وجحشا، بالإضافة إلى أنه عامل وله مرتبه النصف شهري، لذلك قررا حرمانه من هذه الإعانة التي قالوا إنها تُمنح فقط للمعوزين، في حين أن الكثيرين من أصحاب الوجاهة والمال كانوا يحصلون على هذه الحصص التموينية، وهذا ما جعلنا نحس بالظلم و"الحقرة" والإجحاف في حقنا، فالمواد التموينية في السوق كانت نادرة لذلك كان من الصعب الحصول عليها زمن الحرب حتى ولو كنت تملك المال. فكل شيء تقريبا مخصص لتموين الجيوش، لذلك تقدم والدي بشكاوي إلى من يعتقد بأن باستطاعتهم مساعدته لكن دون جدوى.

أعراس زمان

عشقت في صغري الأفراح و الأعراس ، فكنت لا أسمع بعرس في القرية إلا وذهبت إليه مع رفيق الطفولة "الحسناوي عاشوري"، للاستمتاع بسماع "القصبة" والبندير ومشاهدة المرأة التي ترقص وسط المدعوين على أنغام أحد المطربين الشعبيين والتي تكون عادة أم العروس أو العريس، وفي الوقت نفسه تتعالى زغاريد النساء في جو بهيج من الفرح والغبطة تنسيهم ولو للحظات جحيم الاستعمار.

وما يعجبنا أكثر عندما يعلو صوت "البراح" الذي يأتي مع فرقة الموسيقى ملوحا بالأوراق النقدية التي يجمعها من المدعوين ويتفاخر الناس بمن يقدم من المال أكثر، حيث يذكرهم هذا الرجل واحدا واحدا ويفاخر بكل من يقدم مالا أكثر، مستعملا كلاما موزونا تطرب لسماعه الأذن كقوله "زغردوا يا نساء على (فلان).. الناس تعطي المال بالكمشة وهو يعطي بالغراف".

كنت حينها أعتقد أن الرجال الذين يجيدون فن الكلام وجمع الأموال في الأعراس هم قمة النباهة والفصاحة والنبالة فكنت أحيانا أقطع مسافة أربعة كيلومترات إلى عشرة كيلومترات مع صديقي وبعض أطفال القرية الذين كانوا يرافقوننا أحيانا لحضور الأعراس والأفراح والاستماع إلى فصحاء ذاك الزمان، ولم يكن من السهل إطلاق البارود في الأعراس إلا بالنسبة للشخصيات المعروفة أو التي لها علاقة بالإدارة الاستعمارية وتحمل رخصة منها.

وفي بادية "أولاد سيدي عبيد" التي لا تبعد سوى نحو ست كيلومترات كان ينظم مهرجان شعبي يسمى "وعدة" أو "زردة" كل سنة، يدعى فيه الناس من مختلف المناطق المجاورة والبعيدة، ويطبخون لضيوفهم طبق الكسكسى المشهور في الجزائر، ويُقام هناك استعراض للفرسان الذين يركضون بأحصنتهم في الميدان ويطلقون في نفس الوقت البارود في السماء وهو ما يثير إعجابنا، فلم أدع عاما يمر إلا وذهبت إلى "وعدة أولاد سيدي عبيد" إلاّ إذا اعتراني طارئ ما، إذ كنت أنتظر اليوم الذي يُنظم فيه هذا المهرجان بفارغ الصبر، وأعلم موعد انطلاقه شهرا من قبل، وحينما يحين الموعد ألتقي مع بعض أصدقائي ممن يدرسون معي في المسجد وغيرهم ونترافق في جماعة إلى زردة أولاد سيدي عبيد.

الرحيل إلى تبسة (1946)

كان الجزائريون يشتغلون في الونزة في الأعمال الصعبة والشاقة وقليل منهم من يعمل رئيس ورشة، في حين سيطر الأوروبيون على معظم المهن الإدارية وتولوا أغلب المسؤوليات وكانوا من جنسيات مختلفة (إيطاليون،

إسبان، يونانيون، مالطيون...) كل حسب تخصصه، فقد كانت الونزة عبارة عن منجم كبير في الجزائر حتى وُصفت بأنها دولة في قلب دولة وهذا قبل اكتشاف الغاز والبترول في الصحراء، كما أنها كانت تضم سوقا أسبوعيا يرتاده الناس من المناطق المجاورة على غرار سكان "وادي الكبريت" الذين كانوا يتسوقون أيضا من "سوق العوينات" القريبة منهم.

بعد ثلاث سنوات قرر شقيقي بلقاسم الرحيل مع الأهل إلى تبسه بعد أن تعارك مع أحد الأشخاص في وادي الكبريت كما أن تجارته في هذه القرية الصغيرة لم تكن ناجحة، فاشترى بيتا من أحد اليهود، غير أن هذا البيت كان بدون سقف، فقام بلقاسم بمساعدتنا بترميم وإصلاح هذه الدار، وبناء السقف بالألواح والاسمنت، وخصص جزء من البيت ليتخذه محلا تجاريا في مدينة تبسة التي كانت أكبر حجما من الناحية السكانية ولربما حقق بلقاسم بعض الأرباح التي تمكنه من إعالة الأهل بعدما أحيل والدنا على التقاعد، فأخذني معه إلى أحد التجار الذين يعرفهم وطلب منه تزويده ببعض السلع لإعادة بيعها على أن يتم تسديد ثمنها لاحقا، وكان له ما أراد، فافتتح محله وباع واشترى ورضي بما قسمه الله له من رزق.

الفصل الثاني

البحث عن وطن

بداية الوعي السياسي

في تبسة كانت الأخبار تتداول بين الناس عن تكتل الأحزاب السياسية في الجزائر، وأن الحلم باستقلال الجزائر أصبح ممكنا في حالة انتصار الحلفاء بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية، بريطانيا و الاتحاد السوفياتي بالإضافة إلى فرنسا على دول المحور الممثلة في ألمانيا، إيطاليا واليابان، وبرز في تبسة عدة شخصيات مناضلة في حركة أحباب البيان والحرية أمثال الطيب كنوش، وشقيقي بلقاسم الذي كان من أنصار حزب الشعب الجزائري بزعامة مصالي الحاج، وكنت أرافق شقيقي بلقاسم من حين إلى آخر إلى مكتب الحركة في تبسة أين كان يجمع الاشتراكات ويوزع بطاقات الانخراط، ويسجل كل ذلك في سجل خاص بالمنخرطين وبقيمة الاشتراكات.

ودفعني الفضول إلى محاولة فهم حقيقة ما يجري في الجزائر من تفاعلات سياسية مرتبطة بمخاضات دولية رغم صغر سني، واعتقدت أن انتصار الحلفاء في الحرب العالمية الثانية يعني مباشرة حصول الشعب الجزائري على حق تقرير مصيره، وقد كلّفت مع عدد من الفتيان بالاتصال بالناس في الأحياء، وفي أماكن عملهم للذهاب إلى مكتب الحركة لتسجيل أنفسهم، والانخراط فيها والتي وحدت جميع الأحزاب الجزائرية في إطار واحد، كما قمت بتوزيع بطاقات الانخراط على المناضلين الجدد.

وازداد وعيي بالقضية الوطنية واستقلال الجزائر من خلال احتكاكي أكثر بمناضلي أحباب البيان خاصة أولئك الذين كانوا يأتون من قالمة إلى تبسة على غرار "عبد الحق مدور" الذي كان يقوم بتوعية الشباب وإخبارهم بحقيقة الوضع السياسي في الجزائر والتطورات التي تحدث في البلاد وفي العالم، وكنت أستمع باهتمام لكلام عبد الحق ونحن جالسان على درج إحدى البنايات، وأخبرني هذا الأخير عن مناضلين ناشطين في قالمة أمثال "سعيد لاتوميك" و"الساسي" اللذين لعبا دورا بارزا في نشر الوعي السياسي بقالمة.

أصبحت حركة أحباب الحرية والبيان تيارا واسعا في الجزائر، وانتشرت في العديد من المدن والقرى من الشرق إلى الغرب، وتعلق الجزائريون أكثر من أي وقت مضى بأمل الاستقلال، ففرنسا حينها كانت ضعيفة والألمان يسيطرون على شمالها، أما نصفها الجنوبي فخاضع لإدارة حكومة "فيشي" الموالية للألمان بقيادة الماريشال "بيتان"، فيما قاد الجنرال "شارل ديغول" فرنسا الحرة لتحرير بلاده من الاحتلال النازي انطلاقا من المستعمرات الفرنسية.

أحداث 8 ماي 1945

بعد إعلان الحلفاء انتصارهم على دول المحور خرج المعمّرون الأوروبيون في وادي الكبريت إلى الشارع للتعبير عن فرحتهم بهذا الانتصار، والجزائريون بدورهم خرجوا هم أيضا للاحتفال بهذا النصر ولكن بطريقتهم الخاصة معتقدين أن فرنسا الاستعمارية ستمنحهم بعد هزيمة النازية حق تقرير المصير، فحملوا العلم الجزائري ورفعوا شعارات منادية باستقلال الجزائر، وصاحوا بالفرنسية "حرروا مصالي"، "تحيا الجزائر المستقلة"، وانتشرت المظاهرات في عدة مناطق من الوطن، ولم يكن أحد يتصور أن فرنسا المنتشية بانتصارها على ألمانيا النازية سترد على الجزائريين الذين ساهموا في تحرير أرضها من الاحتلال النازي بارتكاب مجازر مروعة قتلت فيها 45 ألف جزائري بدم بارد في قالمة، سطيف، وخراطة وفي غيرها من مناطق الوطن المختلفة.

وقد شاركت في هذه المظاهرات بوادي الكبريت التي رفع فيها العلم الجزائري، وطولب فيها بإطلاق سراح "مصالي الحاج" واستقلال الجزائر، ولم نكن حينها نشعر بخطورة هذا الأمر أو مدى تأثيره على الفرنسيين إلا عندما تقدم المعمرون مدعمين بالشرطة البلدية وهجموا على المتظاهرين بالضرب والشتم، وفرقوا ذلك التجمع الذي ضم نحو 200 متظاهر، كما طلبوا تعزيزات الدرك من مدينة "العوينات"، وعندما حاولت الهرب من قمع الشرطة البلدية أمسكني أحد الأوربيون من سترتي وكان

يدعى "فرنسوا" صهر رئيس البلدية بالنيابة ولكنني تمكنت من الإفلات من قبضته بعدما تخلصت من سترتي، فرفعها الأوربي بعصاه.

ولم يطل الوقت حتى سمع الناس في وادي الكبريت بالجرائم التي ارتكبها الفرنسيون في حق الجزائريين العزل، وطالت الاعتقالات في وادي الكبريت شقيقي بلقاسم والطيب كنوش اللّذين كانا معروفين بنشاطهما النضالي في صفوف حزب الشعب بالمنطقة وبقيا مسجونين لنحو شهر ثم أُطلق سراحهما.

وبعد الرحيل إلى تبسه في عام 1946 واصل شقيقي بلقاسم اتصالاته ولقاءاته مع مناضلي حركة أحباب البيان والحرية هناك، وجرت في ذلك العام الانتخابات الرئاسية في فرنسا بعد استقالة الجنرال "شارل ديغول"، والتي أفرزت فوز "فنسون أوريول" الذي تميزت سياسته بمحاولة إظهار تخفيف فرنسا لقبضتها الحديدية على التيارات السياسية الوطنية حيث أصدر عفوا عاما عن الأفراد الذين اعتقلوا في مظاهرات 1945.

وخلال الحملة الانتخابية البرلمانية الفرنسية نشطت الأحزاب السياسية الجزائرية للظفر بمقاعد في البرلمان الفرنسي ضمن الحصة المخصصة للجزائريين المسلمين، وشارك في هذه الانتخابات إلى جانب حركة انتصار الحريات الديمقراطية كل من الحزب الشيوعي الجزائري والاتحاد من أجل البيان الجزائري.

الحملة الانتخابية في تبسة

في تبسة أصبحت أكثر اهتماما بالانتخابات البرلمانية خاصة وأنني صرت أحد مناضلي حزب الشعب الجزائري أو بالأحرى الاتحاد من أجل الحريات الديمقراطية رغم أن سني لم يكن يتعدى حينذاك 17 سنة، حيث سهل وجود شقيقي الأكبر في حزب الشعب منذ سنوات فرصة فهم الواقع السياسي للجزائر التي كانت ترضخ للاستعمار الفرنسي.

وقاد شخص يُدعى "يونس كش" الحملة الانتخابية للحزب الشيوعي في تبسة، كما ترشح عدد من الأحرار الموالين لفرنسا كان من بينهم شخص

يدعى "مشري"، كما ترشح "بن جرو الذيب"، وهو من عرش أولاد سيدي يحيى، أما حركة انتصار الحريات الديمقراطية فرشحت محمد محفوظي، ونشط الحملة الانتخابية للحزب في تبسة أعضاء من القيادة الوطنية أمثال الدكتور الأمين دباغين" والشيخ بلقاسم البيضاوي (زيناي) وحمه العمري وحمه الباهي، أما حزب فرحات عباس فقاد حملته الانتخابية الدكتور خالدي والذي عمل بعد الاستقلال مع "بن بلة".

وعملت رفقة مناضلي الحزب على توعية الناس بأهمية الانتخابات وكيفية الانتخاب، وعرضنا عليهم نماذج من ورقة التصويت التي تمثل مرشحي حركة انتصار الحريات الديمقراطية في تبسة خاصة وأن الجهل والأمية كانا يضربان أطنابهما في المنطقة وفي كامل القطر الجزائري إبان الاحتلال.

وبعد نحو عام من ذلك نظمت الانتخابات البلدية يوم 19 أكتوبر 1947 وفي تبسة أفرزت الانتخابات البلدية عن فوز حمه العمري من حزب مصالي الحاج على رئاسة البلدية التي كان على رأسها شخص أوروبي، أما حزب فرحات عباس ففاز منه بعضوية المجلس البلدي شخص يدعى "بوذراع"، وفي قسنطينة خرج من حزب مصالي "بوجريدة"، وفي الجزائر العاصمة "كيوان".

وعندما تقرر إنشاء برلمان جزائري جديد يضم في عضويته 60 نائبا أوروبيا و60 نائبا مسلما، جرت انتخابات تشريعية جزائرية في 4 أفريل 1948 لكنها عرفت تزويرا فاضحا خاصة عندما ألقت الشرطة الفرنسية القبض على 32 من مجموع 59 مرشحا من حركة انتصار الحريات الديمقراطية، وأصدرت بحقهم أحكاما بالسجن لمدة 80 شهرا ودفع غرامات مالية لا تقل عن 700 ألف فرنك، ونجح الحاكم الفرنسي الجديد للجزائر "نايجلان" في تزوير الانتخابات التي أفرزت فوز المستقلين الذين رشحتهم الإدارة الفرنسية بـ41 مقعدا، وحصول حركة انتصار الحريات الديمقراطية على 9 مقاعد، وثماني مقاعد للاتحاد الديمقراطي للبيان ومقعدين للمستقلين الاشتراكيين.

ساد في صفوف حركة انتصار الحريات الديمقراطية نوع من الاستياء والغضب لهذا التزوير الفاضح الذي صادر مجددا إرادة الجزائريين، ولم تكن الظروف تسمح لي بفهم الأمور بصفة أعمق لا في قيادة الحزب ولا حتى على مستوى مدينة تبسة، حيث كانت الأمور الحزبية تتداول في سرية، غير أنني كنت أعرف عن قرب القيادات المحلية للحزب في تبسة أمثال محمد محفوظي، حمه باهي، حمه العمري، أحمد علاق، علي بن علي، حمه لخضر الفجي الصائغي المعروف بطرافته وحضور نكته، والذي كان يسكن على الطريق المؤدية إلى المدينة، ولُقّب بالفجي نسبة إلى الفج الذي يعبر منه الجزائريون إلى أقرب مدينة تونسية حدودية، وكان يأتي إلى مدينة تبسة لابسا "القشابية" وواضعا على رأسه قبعة، ويقول بالفرنسية ساخرا " فرنسي مسلم"، فالقبعة بالنسبة إليه ترمز لفرنسا والقشابية ترمز إلى كونه مسلم، وأحيانا كان حمه الفجي يرمي قطعة نقدية في الأرض ويدوسها برجله ثم يقول لأصحابه ساخرا "معبودكم تحت رجلي"، وكان هناك "كمال الساكر" أحد نشطاء الحزب البارزين في تبسة، والذي حاولت الشرطة اعتقاله لكنه تمكن من الفرار والاختفاء، بالإضافة إلى "الشاذلى المكي" وهو واحد من نشطاء حزب الشعب الجزائري وكانت له يد مبتورة، ولا يحضر الاجتماعات السرية للحزب إلا متخفيا، وعندما حاول الهرب إلى خارج الجزائر خوفا من أن تعتقله السلطات الاستعمارية وضع يدا اصطناعية، ولبس لباس عقيد في الجيش الفرنسي وتمكن بذلك من عبور الحدود الجزائرية التونسية في القطار عبر منطقة "غار دماو".

وأثناء المهرجانات الانتخابية التي كان ينظمها قادة حركة انتصار الحريات الديمقراطية كالشيخ "بلقاسم زيناي" الملقب "بالبيضاوي" نسبة إلى مدينة عين البيضاء (تابعة لولاية أم البواقي حاليا) والتي كان يحضرها أفراد من الشعب، يسعى المناضلون إلى جمع أكبر عدد منهم لإبراز مدى قوة وشعبية وتجذر حزبهم في الميدان، وساد خلال الحملات الانتخابية نوع من حرية التعبير، إذ كان الشيخ البيضاوي في خطاباته يدعو إلى تقرير المصير وبناء دولة جزائرية مستقلة كاملة السيادة مع السماح ببقاء

الأوروبيين في الجزائر ومشاركتهم في الحياة السياسية للبلاد، حيث كان الشيخ البيضاوي يشرف على إحدى المدارس الحرة التابعة لحزب الشعب الذي قام بمبادرات في هذا الشأن على غرار ما قامت به جمعية العلماء المسلمين وكان من بين أشهر مدرسي حزب الشعب عبد الحميد مهري ومحمد محفوظي.

ومن الطرائف التي تروى عن الشيخ البيضاوي أنه عندما كان يدرِّس بعض الطلبة أطل عليهم من فوق الصور مفتش شرطة فرنسي صعد فوق شرطي جزائري للتجسس على الشيخ البيضاوي وما يقوله للطلبة، فرآه أحد الطلبة فنبه شيخه، فقام الشيخ البيضاوي بتسريح الطلبة ثم خرج من المدرسة، فاعترض الضابط الفرنسي طريقه وسأله:

"ماذا كنت تعلمهم ؟"

فرد عليه الشيخ البيضاوي: "قلت لهم أن يتعلموا حتى لا يصعد أحد فوق ظهورهم كما صعدت أنت على أكتاف ذلك الجزائري".

وكان حاكم المنطقة يأتي أحيانا إلى تبسة لتنظيم مهرجانات شعبية لابسا برنوسا أسود وحذاء جلديا، وقبعة فرنسية الصنع تشبه القبعات التي يلبسها الضباط الفرنسيون، وتمكنت من رؤية الحاكم الفرنسي لمنطقة قسنطينة مرتين في ذلك الوقت، فقد كان رجلا طويل القامة، وصارما في تعاملاته إلى درجة أنه يقوم أحيانا بضرب وإهانة بعض الرجال بصفعهم أو حتى ركلهم إن سمع منهم ما يغضبه أو يُسيئ إليه.

وعادة ما كانت حركة انتصار الحريات الديمقراطية تنظم مهرجاناتها الشعبية في المدن الكبرى مثل خنشلة، تبسة، عين البيضاء، وقد ترشح شقيقي بلقاسم في الونزة ولكنه لم يفز بالانتخابات، لأن الشعب كان يحب الوطنية لكنه لم يَكن يفهمها، فالخوف من بطش فرنسا وأعوانها يملأ القلوب، خاصة فئة الموظفين الذين كانوا يتمتعون بقدر من الوعي السياسي لكنهم كانوا يخشون من فقد مناصب عملهم إن أظهروا انتمائهم لأي من الأحزاب السياسية الجزائرية خاصة حزب الشعب الجزائري، وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وخلال الانتخابات تعارك مناضلو حزب الشعب الجزائري ومناضلو الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري في

تبسة مع أذناب الاستعمار، وعندما دخل "أحمد بومنجل" وهو من قيادات حزب فرحات عباس وكان معروفا بحدة طباعه ركل صندوق الاقتراع برجله حتى انكسر الصندوق وحدثت مناوشات بين مناضلي الحزبين والموالين للاستعمار.

وحسبما سمعته من بعض مناضلي حزب الشعب فإن "مصالي الحاج" الذي التقى عدة زعماء عرب وعالميين في سويسرا أمثال شكيب آرسلان (لبنان) عزام باشا (مصر) هوشي منه (الفيتنام) وكارل ماركس (ألمانيا) نصحه بعضهم بالمشاركة في الانتخابات التي تُنظمها فرنسا حتى ولو فاز بعدد قليل من النواب حتى لا يدع الساحة السياسية مفتوحة لمنافسيه من الأحزاب الأخرى كالبيانيين والشيوعيين.

اكتشاف المنظمة السرية

تشكلت النواة الأولى للمنظمة السرية بعد انعقاد المؤتمر الأول لحركة انتصار الحريات الديمقراطية في فيفري 1947، وكانت بمثابة الجناح العسكري للحزب، وأُوكلت لها مهمة جمع السلاح وتدريب الرجال تحضيرا لثورة التحرير ضد الاحتلال، وأسندت قيادة المنظمة السرية لمحمد بلوزداد يساعده في ذلك حسين آيت أحمد ومحساس، إلى جانب كل من أحمد بن بلة، محمد بوضياف، جيلالي رحمي، محمد ماروك، وجيلالي بلحاج المدعو كوبيس وكان هذا الأخير عميلا للمخابرات الفرنسية واندس في المنظمة السرية وتولى مهام التدريب وحسب ما رواه لي مصطفى بن بولعيد عندما كنا في سجن الكدية فقد كان مقررا أن يعين جيلالي بلحاج قائدا للمنطقة السادسة (الصحراء) قبل أن يفتضح أمره ويتم القضاء عليه.

وفي 5 أفريل 1950 قامت المنظمة السرية بالاستلاء على 3,170 مليون فرنك فرنسي قديم من بريد وهران، وذلك لتوفير الأموال اللازمة لشراء الأسلحة فقد كان للمنظمة السرية 2500 مقاتل منظمين إلا أنه لم يكن لديهم أسلحة، وقد نجحت هذه العملية بفضل التنظيم المحكم من

طرف بختي جلول (نميش) الذي زود المنظمة السرية بالمعلومات عن بريد وهران لأنه كان عاملا هناك، و"أحمد بن بلة" الذي كان مسؤولا عن ناحية وهران والذي قاد مجموعة الكومندوس التي نفذت العملية بمشاركة سويداني بوجمعة.

إلا أن الحادثة التي تسببت في انكشاف المنظمة السرية وقعت في 18 مارس 1950 بتبسة، وروى لي صديقي ابراهيم هوام أحد أعضاء المنظمة السرية في تبسة كيف أدى قرار تأديبي لأحد أعضاء المنظمة السرية إلى اعتقال الكثير من أعضائها، حيث قررت قيادة المنظمة الخاصة معاقبة "رحّيم" بسبب انتقاده لقيادة الحزب عقب استقالة الأمين دباغين من الحزب في 1949، واعتُبرت هذه الإنتقادات بمثابة إفشاء لأسرار التنظيم الذي كان يتميز بالصرامة الشديدة.

وأُرسلت لجنة التأديب إلى تبسة في 1950، والتقوا مع رحّيم، وتحدثوا معه قليلا، ثم طلبوا منه أن يتمشى معهم قليلا إلى أن وصلوا بالقرب من سيارة متوقفة كان بداخلها أحد الأعضاء الخمسة وقالوا له "اركب"، أحس حينها "رحّيم" بأن هناك نية مبيتة لمعاقبته وربما لقتله بسبب الانتقادات التي وجهها لقيادة الحزب، كما أنه لم يأت معهم ليركب في السيارة فرفض الركوب، لكنهم دفعوه بقوة وأرغموه على ركوب السيارة رغم مقاومته، وانطلق السائق بالسيارة مسرعا، غير أن "رحّيم" اندفع نحو مقود السيارة لعمل أي شيء لإنقاذ نفسه ففقد السائق السيطرة على السيارة فانحرفت عن الطريق واصطدمت بشجرة، عندها نزل أحدهم، وأخذ أداة حديدية (مانيفال)، وضرب رحّيم بها فأفقده وعيه، وتعالا الصراخ، وتجمع الناس حول الحادث، وجاءت الشرطة وحملت رحّيم إلى المستشفى، وكان أعضاء لجنة التأديب حينها قد غادروا المكان باتجاه مدينة قسنطينة، إلا أن الشرطة الفرنسية تمكنت من إلقاء القبض على بعضهم.

وكشف "رحّيم" لدى مساءلته عن أسرار المنظمة السرية، وعلى إثر ذلك تم اعتقال العديد من القيادات والأعضاء في المنظمة السرية من بينهم زيغود يوسف، عمار بن عودة على ما أتذكر، وفي هذه الفترة بالذات تعرضت

مخازن الذخيرة والسلاح الذي جمعه "مصطفى بن بولعيد" في مخازن كانت مخصصه للقمح والشعير في الأوراس إلى انفجار كاد يفضح الأمر كله، فقدم مصطفى بن بولعيد 200 ألف فرنك فرنسي قديم لمفتش الشرطة مقابل تغاضيه عن هذا الأمر.

العمل في الونزة

في 1950 عاد شقيقي بلقاسم إلى مدينة الونزة للعمل في مناجم الحديد ورجعت العائلة إلى وادي الكبريت، واضطر والدنا للعمل مجددا في السكك الحديدية رغم كبر سنه وهذا بعدما لم يوفق بلقاسم في تجارته بتبسة، ونظرا لأن عائلتنا كانت كثيرة الأفراد خاصة بعد أن تزوج "بلقاسم" وأُضيف إلينا اثنان من أقربائنا، أصبحت وشقيقي السعيد نعمل من حين لآخر في أعمال خفيفة، وبسبب نقص المياه في الونزة وحاجة المنجم إلى كميات إضافية من المياه تكفلت شركة فرنسية بالتنقيب عن المياه الجوفية إلى أن عثرت على احتياطات مائية جوفية في أرض رجل جزائري اسمه "علي غول" ثم قاموا بحفر بئر ارتوازية، وضخ مياهها من هناك إلى الونزة عبر أنابيب المياه على مسافة تصل إلى 15 كيلومتر.

في هذه الفترة عدت إلى الجامع لحفظ القرآن في النهار وأخذ دروس ليلية بالفرنسية، ونظرا لحاجة العائلة إلى مورد مالي إضافي خاصة بعد تقاعد الوالد الذي أصبح يُدرس القرآن، وفي بعض الأحيان يعمل في ورشات موسمية، أصبحت مضطرا للعمل خاصة بعد أن اشتد عودي وبلغت مبلغ الرجال، رغم أن الخبرة كانت لا تزال تعوزني.

درست ثلاثة أشهر عند المعلم لخضر بوشارب رفقة ثلاثة أو أربعة طلبة غير أن هذا المعلم استُدعي إلى التجنيد الإجباري في الهند الصينية كدركي في الجيش الفرنسي، حيث شارك في الحرب الفيتنامية التي انتهت بهزيمة فرنسا في 1954، وبعد الاستقلال جاءني إلى وزارة الدفاع عندما أصبحت قائدا للأركان، فعينته ضابطا في الدرك الوطني.

بعد أن حفظت 30 حزبا من القرآن الكريم توقفت عن ارتياد المسجد لحفظ القرآن كما توقفت عن الدراسة في المدرسة المسائية، ورأى والدي

أن يدفع بي للعمل خاصة بعد أن سمع بمشروع "عين الشانية" لنقل المياه الجوفية، والذي يحتاج إلى يد عاملة كثيفة، لذلك تم توظيف نحو مئة شخص لحفر القنوات ورص الأنابيب، ولحسن حظي أن والدي كان يعرف شخصا يدعى "عمار فارح" عامل في إحدى ورشات هذا المشروع فطلب منه أن يساعده على توظيفي في هذا المشروع، فقال له عمّار: يا شاوش ليس من السهل توظيفه فلا بد من تقديم بعض الهدايا حتى أنا عندما توظفت في هذا المشروع قدمت دجاجا وبيضا، فرد عليه الشاوش: هذا أمر سهل.

واستطاع والدي أن يجمع له سلة من البيض ودجاجة وعلبة من عسل النحل الصافي وسلم هذه "الهدية" إلى عمار فارح مقابل توظيفي، فقبلها هذا الأخير ليقدمها إلى الأوروبي صاحب الورشة، وطلب منه أن يُرسل ابنه في الغد ليرافقه إلى العمل، فالقطارات تمر يوميا على وادي الكبريت وتتوقف في الونزة بعد أن تمر على محطة تسمى "الدوز" أو 12، ومن هذا المكان يقطع العمال مسافة كيلومترين إلى ثلاثة للوصول إلى مكان العمل "بعين الشانية"، وفي صباح الغد انطلقت رفقة عمار فارح إلى "عين الشانية"، حيث كلّفت بحفر القنوات إلى جانب بقية العمال الآخرين، ويتم الحفر على مسافة ثماني أمتار يوميا لكل عامل، ويطوف على العمال مراقبون يُدعون "بالكابرانات" ذهابا و إيابا، ويقومون بقياس العمق والطول والعرض قبل تسجيل أن كل عامل أدى ما عليه في ذلك اليوم.

غير أنني في أول أيام العمل وضعت لأحفر في مكان قاس وصعب وتربته صلبة ومتماسكة كالصخر، وأنا بعد لم أزل فتى يافعا لم أتعود على مثل هذه الأشغال، وأُعطيت فأسا ورفشا بعدما تم تحديد أمتاره الثمانية الواجب علي حفرها بعدد الخطوات، وشرعت في ضرب الأرض الصلبة بالفأس بكل جهدي وظللت على هذه الحال طوال اليوم حتى كلت قواي وانتفخت يداي لعدم اعتيادي على مثل هذه الأعمال الشاقة، ونال مني الإرهاق والتعب ما نالني حتى دعتني نفسي إلى ترك هذا العمل الذي يخطف الأنفاس، ولكني تذكرت أن الكثير من الشباب يأتون يوميا إلى

رئيس الورشة لعل وعسى يحظون بعمل، غير أن معظمهم يعود خالي الوفاض، كما أن والدي دفع رشوة من أجل توظيفي، فهل بعد كل هذا أترك العمل من أول يوم؟

وفي المساء عدت إلى البيت خائر القوى محبط العزيمة، وقضيت ليلتي تلك محاصرا بالكوابيس التي تُذكرني بذلك اليوم الجهنمي الذي لم أقض مثله في حياتي، لكني عزمت بيني وبين نفسي أن لا أعود إلى ذلك العمل مهما كلفني الأمر من ثمن.

مرّ يومان ولم أذهب إلى الشغل، وكان نظام العمل هناك يقضي بفصل أي عامل يتغيب عن العمل دون مبرر مقنع، وعندما التقى عمار فارح بوالدي سأله:

- ما بال ابنك لم يعد يأت إلى العمل؟

غضب والدي لما علم بالأمر وشعر بأني لا أقدّر حجم التضحيات التي يفعلها من أجلي، لأن إيجاد عمل في مثل هذه الظروف أمر من الصعب بمكان، فكيف يفرط المرء بعمل كهذا؟!، دخل والدي البيت غاضبا وأنّبني بشدة على ترك العمل، فرددت عليه:

- أنا لا أستطيع القيام بهذا العمل المرهق، وانظر إلى يديّ كيف تفسختا من شدة العمل.

كان "عمار فارح" قد طلب من والدي أن يُقنعني للعودة إلى العمل وقال له:

- قل لأبنك يأتي فقط وأنا سأتدبر الأمر.

وكما كان الحال عدت مرغما للعمل في ورشة الحفر، إلا أن "عمّار" صاحب البنية القوية والذي يشبه "البلدوزر" في سرعة العمل طلب من مراقب الورشة أن يجعله يعمل بجنبي، إذ أنه وبمجرد أن ينهي حفر أمتاره الثمانية يواصل الحفر حتى يكمل حصتي.

ولم يطُل الأمر، فبعد خمسة أيام جاء السباكون تحت إشراف أحد المعمرين الأوروبيين من أصول إيطالية ويسمى "بينا" ومعه نائبه وهو أحد

اللاعبين المعروفين في الونزة يدعى "ليلي"، وبدأت مرحلة وضع الأنابيب الحديدية في القناة التي تم حفرها.

لم يكن العمل صعبا هذه المرة واستحسنته لأنه أرحم من الحفر، لذلك واصلت العمل بعزيمة أقوى من ذي قبل حتى تم إنجاز المرحلة الثانية من المشروع وإيصال قنوات المياه من البئر الارتوازي إلى غاية منجم الونزة.

أصبحت عاملا دائما لدى هذا المقاول الإيطالي نظرا لأني كنت أجيد الفرنسية، وهو أمر لم يكن متوفرا لدى معظم العمال، فقليل هم الذين يجيدون لغة "الخبز"، فاشتغلت مع فريق من الكهربائيين، وعندما لا يكون هناك عمل محدد معهم أوجه للعمل في ورشة للميكانيك كمساعد لميكانكيين أوروبيين أحدهم إسباني والأخر إيطالي والثالث فرنسي.

وعلى طول قنوات نقل المياه كانت هناك ثلاث مضخات، وكُلّفت بتعويض أحد حراس المضخة خلال أيام عطلته الأسبوعية سواء بالسبت أو الأحد أو خلال عطلته السنوية، وهكذا ضمنت لنفسي عملا قارا وأجرة نصف شهرية.

الفصل الثالث

الطريق إلى الحرية

تونس والمغرب تنتفضان ضد الاحتلال

مع بداية الخمسينيات بدأت أصداء المظاهرات والاحتجاجات المطالبة بالاستقلال في كل من المغرب وتونس تصل إلى الجزائر، بل إن التونسيين بدؤوا في تشكيل أفواج مسلحة قامت بعدة عمليات ضد مصالح العدو، وكان لا بد على الجزائريين هم كذلك التحرك لاستكمال مسار مقاومة الاستعمار الفرنسي في المغرب العربي خاصة بعد الهزيمة المدوية التي أصابت الجيش الفرنسي في معركة "ديان بيان فو" بالهند الصينية على يد الثوار الفيتناميون بقيادة الجنرال "جياب" في 1954، و قبلها نجاح الثورة المصرية بقيادة جمال عبد الناصر في الإطاحة بالنظام الملكي في 1952.

مناضلو حزب الشعب الجزائري في القاعدة كانوا ينتظرون بفارغ الصبر تلك اللحظة التي يدعوهم فيها مصالي الحاج إلى الثورة ضد الاحتلال بعد سنوات من التعبئة السياسية والنفسية، لكن هذا الأمر كان أشبه بالحلم في ظل الانقسام الحاصل داخل الحزب بين المصاليين والمركزيين، إلا أن طرفا ثالثا في الحزب بدأ يضغط لصالح الإسراع في إعلان الثورة والجهاد ضد المستعمر خاصة وأن الظروف الدولية جد مواتية للقيام بمثل هذا العمل.

في تلك الفترة كنت مناضلا في حزب الشعب ومداوما في قسمة "الونزة"، بالإضافة إلى كوني عضو مكتب نقابة عمال منجم "الونزة" المقربة من حزب الشعب. والتي تشكلت عقب الخلاف الذي وقع بين أحد قيادات الحزب المنخرطين في الكنفدرالية العامة للشغل ذات النزعة الشيوعية وبين الأمين العام لهذه النقابة الجديدة. حيث بلغت الصراعات بين الجناحين من الحدة درجة استعمال العصي، واستغرقت الأزمة أكثر من سنة، وانتهت بطرد مناضلي حزب الشعب من صفوف النقابة، ولهذا قام النقابيون المنخرطون في الحزب بتأسيس نقابة خاصة بهم، وقد كانوا معروفين واحدا واحدا، ويشار إليهم بالبنان، وهو ما يجعلهم مهددين بحرمانهم من حقوقهم الاجتماعية، في حال اكتشاف السلطات الاستعمارية لميولاتهم التحررية.

أبو بكر بن زيني والأمير خطابي

تمكن أحد الشباب من "الونزة" وكان من المتعاطفين مع حزب الشعب من الالتحاق بالمدرسة الكتانية بقسنطينة، ثم ذهب للدراسة في القاهرة، وبعد عامين عاد هذا الشاب والذي كان يدعى "أبو بكر بن زيني" إلى الونزة، وروى قصة لقائه بالأمير المغربي "عبد الكريم خطابي" الذي نفاه الاحتلال الفرنسي إلى مدغشقر بشرق إفريقيا بعد أن قاد نضال شعبه المطالب بالاستقلال.

عندما أرادت فرنسا نقل الأمير خطابي من منفاه بمدغشقر مرورا بقناة السويس نحو وجهة غير معلومة، وصل هذا الخبر إلى مكتب تحرير المغرب العربي بالقاهرة، فقرر بعض المناضلين من المغرب وتونس والجزائر إنقاذ الأمير من أيدي آسريه، ولدى وصول الباخرة التي تقل الأمير خطابي على متنها إلى المدخل الجنوبي لقناة السويس كان لزاما عليها التوقف أربعة وعشرين ساعة على الأقل لاستكمال الإجراءات الإدارية والتنظيمية لعبور القناة، وكان هذا الوقت كافيا لمغامري مكتب تحرير المغرب العربي بالاتفاق مع حراس القناة للصعود إلى متن الباخرة وتحرير "الأمير" وتهريبه إلى مكان مجهول في مدينة القاهرة.

عندما اكتشفت فرنسا أمر اختفاء "الأمير خطابي" من على متن الباخرة وعلمت بأمر هروبه وجهت احتجاجات شديدة اللهجة إلى الملك "فاروق" الذي كان يحكم آنذاك مصر قبل الإطاحة بعرشه في 1952 على يد الضباط الأحرار، وحاول الملك فاروق تهدئة غضب الفرنسيين بوعدهم بتسليمهم الأمير خطابي حال إلقاء القبض عليه.

وظل الأمير "عبد الكريم خطابي" مختفيا في القاهرة، ولم يكن يلتقي سوى بأعضاء مكتب تحرير المغرب العربي، وعندما قابل ذات يوم وفدا عن الطلبة الجزائريين بالقاهرة كان من بينهم "أبو بكر بن زيني" خاطبهم محرضا إياهم على الثورة على المحتل "حركوا بلادكم أنتم أيضا"، فقد كان الشارع في كل من المغرب وتونس يغلي بالمظاهرات والاحتجاجات المطالبة برفع الحماية الفرنسية عن أرضهما، وقاد "لحبيب بورقيبة" التيار المطالب بالاستقلال في

تونس حتى تم نفيه هو الآخر إلى الخارج، كما حرك "فرحات حشاد" زعيم نقابة العمال التونسيين الشارع للضغط على الفرنسيين للخروج من بلادهم، وفي المغرب تزعم "علال الفاسي" و"بن بركة" الحركة المطالبة بالاستقلال رغم القمع الشديد الذي ردت به فرنسا على هذه الحركات الاستقلالية.

الوضع في الجزائر لم يكن سهلا تماما، فإذا كانت تونس والمغرب محميتان فرنسيتان، فإن باريس كانت تعتبر الجزائر جزءًا لا يتجزأ من التراب الفرنسي ومجرد مطالبة أي شخص باستقلال الجزائر فإنه يعرض نفسه لعقوبات شديدة، وقد كان معولا على حزب الشعب قيادة معركة التحرير في هذه المرحلة الحاسمة بحكم أن استقلال الجزائر كان هدفه الأسمى، إلا أن الأزمة الداخلية التي ظل يتخبط فيها جعلت الجزائر تتخلف قليلا عن معركة التحرر في منطقة المغرب العربي.

أُعجبت بثقافة وفصاحة أبو بكر بن زيني ووطنيته، وأردت ضمه إلى حركة انتصار الحريات الديمقراطية التي كانت لا تسمح لأي كان بالانضمام إلى صفوفها إلا بعد أن يستوفي بعض الشروط، كالإخلاص للوطن والسرية التي كانت تطبع بعض نشاطات الحزب.

مشيت مع أبو بكر في خلوة باتجاه الجبل وتحدثنا عن القضايا السياسية والاجتماعية والظروف الصعبة التي يعيشها الشعب الجزائري تحت نير الاستعمار، وكان كل واحد منا يجس أفكار الآخر، فقد كان بن زيني يُؤمن بضرورة أن تنتفض الجزائر ضد الاحتلال الفرنسي على غرار تونس والمغرب وكل البلدان الراغبة في التحرر، بينما كنت أُريد أن أكشف له عن حقيقة انتمائي لحزب الشعب الجزائري المحظور، وأعرض عليه الانخراط في حركة انتصار الحريات الديمقراطية، وبعد تلميحات وإشارات عديدة كشف كل واحد منا سره للآخر، وتحدث أبو بكر عن أهمية تكوين تنظيم مسلح لتحقيق استقلال الجزائر.

وبعد هذا اللقاء بقينا نلتقي من حين لآخر ولنتبادل الحديث والنقاش حول ضرورة طرد الاستعمار لكن دون أن ينخـرط بن زيني في الحزب أو أنسق معه في تكوين نواة تنظيم مسلح.

تباشير الثورة

إعتدت زيارة المكان الذي قضيت فيه طفولتي في وادي الكبريت من حين لآخر رغم استقراري مع عائلتي في الونزة، والتقيت في إحدى هذه الزيارات شخصا يُدعى "رابح نوار"، وكان يكبرني سنا، وكنت على سابق معرفة به، وعُرف عن هذا الشخص كثرة مخالطته للأوربيين، وتم تجنيده في الجيش الفرنسي بين سنتي 1945 و1950، وخرج منه برتبة مساعد أول، ورغبت في ضمه إلى صفوف الحزب بنفس الطريقة التي تعاملت بها مع أبوبكر بن زيني، لكن رابح نوار رد عليّ قائلا: "آه يا الطاهر دعك من هذا الكلام الذي تجاوزه الزمن.. تعال معي يوم الأحد إلى سوق اهراس وسأريك أين هو الجد"، ولم يقل لي أين سيأخذني؟ وعلى من سيعرفني؟

وفي يوم الأحد رافقت رابح نوار إلى سوق أهراس ودخلنا إلى بيت في مزرعة على أطراف مدينة سوق اهراس، يملكها والد باجي مختار، وهناك قابلنا باجي مختار أحد رجالات المنظمة السرية، والذي اعتُقل في 1950 بعد تفكيك المنظمة وأُفرج عنه في آفريل 1954، وكانت الأجواء داخل البيت تُوحي بقرب عقد اجتماع سري وخطير في هذا المنزل، ومع ذلك لم يسأل أحد عن الضيف المجهول الذي سيشاركهم هذا الاجتماع، فقد كان باجي مختار يثق في الرجال الذين ينتقيهم "نوار" الذي اكتفى بتقديم الطاهر على أنه أحد مناضلي الحزب الأوفياء.

في هذا الاجتماع تحدث باجي مختار عن الشعوب التي تحررت من نير الاستعمار بعد كفاح مرير، وشدد على أن الكفاح المسلح هو السبيل الوحيد من أجل الاستقلال، مستدلا على ذلك برفض فرنسا التحاور مع الأحزاب الجزائرية بمختلف أطيافها، فإذا كانت تعتبر حركة انتصار الحريات الديمقراطية حزبا متطرفا، فلماذا لم تحاور فرحات عباس المعتدل، أو جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أو حتى الحزب الشيوعي، ليؤكد مجددا أن الثورة المسلحة هي الخيار الوحيد أمام الجزائريين لطرد الاحتلال، وأضاف باجي أن تنظيما سريا يقوم بالتحضير لتفجير الثورة، وخاطب الحاضرين مستفزا شعورهم الوطني "إذا أردتم أن تكونوا مناضلين حقيقيين

فلا بد أن تتصفوا بالسرية، والاستعداد، والتضحية"، وكان بيده قطعتا سلاح، الأولى من نوع "كارابينا" أمريكية الصنع، والأخرى بندقية انجليزية، وأخذ يعلمهم كيف يستعملون السلاح وطريقة التصويب والتسديد.

وتكررت اللقاءات مع باجي مختار الذي تكفل بتعبئة وتشكيل النواة الأولى للمجاهدين في منطقة سوق أهراس، وتوسع الحديث في أوساط مناضلي حزب الشعب عن قرب تفجير الثورة وأن التحضيرات جارية في هذا الشأن، غير أن المشاكل الداخلية التي كادت تعصف بالحزب جعلت هذا الأمل محل تشكيك، فحزب الشعب لم يكن جاهزا للقيام بالثورة في ظل الأزمة التي كانت تنخر هياكله.

أول فوج مسلح بالونزة قبل الثورة

وصلت "أصداء العمليات المسلحة التي كان يقوم بها المجاهدون التونسيون ضد قوات الاحتلال الفرنسي إلى مسامع الجزائريين خاصة في شرق البلاد بحكم القرب الجغرافي، واشتهرت أسماء تونسية في ساحة الجهاد وكانت رمزا للبطولة والشجاعة أمثال: الساسي الأسود، والطاهر الأسود، والأزهر شرايطي.

وقرر شاب ذو همة في مدينة الونزة يُدعى جبار عمر تنظيم فوج مسلح ومحاربة الفرنسيين في الجزائر على غرار المجاهدين في تونس، لكنني وبحكم احتكاكي بباجي مختار نصحته بعدم التسرع وانتظار قيام الثورة في الجزائر والتي أصبحت مسألة وقت فقط.

اعتاد المجاهدون التونسيون التوغل في التراب الجزائري لجمع بعض الأسلحة من الجزائريين والتزود ببعض المُؤن والإعانات المالية، ممّا جعل الأجواء على طول الحدود الجزائرية التونسية مكهربة ومشحونة بالتوتر، فقد كان الجزائريون ينظرون إلى المجاهدين التونسيين بإكبار ويتمنون لو يفعلون مثلهم، لذلك كانوا يُقدمون لهم الإعانات إيمانا منهم بأنهم إخوة لهم في الدين وفي العروبة، وهم يجاهدون عدوا واحدا طالما تمنوا أن يثأروا من جبروته.

وفي إحدى المرات قصد المجاهدون التونسيون الشقيق الأكبر لجبار عمر الساكن على بعد خمسة عشر كيلومترا من الونزة لأخذ قطعة سلاح تعمد إخفاءها، ولما رفض تسليمهم إياها اعتقلوه وأخذوه معهم إلى جبل سيدي أحمد الذي يتوسط الحدود الجزائرية التونسية، وعندما سمع جبار عمر بالأمر استاء لما حدث لشقيقه، وتضامن معه رفاقه في حزب الشعب، وقررنا تشكيل فوج مسلح لاسترجاع شقيق عمر ولو تطلب الأمر استعمال القوة، لكن المشكل المطروح هو كيف سنحصل على السلاح، ولم يكن ذلك بالأمر الهين، إذ من النادر أن يمتلك جزائري سلاحا خارج سلطة الجيش الفرنسي.

غير أنني كنت أعرف أن موسى حواسنية شقيق زوجة أخي يمارس تجارة السلاح بشكل سري، حيث يقتني بعض بندقيات الصيد والأسلحة الآلية والذخيرة من تونس في غالب الأحيان ويبيعها في الجزائر، وطلبت منه أن يبيعنا الأسلحة التي لديه، ويخبرنا عن الأشخاص الذين باعهم أسلحة أو ذخيرة لعلنا نستطيع شراءها أو انتزاعها إذا اقتضت الضرورة ذلك، ولمّحت له بأننا ننوي تفجير الثورة في الجزائر، وقلت له "نحن أيضا رايحين ليها" بمعنى أن الجزائريين سيلتحقون هم أيضا بالكفاح المسلح في المغرب العربي.

كشف موسى حواسنية لي عن أربعة أشخاص يمتلكون أسلحة من مخلفات الحرب العالمية الثانية، فيهم من اشتراها وفيهم من عثر عليها صدفة وفيهم من سرقها من الجنود الفرنسيين أو من جنود الحلفاء، ووعدني أن يتدبر لي قطعة سلاح مناسبة، ودفعت له العربون، ولم يطل الأمر حتى سلمني رشاشا آليا من نوع "ستان" إيطالي الصنع مقابل خمسة وعشرين ألف فرنك فرنسي قديم.

وعندما تم تشكيل فوج من تسع رجال لتحرير شقيق جبار عمر، عملت على ربط هذا الفوج الذي لم يكن يمتلك سوى أربع قطع سلاح بالنظام الذي أصبح يُعد للثورة، إلا أن الشُبُهات بدأت تحوم حولي، وخشيت أن تُفتش الشرطة الفرنسية بيتنا وتكتشف أمر الرشاش الذي اشتريته

فتنتزعه مني وتعتقلني، فسلمت رشاشي الآلي لشخص يُدعى "مسعود الطرابلسي"، وهو الذي كُلّف بقيادة هذا الفوج على أمل أن أستعيد سلاحي عند اندلاع الثورة أو أني سأتدبر سلاحا آخر، فقد كنت أعتقد أن النظام الثوري هو الذي سيتكفل بتزويدنا بمختلف أنواع الأسلحة.

انطلق هذا الفوج في الثامن من أوت 1954 إلى جبل سيدي أحمد أين يتمركز المجاهدون التونسيون، والتقينا بهم في معقلهم وانتدبنا أبو بكر بن زيني العائد من القاهرة ليتفاوض مع التونسيين باسمنا نظرا لفصاحته ولإتقانه اللّغة العربية، وأخبرهم بن زيني أن الجزائريين ينوون هم أيضا تفجير الثورة عن قريب، لكن المجاهدين التونسيين لم يصدقوه، وبعد أخذ ورد قرروا إطلاق شقيق جبار عمر خشية أن يعترضهم الجزائريون خلال توغلاتهم في عمق التراب الجزائري.

الحاج علي النايلي

عند عودة فوج مسعود الطرابلسي من جبل سيدي أحمد كثُر الحديث عنهم في أوساط المناضلين وانتشر خبرهم، وخشي باجي مختار أن تعلم السلطات الفرنسية بأمرهم، فطلب منهم التحصن بالجبال رفقة فوج من سوق أهراس يتكون من خمسة عشر فردا، ووضع على رأسهم رجلا سبق له وأن خاض معترك الحروب في الشرق الأوسط، وفي تونس يُدعى "الحاج علي النايلي"، حيث شارك "الحاج علي النايلي" في الحرب العربية الإسرائيلية الأولى عام 1948.

في تلك الفترة كانت الأوضاع في تونس متوترة خاصة بعد أن تشكلت أفواج من المجاهدين التونسيين قامت بعدة عمليات مسلحة ضد مصالح الاحتلال، وأبدى الحاج علي النايلي رغبة في الالتحاق بالمجاهدين في تونس، فقد كان محبا للجهاد رافضا للاحتلال الغربي والصهيوني للبلاد العربية والإسلامية، وعُرف عنه الشجاعة وقوة العزيمة والاستعداد للفداء، وبلغت أنباء الحاج علي النايلي وشجاعته باجي مختار الذي كان على اتصال دائم مع المجاهدين التونسيين الذين أخبروه بوجود هذا الجزائري

معهم وبمشاركته في الحرب العربية الأولى ضد الإسرائيليين ، فطلب منهم باجي أن يُرسلوه إليه، ليعيّنه فيما بعد قائدا على فوج محدود التسليح مشكل من نحو 24 مجاهدا من سوق اهراس والونزة، وذلك لما يمتلكه من خبرة في القتال، وشجاعة وقدرة على قيادة الرجال.

الأيام الحواسم

في 10 أكتوبر 1954 عقد باجي مختار اجتماعا في بيت "مسعود البرباري" بالونزة وحضره نحو أحد عشر شخصا من بينهم محمد بن سودة، مسعود جديات المدعو عنتر، عمار البرباري، إبراهيم هوام، والحاج علي النايلي، وأنا بالإضافة إلى بقية فوج الونزة والذين كانوا ينتظرون بفارغ الصبر إصدار الأوامر لهم لبدء الجهاد، لكن "باجي مختار" عاد وتحدث عن أزمة حزب الشعب وعن ضرورة الاستعداد للثورة حتى ولو بدون دعم الحزب، الأمر الذي خلق نوعا من الشك لدى الحاضرين في جدية هؤلاء الذين يريدون تفجير الثورة، حيث قال الحاج علي لمختار "لا أعتقد أنكم ستفجرون الثورة.. فأنتم تتحدثون كما يتحدث الحزب والصحافة.." وعندما لاحظ باجي مختار ملامح الشك مرتسمة على وجوه الجميع أقسم لهم "أن موعد اندلاع الثورة لن يزيد عن شهر واحد"، وخرج من الاجتماع في ظلمة الليل كما دخله ليلا، تاركا الجماعة بين مصدق ومشكك.

أصداء العمليات المسلحة التي كان يقوم بها المجاهدون في تونس كانت تصل الجزائريين أولا بأول خاصة أولئك الذين كانوا على مقربة من الحدود، فخشي باجي مختار أن يقوم الفوج الذي أرسله إلى الجبال بعمليات مسلحة قبل تلقيه الأوامر من القيادة، فنظم اجتماعا لهذا الفوج المسلح وكنت من بين الحاضرين، وذلك في "جبل ذراع البطوم" الواقع ما بين مدينتي طاورة والونزة، وقام باجي مختار بشحذ هممنا وطمأننا باقتراب اللحظة الحاسمة، ثم عقد لقاء ثانيا في نفس المكان حيث حضره هذه المرة ديدوش مراد أحد القادة الستة التاريخيين للثورة ومسؤول منطقة الشمال القسنطيني، وارتجل ديدوش الكلام واقفا، وأطلعنا على

آخر التطورات سواء في الحزب أو بالنسبة للتحضير للثورة أو حتى ما يحدث في العالم من انتشار المد التحرري، وكفاح الشعوب المستعمرة من أجل نيل استقلالها، لكن ديدوش لم يُطلعنا عن تاريخ اندلاع الثورة التي لم يصبح يفصلنا عنها سوى بضعة أيام.

توليت في هذه المرحلة مهمة تجميع الأسلحة والتي كانت مهمة صعبة في تلك الظروف، وكان من النادر امتلاك الجزائريين لأسلحة، فسعيت مستعينا "بموسى حواسنية" لجمع السلاح قطعة قطعة وخرطوشة خرطوشة حتى ولو اضطررت لشرائها، وأخبرني حواسنية ذات مرة بأنه يملك 41 خرطوشة ومستعد لمنحي إياها متى أردت ذلك، وأخذني إلى دوار "أولاد سعيد"، حيث اضطررنا للمشي على الأقدام مسافة عشر كيلومترات لعدم وجود مواصلات إلى هذا الدوار المعزول، وعندما وصلنا إلى أحد المنازل، نادى موسى حواسنية على صاحب الدار فخرج إليه، فطلب منه أن يُحضر له الأمانة، فجاءه بصرة الخرطوش التي كان يحتفظ بها له، وفجأة علا صوت يحذر من قدوم درك العوينات إلى الدوار ممتطين أحصنتهم، لأنهم كانوا يبحثون عن المجاهدين التونسيين الذين اعتادوا التسلل إلى الدوار ومعهم دليل جزائري يُدعى "حشاني"، والذي تمكن الدرك الفرنسي من إلقاء القبض عليه وانتزاع اعترافات منه تحت التعذيب، واقتادوه معهم إلى الدوار مقيد اليدين ومربوطا خلف الحصان بسلسلة حديدية، وتوقف الدركيان ومعهم الأسير المقيد عند أشخاص من الدوار للاستعلام عن تحركات المجاهدين التونسيين، في حين فررنا إلى الجبل وعدنا من حيث أتينا، إلا أن الدركيين لم يمكثا طويلا في الدوار وغادراه، لكنهما توقفا بالقرب من ربوة اختبأنا بين أحراشها، وأراد أحد الدركيين أن يقضي حاجته في حين أمسك الآخر بلجامي الحصانين، أما الأسير فكان في حالة تُثير الشفقة، وتمنيت لو أن لي سلاحا لأبطش بالدركيين وأحرر هذا المسكين.

مجموعة 22 تشق طريقها نحو الثورة

مصالي الحاج كان مقتنعا أنه لا يمكن الذهاب إلى الثورة وصفوف الحزب مقسمة ومشتتة ومعظم المقرات وأموال الحزب كانت بيد المركزيين، واعتبر استئصال بعض المركزيين من الحزب معركته الأساسية قبل الإقدام على أي خطوة نحو الثورة، لكن الأحداث تجاوزته فيما بعد واندلعت الثورة بدونه.

وقام أعضاء من المنظمة الخاصة بالاتصال بالمركزيين قصد معرفة موقفهم من الثورة في حال اندلاعها، لكن المركزيين اعتبروا أن الأولوية في المرحلة الحالية تنظيم مؤتمر للحزب ينتخب قيادة جماعية يكون مصالي الحاج عضوا فيها لا زعيما أوحد، الأمر الذي خيب آمال الثوريين الذين اقتنعوا بأنه لا مصالي الحاج ولا المركزيين لديهم الاستعداد لتبني الثورة رغم أن الظروف الدولية كانت جد مواتية لقيامها.

ورغم أن "اللجنة الثورية للوحدة والعمل" التي شكلها الثوريون بالتنسيق مع المركزيين في 23 مارس 1954 كانت تهدف بالأساس إلى العمل على توحيد الحزب والإعداد للثورة، إلا أنه عندما طلب مصطفى بن بولعيد من حسين لحول أموالا لاستكمال التحضيرات للثورة خاصة ما تعلق بشراء الأسلحة، لم يقدم له هذا الأخير سوى 500 ألف فرنك فرنسي قديم، وهو ما أثار حفيظة بن بولعيد، فرمى الأموال في الأرض، وخاطب لحول غاضبا "أبخمسمائة ألف فرنك تفجرون ثورة!!"، وترسخت لدى بن بولعيد قناعة بأن المركزيين ليسوا جادين في الإعداد للثورة، وكان ذلك مقدمة لحل اللجنة الثورية للوحدة والعمل.

لم تكن لقيادات المنظمة الخاصة الشعبية التي يمتلكها مصالي الحاج زعيم حزب الشعب في أوساط القاعدة النضالية، ولا حتى شهرة المركزيين خاصة "حسين لحول"، فقد كانوا قيادات من الدرجة الثالثة، لذلك احتاجوا إلى شخصية ذات سمعة نضالية تتزعم الثورة وتتجند حولها الجماهير، ووقع اختيارهم هذه المرة على الدكتور الأمين دباغين والذي كان يمثل الرقم الثاني في الحزب وله سمعة طيبة، فعرض عليه مصطفى

بن بولعيد ومعهم شخص ثالث فكرة قيادة الثورة التي تم الإعداد لها ولم يبق سوى الإعلان عن اندلاعها، لكن هذا الأخير رفض هذا العرض، لأنه لم يستشر في هذا الأمر قبل الإعداد للثورة، وبالتالي لا يُمكنه قيادة ثورة لم يشارك في تحضيرها وقال لهم "أنتم هيأتم أموركم دون استشارتي، وتريدون أن أرمي بالشعب في الحرب..هذه مسؤولية لا أتحملها"، واشترط عليهم توسيع الاستشارة، فتركوه لأنه بذلك سيعيدهم إلى نقطة الصفر.

وأمام هذا الظرف العصيب قرر الثوريون المُضي قُدما نحو الكفاح المسلح حتى ولو بدون الحصول على دعم الحزب بجناحيه، أو أي من شخصياته النضالية البارزة، وبلغ بهم الإصرار على تفجير الثورة، إلى درجة أن قال محمد بوضياف "سأخوض الثورة ضد فرنسا ولو مع قردة الشفة"، وذلك خلال الاجتماع الذي نظمه حسين لحول بمدينة الصومعة بالبليدة، والذي هاجم فيه هذا الأخير مصالي الحاج بشدة، فقفز بوضياف إلى المنصة وأخذ منه مكبر الصوت وخاطب المناضلين "لحول ينتقد في مصالي، ومصالي ينتقد في لحول..." فصفق الحضور وصاحوا "تحيا مصالي تحيا لحول" فرد بوضياف على الحضور "نحن مجموعة شباب ذاهبون إلى الثورة بكم ومعكم وإن اقتضى الأمر ضدكم، وسنفجر الثورة ولو مع قردة الشفة...".

اجتمع الأعضاء الـ22 في 25 جوان 1954 بمنزل "إلياس دريش" في المدنية (سالومبي سابقا) بالجزائر العاصمة، وترأس مصطفى بن بولعيد هذا الاجتماع، وقرروا الانتقال من مرحلة النضال السياسي إلى مرحلة الكفاح المسلح، وتم الاتفاق على انتخاب منسق عام للثورة يكون من بين الحاضرين الأكبر سنا، وبما أن محمد بوضياف ومصطفى بن بولعيد هما الأكبر سنا فقد تقرر أن تجرى الانتخابات بينهما رغم أن مصطفى بن بولعيد كان يرغب في قرارة نفسه أن يتولى محمد بوضياف هذه المسؤولية، إلا أن نتيجة التصويت أسفرت عن حصول بن بولعيد على 17 صوتا في حين حاز بوضياف على 4 أصوات فقط، إلا أن بن بولعيد أعلن فوز محمد بوضياف كمنسق عام للثورة، وفي اليوم التالي قام بوضياف بتشكيل الأمانة التنفيذية التي ستتولى قيادة

الثورة والمتمثلة في: مصطفى بن بولعيد، ديدوش مراد، رابح بيطاط، العربي بن مهيدي، في حين تم ضم كريم بلقاسم إلى قيادة الثورة في مرحلة لاحقة رغم أنه كان ذو توجهات مصالية، ولم يكن يتصور قيام ثورة بدون مصالي الحاج، لكنه عندما تأكد أن هذا الأخير لا ينوي التحضير للثورة خلال هذه المرحلة انحاز إلى صف الثوريين، وعُرفت هذه القيادة باسم مجموعة الستة.

عندما علم حسين لحول باجتماع 22 وما خلص إليه من ضرورة بدء الكفاح المسلح، ذهب إلى قسنطينة واستطاع إقناع كل من محمد مشاطي، عبد السلام حباشي، علي ملاح، السعيد بوعلي المدعو سعيد لاموطا، وعبد القادر العمودي بالتراجع عن مواقفهم وعدم المشاركة في الزج بالشعب في الحرب، حسبما رواه لي مصطفى بن بولعيد عندما كنا في السجن.

مقتل الحاج علي النايلي

ظل الفوج الذي شكّله باجي مختار بقيادة الحاج علي النايلي متحصنا بجبال بني صالح وأولاد بشيح، ينتظر الأوامر لبدء الكفاح المسلح، خاصة وأن توصيات باجي مختار كانت تُشدد على عدم القيام بأي عمل مسلح قبل تلقي الإذن من القيادة، واكتفى أفراد هذا الفوج بإرسال عناصر منهم إلى بعض المنازل لجمع المؤونة وتحضير الشعب نفسيا لقيام الثورة ضد المستعمر.

وحسب ما رواه لي جبار عمر الذي رافق الحاج علي في اليوم الذي قُتل فيه، فإن أسباب مقتله ترجع إلى قضية شخصية لا سياسية، حيث شاع بين أعضاء الفوج نية الحاج علي الزواج من إحدى قريبات بوعشة مسطور، واستاء بعضهم من ظروف العيش في الجبل وطول مكوثهم في نفس المكان ونوعية الطعام السيئة التي يرسلها الحاج علي ومرافقوه إليهم مما يجمعونه من بيوت سكان القرويين على حد قول الناقمين عليه، كما أن تسليحهم كان ضعيفا جدا، وكانوا يخشون أن تُحاصرهم القوات الفرنسية وتقضي عليهم جميعا خاصة عند غياب الحاج علي ومرافقيه، فقرروا

توقيفه وتسليمه إلى باجي مختار الذي وصل، وعندما عاد الحاج علي ومعه جبار عمر، وعمار البرباري، وعنتر، ومحمد بن سودة إلى المركز . وكان شخصا ذو هيبة ورهبة وقلما يثق في غيره . هجم عليه بوعشة الذي كان يتمتع ببنية قوية وطوقه بكلتا يديه، محاولا تجميد حركته ثم تقييده قبل تسليمه لباجي مختار، وفي الوقت ذاته هجم البقية على مُرافقي الحاج علي لمنعهم من حمايته، لكن الحاج علي قاوم المسكة الحديدية لبوعشة، وخشي أحد الجنود أن يُفلت الحاج علي من بين أيديهم فيقضي عليهم خاصة وأنه ذو تدريب عال، فعاجله برصاصة مزقت جسده واستقرت في جسم بوعشة فلفظ الرجلان أنفاسهما، في حين فر جبار عمر ومن معه إلى الونزة، وبذلك انفصل فوج الونزة عن فوج سوق اهراس.

الفصل الرابع

فجـــر الثـــورة

ساعة الصفر

عندما حددت قيادة الثورة ساعة الصفر في الفاتح من نوفمبر 1954 موعدا لبداية الكفاح المسلح، حمل باجي مختار المناشير المتعلقة ببيان أول نوفمبر وتوجه رفقة ديدوش مراد من العاصمة إلى منطقة سمندو بالقرب من سكيكدة وهناك افترقا، حيث توجه باجي مختار إلى مدينة بوشقوف ومنها إلى عنابة قبل الذهاب إلى سوق اهراس، وفي الطريق توقف بعنابة لشراء خريطة لناحية سوق اهراس من إحدى المكتبات. وكان حينها مراقبا وذلك منذ أن خرج من السجن، وسأل مختار صاحبة المكتبة إن كان عندهم خريطة لمنطقة سوق اهراس، فردت بالنفي، وبمجرد خروجه من المكتبة، دخل شرطي فرنسي بزي مدني وسأل صاحبة المكتبة عن الغرض الذي يبحث عنه ذاك الزبون، فأخبرته بالأمر، ليتم إلقاء القبض فورا على باجي مختار في 27 أكتوبر 1954، ولحسن تدبيره احتاط للأمر وترك المناشير وبيان أول نوفمبر بيد شخص ثان كان لا يلتقيه إلا في أماكن محددة.

وتعرض باجي مختار للاستجواب لعدة أيام دون أن تتمكن الشرطة الفرنسية من انتزاع أي معلومة منه، واستطاع إقناعهم بأن شراء الخريطة إنما هو لأغراض زراعية باعتباره فلاحا، فقد كان والده يملك مزرعة في سوق اهراس، وأُطلق سراحه في 31 أكتوبر قبيل ساعات فقط من موعد تفجير الثورة، بعد أن طُلب منه أن يتوجه مباشرة إلى مفتشية الشرطة بسوق اهراس بمجرد وصوله إلى هناك.

ركب باجي مختار القطار ولكنه نزل في محطة المشروحة «verdure la» قصد الاتصال بجماعته المرابضة بالجبال عبر أحد القرويين الثُقات وإعطائهم الأوامر لبدء الثورة على الساعة صفر من الفاتح نوفمبر، لكن المناشير لم تصل إلى جماعتي سوق اهراس والونزة إلا في اليوم الثاني من نوفمبر عن طريق مرافق باجي مختار، حيث قامت جماعة سوق اهراس بقطع خطوط الهاتف والكهرباء، والهجوم على منجم "بوادي الشحم" أين

جردوا فرنسيا وزوجته من سلاحهما واستولوا على 35 ألف فرنك فرنسي قديم كانت بحوزتهما، ثم عرجوا على المنجم فأخذوا منه المتفجرات وكمية من البارود وبعض المعدات، وفجروا جسر خط السكة الحديدية الذي انهارت أجزاء كبيرة منه، كما قاموا بتفكيك خط للسكك الحديدية مما أدى إلى انحراف قطار شحن وانقلابه بمن فيه، ليبتعد المجاهدون أكثر من عشرة كيلومترات عن موقع العملية إلى منطقة تدعى "مجاز الصفا" لتجنب الوقوع تحت حصار القوات الفرنسية التي كانت تملك ثكنة هامة بقالمة.

استشهاد البطل باجي مختار

غير أن الجيش الفرنسي قام بملاحقة حثيثة للمجاهدين بعد هذه العملية، وتمكن من اللحاق بهم ومحاصرتهم في مزرعة "دالي شواف" ويعتقد أن ذلك تم بوشاية، وأحكم عساكر العدو تطويق المكان الذي كان محاصرا فيه 25 مجاهدا على رأسهم باجي مختار، واستدعيت قوات عسكرية ضخمة من عنابة وسوق اهراس وقالمة قصد القضاء المبرم والنهائي على هذا الفوج لأنه كان تحت قيادة باجي مختار أحد القياديين الكبار والنواة الصلبة للثورة في المنطقة، واستمر الاشتباك طيلة النهار وتواصل ليلا واستبسل المجاهدون في القتال ونجحوا في إلحاق أفدح الخسائر في صفوف العدو ودمروا بعض معداته، لقد كانت هذه المعركة تعني لهم قضية حياة أو موت، ولكن الأعداد الضخمة لقوات العدو المشاركة في القتال والعتاد العسكري المستعمل حسم المعركة لصالحهم بعد أن سقط قائد الفوج قتيلا في ساحة الشهادة مع العديد من إخوانه، فيما أسر البقية، ونجا منهم بأعجوبة المجاهد عبد الله نواورية.

العمليات الأولى لمجاهدي الونزة

اضطررت قبيل أيام من اندلاع الثورة إلى الاختباء أربعة أيام بالمقبرة رفقة السبتي جبار وعمر صالحي المدعو "عمر ليك ربي" خشية تعرضنا للاعتقال خاصة وأنني كنت شخصا مشبوها لدى الشرطة

الفرنسية، وفي الليل كنت أعود إلى بيتي وأسأل أهلي ما إذا جاء الدرك أو الشرطة أو الشنابط للبحث عني.

حصلت على وعد بتزويدي بثلاث قطع سلاح، وكلّفت عمر ليك ربي بالذهاب لملاقاة الأشخاص المتفق معهم في بلدة طاورة في مكان تم تحديده مسبقا، غير أن هناك من وشى به عندما وصل إلى طاورة، فألقى الدرك الفرنسي القبض عليه وقام بتعذيبه واستنطاقه يومين قبل اندلاع الثورة، ورغم هذا الحادث لم تكتشف السلطات الفرنسية بأن أمرا جللا سيحدث عما قريب سينسف الوجود الفرنسي في الجزائر من جذوره.

جمع السلاح كان هاجسنا الأول الذي يشغلنا، ونظرا لندرته لدى الجزائريين فكرنا في تنظيم كمين لبعض الفرنسيين قصد تجريدهم من أسلحتهم رفقة جبار السبتي الذي أخبرني بأنه تحصل على مسدس أعطاه إياه شخص يُدعى "علي بن بريك"، في حين اشتريت من أحد جيراني مسدسا صغيرا ليس فيه سوى رصاصة واحدة فقط من نوع (6 . 35)، وتربصنا بشرطيين ودركيين فرنسيين اعتادوا تعاطي الخمر ليلة كل سبت أو أحد في حانوت تاجر جزائري يدعى "نوار القبايلي"، أين يأتون في سيارة واحدة لاستقاء الأخبار عن الأهالي، حاملين معهم رشاشين آليين ومسدسين.

في الليلة الأولى انتظرنا قدوم الشرطيين والدركيين لكنهم لم يأتوا، فرجعنا في الليلة الثانية إلى المكان نفسه لكن لسوء حظنا هطلت أمطار غزيرة تلك الليلة، فلم نحتمل الانتظار طويلا، فرجعنا عائدين إلى بيوتنا، لكن مسدس جبار السبتي تبلل بفعل الأمطار، فأراد في الغد تفكيكه قصد تنظيفه من الماء والطين الذي علق به فلم يتمكن من ذلك، فأخذه إلى علي بن بريك الذي سلمه إياه من قبل، فسأله هذا الأخير عن سبب اتساخه فروى له السبتي الحكاية من أولها، فقال له بن بريك "لقد أعطيتك المسدس لتصعد به إلى الجبل وتجاهد الفرنسيين لا أن تقوم بعمليات داخل المدينة..أنت تريد تخريب بيتي وبيت أبنائي" وانتزع منه المسدس ورفض إعادته له.

عاد السبتي جبار دامع العين متحسرا على فقدانه لسلاحه، ولمته على أخذه المسدس إلى بن بريك، لكن السبتي أوضح لي بأنه أراد تنظيف المسدس من الطين الذي علق به ليلة البارحة، وبن بريك هو أدرى بكيفية تنظيف سلاحه، وأخبرني بعزمه هذه المرة على الالتحاق بالجبل أين يتمركز فوجنا تحت قيادة جبار عمر على بعد خمسة عشر كيلومترا عن الونزة، معتقدا أنه سيتحصل هناك بسهولة على بندقية للانتقام من بن بريك، وسبقني السبتي جبار إلى الجبل صباح يوم 31 أكتوبر 1954 قبل اندلاع الثورة بساعات، وأوصيته أن يخبر "الجماعة" بأنني سألتحق بهم هذه الليلة.

عندما أردت الالتحاق بفوج جبار عمر ألح عليّ رجل يُدعى "مشري لخضر" أن آخذه معي إلى الجبل للمشاركة في الثورة، رغم أنه كان متزوجا وأبا لطفلين، وأشفقت عليه وعلى أهله، فنصحته بالبقاء، لكن مشري لخضر أصر على الخروج معي إلى الجبل، فرضخت لإلحاحه، وعندما عاد مشري لخضر من عمله في المساء اتصلت به وأخبرته بأنني سألتحق بالجبل الليلة، فخرجنا دون أن يُعلِم أي واحد منا زوجته، وكان ذلك قبيل اندلاع الثورة بساعات قليلة دون أن نكون على علم بذلك، رغم شعورنا بأن إرهاصات الثورة تزداد يوما بعد يوم.

التقيت بجبار عمر الذي أخبرني بواقعة مقتل الحاج علي وانفصال جماعة الونزة عن جماعة سوق اهراس بعد هذا الحادث، حيث شكلوا فوجا يضم كلا من: جبار عمر، محمد بن سودة، بلقاسم جبار، عمار برباري، وقاسمي العربي، في حين فضل مسعود الطّرابلسي وعنتر البقاء مع جماعة سوق اهراس. اقترحت على جبار عمر عرض الأمر على باجي مختار لتنظيم الأمور من جديد، غير أن الثورة اندلعت في تلك الليلة دون أن نكون على علم بالأمر.

وفي اليوم الثاني بعد اندلاع الثورة قابلت أبا بكر بن زيني الذي أخبرني باندلاع الثورة ولقائه بالشخص الذي رافق باجي مختار وسلمه مناشير الثورة، وقص عليّ كيف تم توقيف باجي مختار، وبينما نحن واقفين مر علينا شخص يُسمى حسين طايبي ابن نوار القبايلي، ونادى أبو بكر: "آبي

يطلبك حالا ...الدرك يسأل عنك"، وبمجرد سماعي هذا الكلام قلت لبن زيني: "اصعد فورا إلى الجبل فقد أصبحت مطلوبا"، لكن بن زيني هوّن الأمر واعتبره عاديا لأن الدرك الفرنسي اعتاد التحقيق مع الشباب العائدين من بلاد المشرق العربي، وحتى وإن حققوا معه فلن يجدوا ما يدينونه به، كما أن حسين صديقه من أيام الدراسة، ووالده يعرف والده فما الذي يدعو للقلق إذن، وعبثا حاولت إقناعه بالعدول عن الذهاب إلى الدرك، ولم يكن بن زيني يدري بأن بعض المناضلين الذين اعتقلهم الدرك الفرنسي قد أفشوا سره وكشفوا حقيقة علاقته بالمجاهدين وذلك تحت التعذيب، وما إن حل بن زيني بمقر الدرك الفرنسي حتى أُلقي عليه القبض ولم يطلق سراحه إلا بعد الاستقلال.

اقترحت على جبار عمر ورفاقه من مجاهدي الونزة البدء في تجميع قطع السلاح من أفراد الشعب حتى ولو كانت بنادق صيد في انتظار الاتصال بباجي مختار، وبعدها ينضمون إلى فوج سوق اهراس، فقال لي جبار عمر: "لدينا معلومات تفيد أن رجلا بقرية البياض يملك مسدسا، وسنذهب إليه لنشتريه من عنده بثلاثين إلى خمسين ألف فرنك، هذا إن لم يعطنا إياه مجانا عندما يعلم أننا في جهاد، وإلا سنأخذه منه عنوة".

ليس من السهل التعرف على الأشخاص الذين يملكون قطع سلاح، فلم تكن فرنسا تسمح للجزائريين بامتلاك السلاح إلا في نطاق ضيق جدا، والكثير ممن يملكون قطعة سلاح لا يُصرحون بها لدى السلطات الفرنسية، وغالبا ما يتم الحصول على السلاح من السوق السوداء، خاصة وأن جيوش الحلفاء التي مرت على الجزائر ودخلت في معارك طاحنة مع دول المحور في ليبيا وبدرجة أقل في تونس دون الحديث عن مصر ومعركة العلمين الشهيرة، خلفت قطع سلاح هنا وهناك، أخذها الناس وتداولوها في السوق السوداء بيعا وشراء.

في الليلة الأولى لنشاطنا الثوري ذهبنا إلى الرجل الذي حدثنا عنه جبار عمر ليلا حاملين معنا قطعتي سلاح الأولى كانت عبارة عن بندقية آلية يحملها جبار عمر، أما أنا فكنت أحمل معي بندقية صيد لأن المسدس الذي

كان معي ليس فيه سوى طلقة واحدة فقط ولا يصلح لمهمات كهذه، في حين حمل البقية عصيا في شكل بنادق حتى يعتقد الناس أننا جميعا مسلحون، وعندما وصلنا إلى بيت الرجل المقصود استقبلتنا الكلاب بالنباح، وكنت أخشى أن تعضني تلك الكلاب الشرسة على حين غفلة مني، لذلك حملت حجرا ورميتها به حتى تبتعد، ثم تقدمت مع جبار عمر من الباب وطرقته بأخمص البندقية حتى يعلم صاحب الدار أننا مسلحون، أما بقية المجاهدين فبقوا في الخلف غير بعيدين عنا، حاملين عصيهم التي تشبه البنادق للتّمويه، ولمّا خرج إلينا صاحب الدار، أخبرناه بأننا مجاهدون جئنا لشراء قطعة السلاح التي لديه، فباعنا المسدس بخمسة عشر ألف فرنك.

في الليلة الثانية قصدنا بعض البيوت للحصول على السلاح من أفراد الشعب، وتمكنا من شراء بندقيتي صيد، إلا أن إحداهما انكسرت إلى نصفين عندما سقطت عليها من شدة الإرهاق والإعياء بسبب السير الطويل وسط الجبال والوديان في غسق الليل، وقمت بربط نصفي البندقية المكسورة بخيط ولو من باب التمويه.

في الليلة الثالثة وصلتنا معلومات تؤكد بأن أحد أفراد الشعب ويقطن في دوار أولاد سيدي عبيد بجبل "بوسسو" الذي يقع ما بين الونزة ومداوروش، يملك سلاحا آليا من نوع "ستاتي" إيطالي الصنع، فقصدنا داره، وطرقنا بابه، ولما خرج إلينا وكانت الساعة حينها الحادية عشر ليلا، سألناه إن كان يملك قطعة سلاح ليبيعها لنا أو يتبرع بها دعما للجهاد، فأقسم لنا بألف يمين ويمين بأنه لا يملك أي قطعة سلاح، لكننا لم نصدقه، لأن المعلومات التي كانت لدينا مؤكدة، إذ أنه سبق وأن أخرج سلاحه عندما وقعت مناوشات في الدوار، ورغم محاولاتنا لإقناعه ببيعنا سلاحه، إلا أنه أصر على نفي امتلاكه، وشعرنا أن هذا الرجل يريد تغليطنا، فأردنا تخويفه حتى يُسلم سلاحه، فصاح جبار عمر علينا أن "خذوه إلى الشعبة" بمعنى أقتلوه، فجذبه محمد بن سودة وكان قوي البنية، ووضع رجله على عنقه ونادى على صاحبه "هات السكين يا عمار"، وكنا نريد الضغط عليه لتسليمنا السلاح إلى آخر لحظة، ولم يكن في نيتنا قتله حتى ولو لم يسلمنا سلاحه،

لكن لم يكن أمامنا سوى استعمال الصرامة وشيء من القسوة لتجميع السلاح، فقليل هم الجزائريون الذين استمعوا لنداء الثورة وقدموا دعما للمجاهدين من تلقاء أنفسهم خلال الأيام الأولى لاندلاعها.

وكانت زوجة صاحب الدار خلف الباب تستمع إلى ما يجري من حديث، وعندما أحست بأن حياة زوجها في خطر، خرجت تجري وتصرخ على زوجها "أعطي عليك النصلة (السلاح).. أتريد الموت من أجلها؟". فاقتنع الرجل أنه لا جدوى من الإصرار على إخفاء سلاحه، فأطلقناه وعدنا به إلى كوخه، فطلب منا أن نسمح له بإحضار فأس لإخراج السلاح من المخبأ، فوافقنا على ذلك ونحن نخشى من أن يقوم باستعماله ضدنا بمجرد إخراجه، لذلك احتطنا للأمر وأخذنا مواقعنا وصوبنا أسلحتنا باتجاهه. ضرب الرجل حائط الدار بالفأس ونزع منه طوبتين أو ثلاث واستخرج سلاحه الثمين بالإضافة إلى الذخيرة التي كانت لديه وسلمهما إلينا.

في الليلة الرابعة قررنا تجريد حراس الغابة من أسلحتهم والذين كانوا يقطنون بعين الشانية المعروفة بـ"12"، وكانوا ثلاثة حراس، اثنان منهم فرنسيان والثالث عربي، وخططنا لمباغتتهم عند غروب الشمس قبل إدخال ماشيتهم إلى الفناء المحاط بأسوار عالية وإغلاق الأبواب الخشبية المتينة، لأننا إن جئنا بعد إغلاق الأبواب فمن الصعب إقناعهم بفتحها، خاصة بعد أن بدأ خبر الثورة ينتشر بين الناس، فضلا عن تحركات المجاهدين التونسيين في المنطقة، مما جعل حراس الغابة أكثر حذرا، ولسوء حظنا لم نتمكن من تحديد المدة التي سنستغرقها في الطريق إلى بيوت حراس الغابة، فوصلنا متأخرين بعد المغرب بقليل، وكنا سبعة نفر لا نملك سوى نحو أربع بنادق صيد والبقية عزل إلا من العصي، ووجدنا الباب مغلقا فقرعناه، فصاح علينا صوت من داخل الدار "من بالباب؟"، فرد عليه أحدنا "جئنا لك بالفحم" فقد اعتاد حراس الغابة أن يأتيهم الفحم ليلا، لكن حارس الغابة هذا ارتاب في الأمر وأطلق رصاصات في الهواء لتحذيرنا وتنبيه الجيران، فرددنا عليه بإطلاق النار باتجاه الباب، وتبادلنا معه إطلاق النار، دون أن يتمكن أحدنا من الآخر.

وحتى لا يتصل حارس الغابة بالسلطات الفرنسية تسلق مشري لخضر عمود الهاتف وقطع الخط الهاتفي، واستخدمنا حيلة للإيقاع بحارس الغابة، فناديت عليه "اسمع.. إن لم تفتح الباب فورا فسنفجر عليك الدار"، وحتى أوهمه بأن الأمر جد ناديت على أصحابي "ضع المتفجرات حول الدار"، ورد علي آخر بصوت مرتفع "هات خيط المتفجرات"، وعندما سمع حارس الغابة هذا الكلام ظن أننا نملك فعلا متفجرات وسننسف بلا شك بيته، فتنحى هو وزوجته جانبا وتوقف عن إطلاق النار، ثم صحت عليه مجددا "إرم بندقيتك، وإلا سنقلب عليك الدار بما فيها، ولن يبقى حينها لا عبد، ولا حيوان"، واقترب جندي مني وأخبرني أنه سمع حارس الغابة يكلم زوجته بالقرب من إحدى نوافذ البيت، فتوجهنا بالقرب من تلك النافذة، وناديته ثانية "أعطنا البندقية"، لكن حارس الغابة بقي خائفا مترددا لا يدري ماذا يفعل، فإن سلم بندقيته للمجاهدين فقد يقتلونه بعد ذلك، وحتى وإن لم يفعلوا فسوف تُحاكمه السلطات الفرنسية بتهمة التعاون مع من تسميهم بالفلاقة، كما أنه سيفقد منصب عمله، وإن لم يسلم البندقية فجر المجاهدون بيته بمن فيه.

وحينها صاحت زوجته من وراء النافذة مستجدية عطفنا والخوف يملأ قلبها قائلة بلهجة غير معروفة في الشرق الجزائري: "يا خاوتي حنا برانية" بمعنى يا إخوتي نحن غرباء عن المنطقة، فرددت عليها "يا مخلوقة قولي لزوجك يعطينا البندقية فقط وأنتم عليكم أمان الله"، فتختفي المرأة قليلا لتُكلّم زوجها وتُقنعه بتسليم بندقيته لكن بدون جدوى، فتطل قليلا من النافذة ملزقة رضيعها في صدرها مستعطفة إيانا أن نتركهم وشأنهم، وكنت أدعوها في كل مرة إلى إقناع زوجها بتسليم بندقيته، مؤكدا لها بأننا لن نغادر المكان إلا والبندقية معنا، وطمأناها في نفس الوقت بأننا لن نمسوهم بسوء إن هم أعطونا البندقية.

وبعد أخذ ورد، فتح الرجل النافذة قليلا وأظهر ماسورة البندقية وهو يخشى أن نباغته بالرصاص، الشعور ذاته كان يتملكنا فقد كنا نخشى أن يغدر بنا حارس الغابة عند محاولة تسلمنا البندقية، لكننا بمجرد أن أظهر لنا ماسورة البندقية جذبناها بسرعة وأخذنا معها الذخيرة، وغادرنا المكان.

ثم توجهنا إلى حارس الغابة الفرنسي الذي لم يكن بعيدا عن صاحبه العربي، في حين كان الثالث مقيما بعيدا عنهما بنحو كيلومتر واحد، وقد سمع حارس الغابة الفرنسي تبادل إطلاق النار عند جاره العربي، فاستعد هو وزوجته لأي طارئ، وعندما اقتربنا من بيته، شعر حارس الغابة بوقع أقدامنا على الأرض، فأطلق علينا وابلا من الرصاص من رشاشه الآلي، فيما قذفتنا زوجته بالقنابل اليدوية، فتراجعنا وفضلنا الاكتفاء بغنيمتنا تلك، وعدم المغامرة بالتضحية بأحد منا على الأقل في هذه المرحلة.

كانت الساعة الواحدة ليلا عندما قفلنا عائدين من مهمتنا وقد أنهكنا التعب ونال منا الجوع والعطش ونحن هائمون في الجبال والغابات بلا زاد أو طعام، وبحثنا عن أي كوخ معزول لعلنا نجد ما نسد به رمقنا أو نستعلم عن الأشخاص الذين يمتلكون سلاحا وبينما نحن على تلك الحال وإذا بنا نسمع كلبا ينبح، فاقتربنا من المكان الذي يصدر منه نباح الكلب، فرأينا شابا يافعا لابسا برنوسا ومعه امرأة عجوز وفتاة صغيرة جالسين حول نار يتدفؤون بها بالقرب من كوخهم، نظرا للصقيع والبرد الشديد الذي ميز تلك الليلة، فلم تكن لهذه العائلة وسائل تدفئة سوى إشعال النار وحراسة الماشية من الذئاب واللصوص، حيث كانت تملك بضع نعجات وماعزا وحمارا وجحشا مربوطين على جانب الكوخ، ولما رأت العجوز المجاهدين بالقرب من دارها صاحت فيهم بحدة "اشكون؟ اشكون؟ اشكون؟" فقلنا لها "مجاهدون..نادي على الرجل الذي بجنبك حتى نكلمه"، فصرخت العجوز في وجوههم بحدة أشد من الأولى "أتح.. أتح..مجاهدون! ارحلوا من هنا.. ارحلوا من هنا"، فغضب جبار عمر لقسوة هذه المرأة وتعاملها الفض معنا خاصة وأننا كنا في حالة يُرثى لها من الجوع والإرهاق، وخاطبني قائلا "سأُطلق البارود على النار التي هم حولها فيتطاير شررها على وجوههم فتحرقهم"، لكنني أقسمت عليه أن لا يفعل وقلت له "والله لن أدعك تفعل ذلك..هؤلاء لم تبلغهم بعد رسالة أول نوفمبر، فلنتركهم ولنرحل".

غادرنا المكان بعد أن أخذ منا الجوع والعطش والتعب كل مأخذ، لكننا خلال سيرنا عبر مسالك جبل "الدف" مرورا على واد ذي مياه مالحة

يسمى "وادي القصب" فشربنا منه حتى ارتوينا، وأطفأنا بمياهه لهيب الظمأ، لكن بطوننا باتت تعوي عليها ذئاب الجوع، ونمنا تلك الليلة في العراء تحت جذوع الشجر، متدثرين بقشابياتنا علنا نتقي بها لسعات البرد القارس، بعد أن ابتعدنا عن مراكز حرس الغابة، لأننا كنا نتوقع أن تقوم قوات الدرك والجيش الفرنسي بحملة تمشيط واسعة للمنطقة بحثا عنا.

في اليوم الخامس انتظرنا غروب الشمس وإقبال الليل، وكانت وجهتنا هذه المرة إلى شخص يُدعى "عمي سليمان الغيلاني" الذي كان يملك من الماعز الشيء الكثير مقارنة بالفقر المدقع الذي كان يُعاني منه سكان المنطقة، حيث وصلتنا معلومات تُفيد أن "الغيلاني" هذا يملك بندقية آلية، ولما بلغنا بيته حاصرناها كالعادة، وتقدم اثنان منا من الباب وقرعناه، فخرج إلينا عمي سليمان الغيلاني مرتديا برنوسا وعليه حلة من الوقار والهيبة، فأخبرناه بأننا مجاهدون ونريد منه أن يهبنا بندقيته الآلية للجهاد أو يبيعها لنا، فقال لهم "والله لا أملكها فقد أعطيتها للمجاهدين التونسيين"، وكان صادقا في قوله لأن المجاهدين الجزائريين كانوا على اطلاع بتحركات المجاهدين التونسيين الذين كانوا ينافسونهم في جمع قطع السلاح.

جلسنا نتحدث مع الشيخ سليمان الغيلاني للاستعلام منه عن الأفراد الذين يملكون أسلحة في الدوار حتى ولو كانت بنادق صيد، ثم طلبنا منه أن يعدوا لنا سبع كسرات (خبز تقليدي)، وأخبرناه أننا لم نذق طعم الأكل منذ ليلة أمس، وأضفنا على استحياء أننا لا نمانع من شرب فناجين من القهوة إن تكرم أهل الدار بذلك، فنادى عمي سليمان الغيلاني على أحد فتيانه وقال له: "أدخل إلى الدار وقل لهم يعدون ثماني أو عشر كسرات.. وجئنا بالقهوة بسرعة".

عندما كنت وجبار عمر نتحدث مع الشيخ الغيلاني، أراد بعض الجنود أخذ غفوة خفيفة قد تنسيهم بعض ما لاقوه من الجوع والمشقة في ليلتهم تلك، ولم يكن يحمل معظمهم سوى عصيا على شكل بنادق، ويجلسون في حفر فارغة أشبه بالمطمورات يوضع فيها القمح والشعير وتغطى بالتبن

الذي يُطلى بالطين يطلق عليها الناس "الرّتّبة"، وعندما جاء الفتى بالقهوة توجه مباشرة إلى الجنود وهم يغُطُون في نوم عميق وناداهم "إنهضوا لتشربوا القهوة"، وانتبه حينها جبار عمر إلى الفتى وخاف أن يكتشف أن الأسلحة التي يملكها عدد من المجاهدين عبارة عن عصي خشبية، فأسرع إليه غاضبا ونزع من يده صينية القهوة، ووضعها على الأرض وصفعه وصرخ في وجهه: "من قال لك اتصل بالجيش يا أنت"، وحتى سليمان الغيلاني وبخ ابنه وقال له: "يا حمار يا بغل... لماذا ذهبت إلى الجنود والقيادات ها هنا".

ارتشفنا القهوة حتى أزهرت عيوننا بالسعادة وكأنها المرة الأولى التي نتذوقها، فالكسرة كانت قوتنا اليومي والقهوة فاكهة سمرنا، كنا جد شاكرين للشيخ الغيلاني الذي أكرمنا وأظهر لنا الكثير من الاحترام، وأخبرنا أن "دوار القنانزة" الذي لا يبعد عنهم سوى عشر كيلومترات يملك أهله خمس قطع سلاح آلي منها سلاح "هوتشكيس" أخرجوها لهم عندما وقعت منازعة بينهم، وكنت أعرف في "دوار القنانزة" والد شخص يُدعى "محمود قنز" درس معي القرآن في مسجد وادي الكبريت، كما كان يتعلم في المدرسة الفرنسية حيث تركه والده ليُقيم مع عائلة فرنسية، وأصبح بعد الاستقلال وزيرا للمجاهدين.

في الليلة السادسة قصدنا دوار القنانزة لكننا وصلنا متأخرين لكثرة الشعاب التي مررنا بها، وتوجهنا مباشرة إلى بيت عمار قنز والد محمود، وطرقنا الباب بشدة، فرد علينا محمود بصوت مرتفع وبانزعاج "اشكون هذا؟"، فقلنا "مجاهدون.. نادي على والدك يخرج إلينا"، فذهب محمود لكن والده أطال الخروج، مما أثار حفيظتنا، فلما خرج عاجله محمد بن سودة بصفعة على خده فسقط الشاش من على رأسه، وصاح بن سودة في وجهه "نحن نناديكم وأنتم راقدون، ونكافح من أجل حريتكم واستقلال الجزائر وأنتم غير مبالين.."، وقد حز في نفسي أن يُصفع والد زميلي بهذا الشكل، ولمت فيما بعد بن سودة على ضربه للرجل بهذه الطريقة، لكن بن سودة رد علي قائلا: "يا سي الطاهر في بعض الحالات عندما تضربه بالصفعة الأولى فإنه يكشف لك عن الحقيقة".

طلب المجاهدون من عمار قنز أن يُعطيهم الخمس قطع سلاح التي يملكها، فأخبرهم بأنه يملك بندقية مخبأة في مزرعته البعيدة عن الدوار بنحو خمسة عشر كيلومترا، أما البندقية الثانية فقال إنها عند أخيه الغائب في تبسة، وبالنسبة للبندقيتين المتبقيتين فقد أخذهما المجاهدون التونسيون، غير أنه نفى علمه بوجود سلاح آلي من نوع "هوتشكيس" بالدوار.

- طلبنا من عمار قنز أن يصحبنا معه في سيارته الراقية من نوع "فيدات" أمريكية الصنع إلى مزرعته لأخذ قطعة السلاح هذه، وأراد محمود أن يرافق والده فقلنا له "أنت إبق هنا لإحضار العشاء للجنود"، ركب ثلاثة مجاهدين مع عمار قنز في السيارة وتوجهنا نحو المزرعة، وعندما وصلنا إليها توقفت السيارة وترجل عمار وقال: "البندقية مخبأة في الشعبة وسآتي بالفأس لأستخرجها من الأرض"، وجاء بالفأس وحفر الأرض في المكان الذي خبأ فيه البندقية وأخرج جذعا خشبيا كانت البندقية مخبأة في جوفه، حيث قسم عمار الجذع إلى نصفين بعد أن جوفه بشكل يمكن إخفاء البندقية بداخله دون أن يشك في الأمر أحد، وأخذنا البندقية (من نوع غارة) والتي كان يسمونها "الثموني" لأنها تُطلق ثماني رصاصات بصفة آلية، بالإضافة إلى ثلاث خزانات للرصاص، وعدّنا إلى بيت عمار قنز ووجدنا الكسرة الساخنة جاهزة فأكلنا منها حتى سكنت آلام جوعنا، وعندما أردنا مغادرة المكان أوصينا عمارا وابنه أن يدخلوا دارهم حتى لا يعرفوا وجهتنا.

في الغد أردنا تفكيك البندقية التي تحصلنا عليها لتنظيفها لكننا لم نتمكن من ذلك، فقال مشري لخضر "أنا أفككها"، فحاول معها واستعمل الحجر لتفكيكها بدون جدوى، فتقدم السبتي جبار وقال "أنا كنت في الجيش الفرنسي وأعرف استعمال السلاح جيدا وبإمكاني تفكيك البندقية ولكن بشرط أن لا أقوم بالحراسة لمدة شهر كامل" وكانوا سبعتهم يتناوبون على الحراسة ليلا، فرد عليه جبار عمر: "فككها وسأحرس مكانك أنا وسي الطاهر" وبالفعل تمكن جبار السبتي من تفكيكها ولكن بصعوبة لكننا وجدنا لولب البندقية مكسرا، فلم يكن بالإمكان إطلاق الرصاص بصفة

آلية، واستعملها مشري لخضر لكن طلقة بطلقة، ومع ذلك فالعساكر الفرنسيون الذين اشتبكنا معهم فيما بعد كانوا يرتعدون من طلقات هذا النوع من السلاح الذي لا يملكه سوى القلة من المجاهدين.

وبعد خمسة أيام عدنا إلى شقيق عمار قنز المدعو مسعود لأخذ قطعة السلاح التي لديه فوجدناه مستعدا لقتالنا حيث حفر خندقا واختبأ فيه وبمجرد قدومنا أطلق علينا خمس رصاصات وكلابه تنبح فرددنا عليه بإطلاق النار ثم انسحبنا في جنح الظلام.

الاشتراكات

لهيب الثورة بدأ ينتشر في أوساط الجزائريين خاصة في الأرياف ولو بدرجات متفاوتة، والتخلص من حكم المستعمرين كان حلم الطبقات الشعبية التي آمنت بالجهاد ضد الاحتلال، ودعمت المجاهدين بكل ما تملك رغم الفاقة والعوز الذين عانى منهما عموم الشعب، عجائز كثيرات كن يجمعن البيض القليل لبيعه والتبرع به إلى المجاهدين بقناعة وبلا إكراه، رغم أنهن لم يكن مطالبات بتقديم التبرعات، ولكنهن أصررن على مساعدة الثورة لوجه الله ولو بالشيء القليل، دون أن ينتظرن المقابل من أحد، كل ما كن يحلمن به أن يدخلهن الله الجنة.

وحدث أن قام جبار عمر بحساب قيمة الاشتراكات التي يجمعها أحد الفلاحين في المنطقة من السكان، فوجدها ناقصة بألفي فرنك فرنسي، فارتاب في الأمر وسأل المكلّف بجمع الاشتراكات عن مصير هذه الأموال الناقصة، فأخبره بأنه احتاج إلى مبلغ من المال فاقتطعه من الاشتراكات، فغضب جبار عمر أشد الغضب لما اعتبره خيانة أمانة وقال له "عجائز مسكينات يجمعن البيض لتقديم الاشتراكات، وأنت تمد يدك إليها لتأخذ منها...!"، وأمر بقتله، وكاد آخر أن يُقتل لاختلاسه 500 فرنك فرنسي من أموال الاشتراكات وتم تقييده، لكنه نجا من الموت في آخر لحظة، فنظام الثورة كان صارما ولكن المجاهدين حاولوا التعامل مع أبناء الشعب بأكثر شفقة لأن الكثير من الناس لم يكونوا قد سمعوا بالثورة ولا فهموا رسالتها

في شهرها الأول بالخصوص، وسمع سي الطاهر بهاتين الحادثتين بعد هروبه من السجن في نوفمبر 1955.

موعد مع الموت

قرر جبار عمر القيام بعملية كبيرة في وسط مدينة الونزة لضرب الدركيين والشرطيين الذين لم نتمكن أنا والسبتي جبار من القضاء عليهم من قبل والذين يرتادون حانوت نوار القبايلي، ولما وصلنا بالقرب من الحانوت ليلا حاصرنا المكان ولكننا لم نجد سيارة الدركيين والشرطيين، فطرقنا الباب فلما تأخر نوار عن فتح الباب كسرناه ولمحنا نوار فعاجله جبار عمر بطلقة بارود أصابته أسفل ظهره لكنها لم تكن قاتلة، فزحف نوار مختبئا خلف السور، وتوجهت إلى الجهة الخلفية للحانوت لمحاصرته ومنعه من الهرب، وفي هذه الأثناء سمع أحد أعوان الاستعمار المسلحين (شانبيط) يدعى "يوسف خرّيف" صوت البارود ولم يكن بعيدا عن الحانوت فأسرع إلى المكان وبالصدفة اصطدمت بخريف وتفاجأ كلانا فتراجعنا إلى الخلف وأطلق خريف طلقتي بارود من بندقيته علي وقمت بدوري بإطلاق رصاصة من مسدسي باتجاهه لكن الغريب أن لا أحد منهما أصاب الآخر رغم أن المسافة التي كانت تفصلهما عن بعضهما لا تتجاوز المترين، غير أنني أحسست بلسعة بارود على ظهري ولكنها لم تجرحني، وعلمت بعد أن تمرست في ميدان الجهاد أن عدم إمساك السلاح جيدا والتركيز على الهدف بثبات يجعل السلاح يرتد إلى الأعلى عند إطلاق النار وبالتالي فإنه لا يصيب هدفه حتى ولو كان قريبا، وتنفست الصعداء فلم يكن يفصلني عن الشهادة سوى بضع ملميترات وكانت هذه أول مرة أقف فيها وجها لوجه مع الموت بشكل مباشر.

اشتباك جبل مزوزية (24 ديسمبر 1954)

قصدنا زاوية "الشيخ سماتي" الواقعة بجنوب مسكانة لتوعية الناس وإعلامهم بأن الثورة قامت في الجزائر وأن الجهاد أُعلن ضد المستعمر، لتلتحق الجزائر بكفاح شعوب المغرب العربي من أجل التحرر والاستقلال،

وأردنا من خلال زيارتنا هذه الزاوية الاستعلام عن الأشخاص الذين يملكون قطع سلاح، وتحدثنا مع "الشيخ السماتي" الذي اقتنع بأفكارنا ودعانا إلى العشاء عنده، وحينها سألناه إن كان يعرف أي شخص يملك قطعة سلاح فدلنا على رجل كان يملك سلاحا لكنه رحل عن المنطقة، فانطلقنا في الليل إلى جبل مزوزية.

وفي الصباح كلّفت كلا من السبتي جبار وشاب التحق بنا حديثا يُدعى "ريبوح النايلي" بالذهاب إلى حانوت غير بعيد عن جبل مزوزية لشراء بعض المأكولات، كما سلمت ريبوح مسدسي الخاص في حين خبأ جبار السبتي بندقيته تحت قشابيته، وخرج الاثنان قاصدين الحانوت لكنهما لمحا العساكر الفرنسيين قادمين في اتجاههما، فأرادا الرجوع الينا لتحذيرنا من الخطر المحدق بنا حتى لا يأخذنا الفرنسيون على حين غرة، لكنهما وجدا في الطريق عند رجوعهما عسكريا فرنسيا، فهرب ريبوح واشتبك السبتي معه بالرصاص، وأطلق عليه الخرطوشة الأولى والثانية والثالثة والرابعة ولكن البندقية لم تعد تطلق البارود بسبب الرطوبة التي أصابت الذخيرة، في حين ظل العسكري الفرنسي يطلق نيران رشاشه على السبتي جبار بلا توقف إلى أن تعطل رشاشه هو الآخر، فهجم العسكري على السبتي بسرعة ولم يكن يبعد عنه كثيرا وضربه بأخمص الرشاش فأوقعه أرضا مغشيا عليه.

سمعنا صوت إطلاق الرصاص فعلمنا أن الجيش الفرنسي قريب منا وأن جبار السبتي وريبوح قد يكونا اشتبكا معهم، فاستعددنا لمواجهتهم رغم أن عددنا كان قليلا جدا وتسليحنا ضعيف لا يقارن بعتاد العساكر الفرنسيين، وتحصنا بجبل مزوزية وأخذ كل منا موقعه، وقد كنت أحمل معي بندقية "موسكوتو" التي أخذناها من حارس الغابة، وعندما اقترب مني العساكر الفرنسيون أطلقت عليهم الرصاص فأصبت في الحين واحدا منهم فسقط على الأرض غارقا في دمائه، لم أدر إن مات أو جُرح، وكان إلى جانبي مشري لخضر فأطلق الرصاصة الأولى ثم الثانية من بندقيته الآلية، مما أصاب الفرنسيين بالذعر فتوقفوا عن التقدم وتراجعوا إلى الخلف، في حين انسحبنا إلى مواقع أخرى حتى لا يحاصرنا العساكر

الفرنسيون بعد أن حددوا مواقعنا، واستطعنا الصمود أمامهم لاختيارنا أماكن محصنة وكلما ظهر لنا عسكري رجمناه بالرصاص، مما تطلب إرسال تعزيزات عسكرية أولى قبل أن تصل قوات إضافية من تبسة مكدسة في ست شاحنات لمواجهة نحو سبع مجاهدين فقط.

شاهد جبار عمر ومشري لخضر وعمر برباري التعزيزات العسكرية الكبيرة التي وصلت إلى الجبل فانسحبوا من المعركة قبل أن يُحاصروا من جميع الجهات، في حين لم ألحظ ذلك، وبقيت مشتبكا مع العساكر الفرنسيين دون أن أتزحزح عن موقعي، لأني كنت أعلم أنني لو تحركت من هناك فسأُقتل بسهولة بالنظر إلى كثافة الرصاص الموجه نحوي، وأتاح لي موقعي الحصين رد هجمات العساكر الفرنسيين بثبات رغم أنها المرة الأولى التي أُواجه فيها قوات فرنسية بهذا الحجم وبهذا التسليح، ونادى جبار عمر ومن معه علي كي أنسحب معهم، لكني لم أسمعهم فلم أجبهم وظلوا ينادون علي حتى ظنوا أنني استشهدت في الاشتباك، فخرجوا من الحصار وبقيت وحيدا في مواجهة المئات من العساكر الفرنسيين الذين أطبقوا على جبل مزوزية كفكي كماشة.

تأكدت بأنني إن بقيت في موقعي ذاك فسيُلقي الفرنسيون القبض علي أو سيقتلونني خاصة وأن الرصاص بدأ ينفذ مني، فأخذت أنسحب رويدا رويدا تحت جنح الظلام، ونزلت إلى أسفل الجبل واختبأت في أحد الشعاب وتوقفت عن إطلاق النار، ومر بالقرب مني أفراد من قوات "سي آر آس" (CRS)الفرنسية وهم يكلمون بعضهم البعض وأنا أسمع أصواتهم وأشاهد شاحناتهم العسكرية ورأيتهم عندما صعدوا إلى أعلى الجبل، فأخرجت كراسة وقلما من جيبي كنت أُسجل بهما أسماء الأشخاص الذين قدّموا اشتراكات أو تبرعوا بقطعة سلاح، وأسماء الخونة وكان معي ختم وهو عبارة عن ممحاة منقوش عليها نجمة وهلال ومكتوب عليها جيش التحرير الجزائري، وخبأتهم في تلك الشعبة حتى لا يقعوا بين أيدي الفرنسيين إذا ما اعتقلوني أو قتلوني.

بدأ الليل يسدل خيوطه، وعبثا حاول العساكر الفرنسيون القضاء علينا ولم يتمكنوا من أسر سوى السبتي جبار، فشرعوا في النزول من أعلى الجبل كالماعز، منهم من قفز فوق الشعبة التي كنت مختبئا فيها، ومنهم من مر من أمامي، ولم يتمكنوا من رؤيتي في ظلمة الليل، فركب العسكر في الشاحنات وزمجرت محركاتها، وأنا أسترق السمع لما يحدث حولي، وأنتظر متى يُغادر آخر عسكري الجبل حتى أتمكن من الخروج من مخبئي، وحتى بعد مغادرة كل الشاحنات للمكان، إلا أنني لم أكن واثقا من أن كل العساكر غادروا، لذلك أخذت احتياطاتي خشية أن يكون فيهم من يكمن لي للإيقاع بي.

خرجت من مخبئي بعد أن اطمأنت نفسي إلى أن العساكر الفرنسيين ركبوا الشاحنات وغادروا الجبل، وكان علي أن أجد إخواني في السلاح، ولكن كيف أجدهم وقد اشتد ظلام الليل؟ فقررت البحث أولا عن مكان أمضي فيه ليلتي تلك، وتذكرت أن لنا صديقا كان يعمل معنا في مناجم الونزة ويقطن في ضواحي جبل مزوزية، ويُدعى "يحيى البليلي"، حيث تناولنا طعام العشاء عنده قبل التوجه إلى الشيخ السماتي في الليلة الماضية، فقصدت بيته لعلي أجد رفاقي عنده.

أخبرني يحيى البليلي عن إلقاء القوات الفرنسية القبض على السبتي جبار في حين هرب ريبوح الذي من المفترض أن يكون قد ذهب إلى بيت أهله وهم من البدو الرحل والذين يخيمون غير بعيدين من هنا، أما جبار عمر ومن تبقى معه فعادوا إلى نواحي الونزة، وقال لي يحيى "الجماعة ظنوا بأنك استشهدت لأنهم نادوا عليك مرارا لكنك لم تجبهم".

تناولت العشاء عند يحيى البليلي وتحدثنا عن الثورة وهمومها، وعندما جن الليل غادرت بيت صديقي على الواحدة ليلا متوجها إلى "جبل حلوفة" المحاذي لجبل مزوزية لأنني كنت أتوقع أن يعود الجيش الفرنسي إلى الجبل الذي وقعت فيه المعركة لنقل جثث عساكره أو جثث المجاهدين إن وجدت، غير أن جبل حلوفة لم يكن مغطى بالأشجار مما يصعب عملية الاختباء به، فصعدت إلى قمته وجلست أسفل صخرة كبيرة نمت تحتها إلى أن طلع الصباح.

رجع الجيش الفرنسي لتمشيط جبل مزوزية كما توقعت ذلك، ولم يطل بهم الأمر حتى جاءت فرقة عسكرية صغيرة لاستكشاف جبل حلوفة والتحقق من أن الجبل خال من المجاهدين، في الوقت الذي كنت مختبئا هناك، ومروا بالقرب مني لكن دون أن يروني في حين كنت أستمع لحديثهم وأنفاسي تكاد تحبس خشية أن يكتشفوني، ووقف أحد العساكر الفرنسيين فوق الصخرة التي كنت تحتها، وأخذ يغني ثم قضى حاجته وانصرف بعد أن نادى عليه قائده، ثم تجمعوا على شكل فصيلة وصاح عليهم قائدهم "قدم إلى اليمين..قدم إلى الشمال"، وانسحبوا من الجبل قبل العصر، وعندما تأكدت أن لا أحد منهم بقي في الجبل خرجت من أسفل الصخرة وتنفست الصعداء.

ومن أمام تلك الصخرة شاهدت على بعد نحو كيلومترين الخيم التي نصبها أهل ريبوح وكانت أربع خيم كما وصفها لي يحيى البليلي، وعندما قرب المغرب نزلت من أعلى الجبل قاصدا تلك الخيم ولما وصلت هناك، اشتد نباح كلب شرس، فخرج أحد الرجال من الخيمة، وصاح على الكلب ليبتعد ويتوقف عن النباح، ثم كلمني فسألته عن ريبوح، فقال لي "إنه هنا"، فقلت له "نادي عليه.. وآتنا بشيء لنأكله"، فدعاني الرجل إلى الخيمة، وجلس إلى جانبي نحو أربع رجال وكانوا يظنون أنني مبعوث جماعة جبار عمر وجئت لأخذ ريبوح إليهم، هذا الأخير روى لي كيف ألقى العساكر الفرنسيون القبض على السبتي جبار، في حين اختبأ هو في إحدى الشعاب ثم عاد إلى خيم أهله بعد رحيل القوات الفرنسية، فقلت له "الجماعة عادوا إلى الونزة فهيا بنا لنلحق بهم"، لكن ريبوح رفض وقال:"لا ..لا أريد الرجوع"، تفاجأت لرده وقلت له معاتبا "من الضربة الأولى تريد أن تتوقف!" وأضفت "أعطني المسدس"، فأعطاني إياه.

ليل الذئاب

تناولت العشاء معهم، ثم ودعتهم وسرت ليلا متوجها إلى جبل بوخضرة لألحق فوج جبار عمر الذي كان يبعد عني بنحو 40 كيلومترا، وفي الطريق وقعت رجلي في بئر ضيقة لم أرها لشدة ظلمة الليل،

واستطعت إخراجها من تلك البئر بمشقة وواصلت سيري إلى أن اقتربت من جبل بوخضرة، وتساقطت الأمطار في تلك الليلة الشتوية من شهر ديسمبر وابتل جسمي بمياه المطر ونال مني الإرهاق ما نالني، فأردت أن أرتاح قليلا تحت جذع شجرة، لكن تلك الغابة كانت مليئة بالذئاب المفترسة، التي علا عواؤها وبدأت تتجمع حول هذا الزائر الذي اقتحم عليها مناطق صيدها دون استئذان، ومع ذلك لم أكن أخشى هذه الذئاب مادام المسدس بيدي والبندقية على كتفي، لكن أشد ما كان يقلقني أن يسمع الجيش الفرنسي وقوات الدرك والعملاء صوت البارود إن أنا أطلقت الرصاص على الذئاب، غير أنني لم أكن مخيرا إذ أن نحو عشرة ذئاب التفت حولي ولم تكف عن العواء وبدأت تقترب مني استعدادا للانقضاض علي، فسحبت المسدس وقمت بحشوه بالرصاص وأطلقت النار عليها، ففرت الذئاب مفزوعة مذعورة لسماعها صوت البارود، ولم أعد أسمع عواءها المزعج، ونمت تلك الليلة في أسوأ حال، واستيقظت في الصباح والبرد ينهش جسدي نهشا، وتجمدت أصابع يدي من شدة القر، وأردت أن أجمع أوراق الشجر الجاف والمتناثر في الأرض لأشعل جذوة نار لعلي أستمد منها بعض الدفء، لكن أوراق الشجر كانت مبللة، فأخذت كراستي التي كنت أسجل عليها تقارير الثورة، ونزعت منها الصفحات المكتوبة، وأشعلت النار فيما تبقى منها، ووضعت عليها بعض الأغصان الجافة، ودفأت يدي ورجلي، ثم مشيت وحيدا في الجبل الذي كنت أعرفه، حيث بدأت تلوح لي من بعيد ملامح جبل الونزة.

وصلت إلى مركز الاتصال بجماعة الونزة والذي كان بيت جبار عمر البعيد عن الونزة بنحو خمسة عشر كيلومترا بدشرة عين صالح، ولحسن حظي هذه المرة وجدت جبار عمر في البيت ومعه شخص آخر، ولم يصدق جبار عمر ما رأت عيناه، فقد كان يظن أنني قد استشهدت وأنه لن يراني بعد ذلك اليوم أبدا، وإذا بي أقف أمامه مجددا حيا أرزق لم أصب بأذى، فقال لي "يا سي الطاهر كنا نظنك قد استشهدت فقد ناديناك عليك مرارا لكنك لم تجبنا فانسحبنا بعد أن وصلت التعزيزات

الفرنسية إلى ساحة المعركة"، فقلت له "لم أستطع التحرك حينها لأني لو تحركت فسأظهر لهم وأصبح صيدا سهلا لقناصتهم، لذلك كنت أطلق النار وأنسحب شيئا فشيئا" وقصصت عليه ما جرى معي في تلك الليلة من أولها إلى آخرها.

الفصل الخامس

ليــالــي الاعتقــال

جهاد الشعب التونسي

بدأ الكفاح المسلح بتونس عقب فشل المفاوضات التي تمت في ديسمبر من العام 1951 بين الوفد التونسي الذي كان صالح بن يوسف عضوا فيه، والوفد الفرنسي برئاسة وزير خارجية فرنسا وبعد إنكار الأخير لمبدأ الاعتراف بالسيادة التونسية قامت على إثرها بعض المظاهرات قررت بعدها السلطة الفرنسية إلقاء القبض على قادة الحزب الدستوري الجديد جميعهم بما فيهم الحبيب بورقيبة، الأمر الذي طور المظاهرات الشعبية إلى مقاومة شعبية انتهت إلى كفاح مسلح داخل المدن وخارجها، واستمر الكفاح لمدة ثلاث سنوات يشتد تارة ويخف تارة أخرى رغم محاولات القهر الفرنسية.

وترتب عن قيام الكفاح المسلح بالمغرب وامتداد ساحته عامي 1953 ـ 1954 وهزيمة فرنسا في معركة "ديان بيان فو" بالفيتنام عام 1954، اتخاذ الحكومة الفرنسية لقرارها بضرورة إيقاف القتال بتونس سريعا لتتفرغ للقضاء على المقاومة المسلحة بالمغرب، وأعلن رئيس الحكومة الفرنسية "منديس فرانس" في 31 جويلية 1954 بتونس عن منحها الاستقلال الذاتي والاحتفاظ بشؤون الدفاع والخارجية بيد فرنسا. وتشكلت في 4 أوت 1954 حكومة "الطاهر بن عمار"، ومع بداية اندلاع الثورة الجزائرية أصدرت الحكومة التونسية يؤيدها "حزب بورقيبة" نداء إلى المجاهدين التونسيين (الذين تلقبهم فرنسا بالفلاقة ومعناها قطاع طرق) في نوفمبر 1954 تطالبهم بتسليم أسلحتهم، واستجاب "الساسي الأسود" أحد قادة الكفاح المسلح في تونس لنداء بورقيبة، وتم تسليم حوالي 2500 قطعة سلاح مختلفة الأنواع وكميات كبيرة من الذخيرة إلى السلطة الفرنسية بتونس.

غير أن صالح بن يوسف نائب بورقيبة و"الطاهر الأسود" أحد قادة الكفاح المسلح تزعما حركة معارضة لتسليم السلاح للفرنسيين ورفضا الاتفاقية التي وقعها بورقيبة و"منديس فرانس" في 23 ماي 1954،

وطالبوا بضرورة عودة الكفاح المسلح، ولجأ بعض المجاهدين التونسيين الذين عارضوا الاتفاقية ورفضوا تسليم أسلحتهم إلى الأرض الجزائرية لينضموا إلى إخوانهم في الجزائر لقتال عدوهم المشترك.

اشتباك جبل سيدي أحمد (3 جانفي 1955)

أخبرني جبار عمر أن المجاهدين التونسيين اتصلوا به ويريدون مقابلته في جبل سيدي أحمد الواقع على الحدود بين البلدين، وانطلقنا إلى هذا الجبل ومعنا جندي للحراسة، ومشينا حتى وصلنا إلى خيمة أحد السكان، ومن هناك أرسلنا صاحب الكوخ في طلب المجاهدين التونسيين قصد الاجتماع بهم، وقد رغبنا في معرفة طبيعة الخلاف بين صالح بن يوسف وبورقيبة للاستفادة من السلاح التونسي، لأن جبار عمر كان يرى أنه كلما توجهنا شرقا سنجد قطع السلاح بشكل أفضل، وجاء مجاهدان تونسيان أحدهما يسمى "بوقطفة" والآخر يُدعى "أحمد"، حيث كنا بانتظارهما وحدثنا في هذا اللقاء عن الأزمة التي يُعاني منها الثوار في تونس بعد إعلان فرنسا استعدادها منح تونس الاستقلال الداخلي وهو ما رفضه صالح بن يوسف، في حين أبدى الحبيب بورقيبة مرونة في تقبل هذا الأمر في إطار سياسة خذ وطالب، وأدى هذا الاختلاف في الرأي إلى انقسام لدى المجاهدين التونسيين، إذ يعتقد بعضهم أنه لا بد من مواصلة الجهاد إلى جانب إخوانهم في الجزائر والمغرب إلى غاية إخراج الفرنسيين من أرضهم، في حين يرى البعض الآخر أنه حان الوقت لوضع السلاح وتغليب الخيار السياسي على الخيار العسكري.

وخلال هذا اللقاء كشف لنا المجاهدان التونسيان عن وجود شخص جزائري اشترى سلاحا، وعندما أرادا أخذه منه هرب إلى منطقة تاجروين داخل الحدود التونسية بولاية "الكاف"، ومن المحتمل أن يكون عاد إلى بيته، واقترحا علينا الذهاب معا لأخذ هذا السلاح منه، فما كان منا إلا أن قبلنا هذا الاقتراح تأكيدا على تلاحم الكفاح المسلح بين الشعبين ضد الفرنسيين.

قصد خمستنا دار هذا الرجل داخل الحدود التونسية ليلا إلى أن وصلنا إلى بيته الواقع على الحدود بين البلدين بالقرب من وادي ملاق، فحاصرنا الدار كالعادة، وتقدم أحدنا من الباب وطرقه بأخمص البندقية، لكن لا أحد رد علينا، ورابهم في الأمر ذلك السكون الذي يُخيِّم على المكان فحتى الكلاب لم تنبح، وفجأة همس الجندي في أذني وأخبرني أنه لمح شبح رجل خرج من الدار بسرعة واختبأ في الدار الأخرى. فضربت باب الحوش وأردت الدخول إلى الدار لكني وجدت الرجل وكأنه في انتظاري، فبادرني بطلقة بارود من بندقيته اخترقت صدري ومرت الرصاصة قريبا من قلبي واستقرت في لوحة كتفي.

ارتبك الفوج وتعالى إطلاق الرصاص بشكل عشوائي، وقام المجاهدون بحملي بعد أن سقطت أرضا والدماء تنزف من جسدي بغزارة، وأرادوا نقلي إلى داخل التراب الجزائري لمعالجة جرحي، وقطعت الحدود باتجاه الجزائر على رجلي بمساعدة إخواني، وفي الطريق إلى جبل سيدي أحمد وصلنا بيت أحد السكان وسأله جبار عمر إن كان يملك دابة ليحملوني عليها لأنهم إن بقوا يمشون بهذه السرعة فستلحق بنا القوات الفرنسية بدون شك، فرد الرجل بالسلب، فقال جبار عمر للمجاهدين التونسيين وصاحب الدار: "سأذهب الآن وآتيكم في الغد ببغل لحمل الجريح"، وغادر المكان رفقة الجندي الذي كان معه لكن الجرح كان عميقا فقضيت نصف الليل أصارع الموت الزُعاف، واشتد علي الألم، وخارت قواي، وأصابني الدوار، وكدت أفقد وعيي من شدة الوجع، لكني ظللت صابرا ومتينا، متمسكا ببصيص الأمل في الحياة.

أكبر ما كنا نخشاه حينها أن يكون الجيش الفرنسي قد سمع البارود وبالتالي فسيتعقبنا حتى إلى الجبل، وهو ما حصل فعلا، فقوات الجيش الفرنسي التي كانت تُطارد المجاهدين التونسيين الذين رفضوا تسليم أسلحتهم وتُراقب الحدود عن قرب والمتمركزة في الجهتين، اكتشفت وجود حركة للمجاهدين في المنطقة بعد سماعهم لطلقات البارود تلك، فأراد الجيش الفرنسي القيام بعملية عسكرية واسعة النطاق لتطهير جبل سيدي أحمد من المجاهدين التونسيين والجزائريين على حد سواء.

ومع فجر الثالث من جانفي 1955، شاهدنا أرتال الجيش الفرنسي قادمة من عدة جهات نحو جبل سيدي أحمد سواء من الأراضي التونسية أو الجزائرية للقيام بعملية عسكرية واسعة، فقررنا الصعود إلى أعالي الجبل لعلنا نتمكن من الإفلات من الحصار الذي ضربته علينا القوات الفرنسية، وفي الوقت ذاته كان على الجهة المقابلة من الجبل مجاهدون آخرون كانوا في جبل عين صالح وهم: محمد بن سودة، ومحمد حركاتي، وعمار فارس (لا يزال على قيد الحياة)، لخضر مشري، وعمار النايلي، وشقيقه عبد الله، والعربي قاسمي، أرادوا هم كذلك التحصن بجبل سيدي أحمد الكبير وصعب التضاريس، فإذا بهم كالمستجير من الرمضاء بالنار حيث وقعوا في قلب التطويق.

قوات العدو كانت كثيفة وكثيرة العدد والعُدة رغم أن عدد المجاهدين الجزائريين والتونسيين الذيَن تحصنوا بجبل سيدي أحمد لم يكن يتجاوز في مجموعهم اثنا عشر مجاهدا، وبدأت عملية تمشيط الجبل شبرا شبرا، إلى أن اقتربوا من مواقع المجاهدين، كنت حينها أحمل بندقية "موسكتو"، ولأن ذراعي الأيسر كان شبه مشلول بفعل الإصابة فقد أعطيت بندقيتي لأحمد التونسي وأخذت مسدسه، واستعد ثلاثتنا للمعركة بعد أن أخذ كل واحد منا موقعه، وما إن ظهرت خوذة أحد العساكر الفرنسيين حتى أطلقت عليه النار، فسقط العسكري الفرنسي أرضا وانقلب في المُنحدر، لنشتبك مع القوات المُهاجمة، لكنني بقيت وحيدا في مواجهتهم بعد أن انسحب المجاهدان التونسيان إلى أماكن خلفية دون علمي بعد أن تأكد لهما أن مواجهة هذه القوات الضخمة بأسلحة بسيطة يُعد شكلا من أشكال الانتحار، ولم يكن أمامي خيار آخر سوى القتال إلى آخر رصاصة لدي لأن جُرحي الدامي لم يُسعفني على الانسحاب.

حاصرتني القوات الفرنسية من كل الجوانب وأرادوا إلقاء القبض عليّ حيّا فجاؤوا من خلفي، وضربني أحد العساكر بأخمُس البندقية على رأسي فأفقدني وعيي، ثم أوقفوني وأشبعوني ضربا، وبينما كنت شبه فاقد للوعي سمعت صوت اشتباك بالرصاص في أعلى الجبل من

الجهة المقابلة، وبعد مدة سمعت الضابط الفرنسي الذي كان بالقرب منه يتحدث عن القضاء على "الفلاقة".

اشتبك المجاهدون السبعة الآخرون مع قوات العدو واستشهد في هذه المعركة محمد بن سودة وعبد الله النايلي وعمار النايلي، وأُسر كل من لخضر مشري، العربي قاسمي، محمد حركاتي، وأُصيب جميعهم بجروح متفاوتة الخطورة، أمّا فارس عمار فاختبأ، لذلك لم تتمكن منه القوات الفرنسية، وبعد هذه المعركة كان فوج جبار عمر قد أبيد في معظمه ولم يبق منه سوى جبار عمر والجندي الذي معه بالإضافة إلى فارس عمار.

بعد نهاية العملية العسكرية ونزول العساكر المهاجمين إلى أسفل الجبل وجدت هناك السلطات الفرنسية من جندرما وشنابط وقياد وجيش، وبمجرد أن رآني العملاء توجهوا إلي وأشبعوني سبا وشتما، وقالوا لي ساخرين "أنتم تخرجون فرنسا من الجزائر؟!"، لكنني في تلك اللحظات كنت أعد أنفاسي الأخيرة، فجرحي الدامي أوهن جسدي، وضربات الفرنسيين والعملاء زادتني ألما، وأخذت أنظر إلى هذه الأرض الطيبة التي امتزجت دمائي بتربتها أودعها الوداع الأخير، ولم أكن أدري ساعتها أن الأقدار ستختار لي مصيرا آخر.

ظن الفرنسيون أنني الطاهر الأسود الزعيم الجديد للمقاومة التونسية خاصة بعد أن وجدوا لدي كراسة صغيرة مكتوب عليها الطاهر الأسود، وحتى إذاعة صوت العرب وقعت في نفس الخطأ وأعلنت أن الطاهر الأسود أُسر في معركة على الحدود التونسية الجزائرية، واعتقد الفرنسيون أنهم أمسكوا صيدا ثمينا وأرادوا أن يبقوني على قيد الحياة حتى ينتزعوا مني معلومات عن الكفاح المسلح في تونس ومن يقف وراءه، فأخذوني وبقية إخواني الأسرى الجرحى إلى سوق اهراس للتحقيق معنا.

عذاب ما بعده عذاب

في مفتشية الشرطة "بعين زرقة" داخل مدينة سوق اهراس، تعرضنا للاستنطاق قصد الاستغلال السريع للمعلومات التي قد يحصلون عليها

منا كي يُلقوا القبض على من أفلت من أيديهم، وسُئلت عن اسمي وما إذا كنت قد أديت الخدمة العسكرية أم لا، وبمن اتصلنا، ومن اتصل بنا من الأهالي، خاصة وأن الكثير ممن أخذنا بنادقهم بلّغوا السلطات الفرنسية عنا، وهناك تأكد الفرنسيون أن الشخص الذي بين أيديهم ليس الطاهر الأسود وإنما الطاهر زبيري، واتهموني بأني الذراع الأيمن لجبار عمر ولقبوني بـ"ليطنو دي جبار".

ودامت مدة الاستنطاق خمسة أيام، تعرضت خلالها للتعذيب على أيدي ضابط فرنسي يدعى "دي مونجي" ومفتش جزائري اسمه "كمال حمودي" كان يحمل معه قصبة خيزران ويغرسها في جرحي حتى تكاد روحي تنتزع من جسدي، مستمتعا بتعذيبي وسماع أنين آلامي (استطاع هذا المفتش أن يصبح بعد سنوات من الاستقلال محافظا للشرطة دون أن ينتبه له أحد) وحتى يُخفف عني العذاب كنت أُحمّل المجاهدين الذين استشهدوا مسؤولية العمليات التي قمنا بها خاصة تلك المتعلقة بمحاولة إعدام الحركي "بركات" الذي كان ضابطا متقاعدا في الجيش الفرنسي فأراد المجاهدون أخذ سلاحه فأبى فأطلق عليه جبار بلقاسم الرصاص فسقط أرضا فظنناه قتل، وفي الوقت نفسه تم استنطاق مشري لخضر، ومحمد حركاتي والعربي قاسمي كل على حدة، ومقارنة أقوالهم بعضها ببعض، وكان ثلاثتهم مصابين بجروح واحد في الرأس، والآخر في الكتف، وأُصيب الثالث بجراح طفيفة، وأحضرت الشرطة الفرنسية لنا أربع جزائريين للتعرف عليهم ولكننا أنكرنا معرفتهم حتى لا نورطهم معنا.

وُضعت في فناء مفتشية الشرطة جريحا بلا رعاية صحية، بل إن صحتي ازدادت تدهورا خاصة بعد التعذيب اليومي الذي كنت أتعرض له، وكُلّف شرطيان بحراستي ليل نهار، وعندما لُوحظ أن جرحي وصل مرحلة متقدمة من التعفن وأنني قد أفارق الحياة قبل استكمال التحقيق معي، تم عرضي على طبيب يُدعى "الدكتور قصابي" الذي فحص جرحي فوجدني في حالة خطيرة، فطلب من الشرطة الفرنسية نقلي على وجه السرعة إلى المستشفى.

وبدل أن أُنقل إلى المستشفى نُقلت إلى سجن سوق اهراس رفقة إخواني الثلاثة الجرحى، ووُضع أربعتنا في الزنزانة التي كانت أرحم من مفتشية الشرطة، وجاءنا أحد حراس السجن وقدم لنا رغيفا من الخبز، ولم نأكل حينها شيئا منذ وقعونا في الأسر، فالتهمنا ذلك الرغيف دون أن نسد الجوع، وفي الغد جاءنا الحارس بالماء وطلب منا غسل ثيابنا، نزعت قشابيتي الملطخة بالدماء ووضعتها في الماء البارد وغسلتها لكني لم أجد من اللباس ما يقيني من برد تلك الزنزانة في عز الشتاء.

في اليوم الموالي وضع مسؤول السجن ويدعى "قادش اليهودي" القيد في يدي وفي يده وجرني إلى المستشفى ورافقنا شرطيان، ثم أنزلوني إلى قبو وأقفلوا علي الباب وتركوني وحيدا، ولمحت على أرضية القبو قشور برتقال ملتصقة بالأرض بعد أن داستها الأرجل، ومن شدة الجوع اقتلعتها وابتلعتها، وفي الغد عاد مسؤول السجن والشرطيان لأخذي إلى غرفة العمليات، وفي رواق المستشفى صادفت شخصا أعرفه يُدعى "محمد حافي راسو" فهمست له في أذنه: "قل للحاج (أخي بلقاسم) يأتني بقميص"، وفي الغد جاءني شقيقي بلقاسم وصهري حواسنية عبدالله فلم يجدوني في المستشفى فأرادوا العودة فلحقهم محمد حافي راسو إلى محطة القطار واستلم من عندهما القميص وأوصله إلي.

أجريت لي العملية بعد تخديري، وانتزعت الرصاصة من جسدي، ولما أفقت قبل المغرب لم أجد الشرطة معي ونظرت إلى النافذة فتسارعت إلى ذهني فكرة الهروب من المستشفى قبل أن يتفطن إلي أفراد الشرطة، لكني وجدت أن يدي مربوطتان بالسرير، ولم يطل الأمر بالشرطة حتى جاؤوا إلي واقتادوني إلى السجن مجددا، وكانت الممرضة تأتيني إلى السجن يوميا لرعايتي طيلة شهر كامل، ورغم ذلك واصلت مصالح السجن استنطاقي ولكن تعمدت تغليطهم لتفادي التعذيب الذي يُمارس بوحشية في حق المساجين والأسرى.

نُقلت ومشري لخضر ومحمد حركاتي والعربي قاسمي إلى سجن قالمة ووُضعنا في زنزانة، وفي الصباح أُخرجنا إلى ساحة السجن وهالنا العدد

الكبير من السجناء الذين اعتُقل معظمهم بسبب الثورة، بالإضافة إلى سجناء الحق العام، وهناك التقينا مع من تبقى من جماعة سوق اهراس التي قادها باجي مختار، والذي استشهد بعد ستة عشر يوما من اندلاع الثورة خلال اشتباك مع قوات الدرك الفرنسي، كما استشهد معظم أفراد الجماعة، في حين اعتُقل كل من إبراهيم هوام وإبراهيم طايبي ومحمد نصيب ومحمد بكوش وشخص آخر يُدعى الطاهر قلعي فقدَ إحدى عينيه في المعركة التي استشهد فيها باجي مختار، ولحق بهم فيما بعد السبتي جبار وعمر مستيري رفيق البطل مصطفى بن بولعيد في التراب التونسي، وكذا عمار فارس الذي سبق وأن نجا من حصار جبل سيدي أحمد وبقي مختفيا لمدة أربعة أيام في الجبل ثم قرر الذهاب إلى سوق اهراس للالتحاق بفوج باجي مختار فركب خلف أحد القرويين على حمار لكن دورية فرنسية استوقفتهما في الطريق وطلبت منهما بطاقتي الهوية وحينها تمكنوا من التعرف عليه واعتقاله.

أمام محكمة الاحتلال

بقيت ومشري لخضر والسبتي جبار في زنزانة واحدة نحو ستة أيام، ثم اقتادنا في اليوم السابع أربعة رجال من الدرك الفرنسي إلى محكمة سوق اهراس بصفة مستعجلة مقيدي الأيدي، ووقفنا أمام قاضي التحقيق ويدعى "بانيي" فسألنا عن الأشخاص المسؤولين عن محاولة اغتيال المدعو بركات أحد أعوان الاحتلال، فأنكرت معرفتي لهذا الشخص، فاستدعى القاضي بركات وسأله إن كان يعرف هؤلاء المساجين، فنفى بركات معرفته لنا.

استمر التحقيق القضائي معنا ستة أشهر كاملة، حيث كنا نُستدعى مرتين في الأسبوع للوقوف أمام قاضي التحقيق، وفي الطريق من سجن قالمة إلى محكمة قالمة كنت أسرح بنظري بين أرجاء المدينة لكن أحد الدركيين نهرني بعنف وقال لي "امش أيها ..."، وأسررّتها في نفسي، وقمت بشد القيد على يدي من شدة الغيض حتى ترك ذلك أثرا بارزا عليها، ولما

وصلت إلى قاضي التحقيق أريته أثر القيد على معصمي وقلت له "أنظر ماذا فعل الدركي بيدي"، وفعلت ذلك لأني كنت أعلم أن فرنسا الاستعمارية التي تدّعي حماية حقوق الإنسان تمنع قوانينها إساءة معاملة السجناء، لكن القاضي الفرنسي لم يلق بالا لهذا الأمر، بل طلب من الكاتبة أن تسجل في محضر التحقيق أوصافا تُسيء للمجاهدين كقطاع الطرق والخارجين عن القانون والذباحين، وأمرني أن أمضي على المحضر فرفضت الإمضاء عليه بعناد وخاطبت القاضي بتحد "نحن لسنا ذباحين، ولكننا جيش التحرير"، فثار القاضي بشكل جنوني وأمسك الكرسي الذي كان جالسا عليه وقذف به علي وصاح على رجال الدرك "خذوه .." فقاموا بتوثيق يدي واقتادوني إلى السجن.

في الزنزانة صفعني أحد الدركيين حتى كدت أسقط أرضا فتراجعت إلى الوراء وقد استشطت غضبا، فضربت الدركي بقوة بين ملتقى فخذيه حتى سقطت قبعته أرضا فدستها برجلي إمعانا في رد الإهانة للفرنسيين، فليس لي ما أخشاه بعد كل ما حدث، وسارع عناصر الدرك إلى زميلهم فحملوه إلى الطبيب. وفي الغد جاء مسؤول السجن واستدعاني وأخبرني أنّ الدركي الذي ضربته بالأمس أحضر شهادة طبية تُثبت عجزه عن العمل لمدة ثمانية أيام، فرددت عليه "هو الذي ضربني أولا ..ولا يحق له أن يضرب سجينا".

نُقلت وعدد من الأسرى إلى سجن القصبة بقسنطينة في جويلية 1955، ومثلنا أمام المحكمة العسكرية بقسنطينة المشكلة من قاضيين مدنيين وستة ضباط ومترجم وكاتب ضبط في 18 أوت 1955، لمحت في قاعة المحكمة شقيقي بلقاسم وصهري حواسنية عبدالله الذين جاءا لحضور المحاكمة، وعُيّن لي محام فرنسي، لكني رفضه وقلت لهم "لا أريد أي محام للدفاع عني"، لكن جبهة التحرير الوطني نصبت لنا محاميين للدفاع عنا وهما: الحاج إدريس الذي تحدث إلينا من وراء القضبان وقال لنا "نحن محامياكم"، وآيت حسن الذي اغتالته منظمة "اليد الحمراء" بواسطة رسالة مفخخة في ألمانيا في 1956 وهذه المنظمة الإرهابية التي شكلها

المعمرون الفرنسيون في 23 آفريل 1955 هي التي اغتالت الزعيم النقابي التونسي فرحات حشاد كما حاولت اغتيال أحمد بن بله في ليبيا.

نادى القاضي علي أولا وسألني عن التُهم الموجهة إلي فأجابته "نحن جيش التحرير.. ندافع من أجل استقلالنا مثلما هو الأمر في تونس والمغرب والهند الصينية .."، فغضب القاضي الفرنسي من جوابي وأمرني بالرجوع إلى مكاني، ثم نادى على بقية الأسرى الواحد تلو الآخر، وبعد مرافعات المحامين، جاء النطق بالحكم، فحُكم علينا بالإعدام أنا ومشري لخضر والسبتي جبار، في حين حُكم على محمد حركاتي وقاسمي العربي وعمار فارس بالسجن عشرين سنة مع الأشغال الشاقة والنفي عشرين سنة أخرى وحرمانهم من حقوقهم المدنية عشرين سنة أخرى، واقترب منا المترجم اليهودي وخاطبنا بلغة عربية ركيكة مشيرا إلى كل واحد منا "أنت موت ..أنت موت ..أنت عشرين سنة حبس بلا حق..."، كان الحكم قاسيا وصدم نفسيتنا رغم أنه كان متوقعا فلم نكن ننتظر من الاستعمار لا الرحمة ولا الشفقة، لكنني كنت حينها شابا لم أتجاوز السادسة والعشرين من عمري ولا أدري كيف استولى علي ذلك اليأس فضاقت علي الدنيا بما رحبت.

بعد رفع الجلسة وضع رجال الدرك الأغلال في أيدينا وأرجلنا وأرجعونا إلى سجن القصبة ووضعونا في قبو وغلّقوا علينا الأبواب وأحكموا إقفالها في انتظار نقل المحكوم عليهم بالإعدام إلى سجن الكُدية بقسنطينة المعروف بحصانته والذي يصل علو أسواره ست أمتار، وبقينا أيام 18، 19 و20 أوت 1955، مسجونين في هذا القبو، وخلال هذه الأيام كنت أردد شهادة أن لا إله إلا الله محمد رسول الله، فقد أيقنت بالهلاك الذي لا مفر منه إلا بمعجزة إلهية، وضاقت علي الدنيا بما رحبت، حتى حدثتني نفسي بالانتحار، وذلك بتكسير مصباح القبو وابتلاع زجاجه، لكني تذكر أن الإسلام يُحرم الانتحار فاستبعدت هذه الفكرة من رأسي.

في يوم 20 أوت 1955 وعلى غير العادة سمعت من قبو سجن القصبة بقسنطينة أصوات الرصاص وصفارات الإنذار، وأطللت من فتحة علوية بالقبو أشبه بالنافذة تُطل على أرضية فناء السجن لأرى الحراس ورجال

الشرطة مذعورين ويجرون في اتجاهات مختلفة بلا نظام، ولم أكن أدري أن زيغوت يوسف قائد المنطقة الثانية "الشمال القسنطيني" شن هجومات واسعة النطاق وفي وضح النهار متحديا الجيش الفرنسي، لتخفيف الضغط على المنطقة الأولى "الأوراس".

نُقلت وبقية المحكوم علينا بالإعدام إلى سجن الكُدية الحصين، وهناك التقيت لأول مرة بالبطل "مصطفى بن بولعيد"، وهو أول قائد للمنطقة الأولى، وأحد أبرز مفجري ثورة التحرير الجزائرية، ووجدته في اليوم الخامس من إضرابه عن الطعام احتجاجا على نوعية المعاملة التي يلقونها في السجن، وراسل مصطفى بن بولعيد رئيس الجمهورية الفرنسية حول الظروف اللاإنسانية التي يُعاني منها السجناء في سجن الكدية خاصة أولئك المحكوم عليهم بالإعدام، وكان محامو بن بولعيد يزورونه في السجن ويُبلغون انشغالاته إلى الجهات التي يرغب في الاتصال بها، وبعد أحد عشر يوما من الإضراب رضخت السلطات الفرنسية لمطالب السجناء المضربين وحسّنت من نوعية الوجبات المقدمة لهم، كما استفاد المدخنون منهم من علبة سجائر يوميا لكل مدخن.

قابلت في ساحة السجن ثلاثة عناصر من الحركة الوطنية الجزائرية الموالية لمصالي الحاج، والذين كانوا تحت مسؤولية الشيخ البيضاوي، أُلقي عليهم القبض بعد قتلهم لمفتش شرطة فرنسي، وتقربت من القائد مصطفى بن بولعيد، وأصبحت ألازمه في السجن وأستمع إلى حديثه المفعم بالوطنية والإخلاص، وروى لي ظروف اندلاع الثورة وإشكالية توفير السلاح للثوار، والتي كانت العقبة الأساسية أمام المجاهدين، وقصّ علي كيف تعرض للاعتقال عندما أراد تهريب السلاح من ليبيا إلى منطقة الأوراس.

قصة اعتقال البطل مصطفى بن بولعيد

روى لي بن بولعيد أن السلاح كان أكبر هاجس يؤرق قادة الثورة وقد تم تجميع سلاح المنظمة السرية في البداية في منطقة الأوراس بالشرق الجزائري، ولم يكن أمر إخفائه على عيون فرنسا بالأمر الهين، وقبيل

اندلاع الثورة وُزع السلاح على بقية مناطق الوطن، والتزم مصطفى بن بولعيد أمام قادة الثورة أن تتحمل المنطقة الأولى "الأوراس" العبء الأكبر للثورة لمدة ستة أشهر إلى غاية التحاق بقية المناطق، واتصل بن بولعيد بنحو سبع جزائريين تمردوا على فرنسا قبل الثورة وقادوا عمليات مسلحة فردية ضد قوات الأمن الفرنسية، والملقبين بـ "قطاع الطرق الشرفاء"، وعبثا حاولت القبض عليهم، في حين مجّدهم سكان المنطقة في أغانيهم وأفراحهم، فقد لعب هؤلاء المتمردون دورا لا يستهان به في حل بعض الخصومات بين قبائل المنطقة، واستطاع بن بولعيد إقناع بعضهم بالانضمام إلى صفوف الثورة، وكان من بين هؤلاء المتمردين قرين بلقاسم وحسين برحايل والصادق شبشوب الذي اتصل بي وزوجته عندما أصبحت في 1961 قائدا للأوراس، وكانوا جميعهم مسلحين ببنادق صيد هم وزوجاتهم، وقد استشهد معظمهم خلال ثورة التحرير، أما مسعود بن زلماط فاستشهد قبل اندلاع الثورة.

في سبتمبر 1954 وقبل اندلاع الثورة خرج مصطفى بن بولعيد إلى ليبيا لتأمين مراكز عبور قوافل السلاح، وقطع المسافة مع من معه مشيا على الأقدام وفي الغالب كانوا يؤجّرون بغالا ودوابا ليركبوا عليها، ولكنّهم واجهوا في الطريق ريحا ساخنة فضلّوا الطريق ونفذ منهم الزاد، وتاهوا في تلك القفار في الصحراء التونسية، واشتد عليهم العطش حتى كادوا يهلكون ظمأ، ولحسن حظهم مرت عليهم قافلة من ثلاثة رجال وخمسة جمال، فقدموا لهم قربة ماء، شربوا منها حتى ارتووا ونجوا من الموت المحقق، ثم واصلوا طريقهم إلى مدينة "قابس" التونسية، ثم إلى ليبيا، قبل أن يعودوا إلى الجزائر، وذلك بعدما أمّنوا نقاط عبور وتموين قوافل السلاح.

في جانفي 1955 قرر مصطفى بن بولعيد العودة إلى ليبيا لتهريب الأسلحة إلى الجزائر نظرا لأن عددا كبيرا ممن التحقوا بالجبال بدون سلاح، ورغم أنه كان قائد الأوراس، إلا أنّه فضّل تحمّل المسؤولية وتعريض نفسه للخطر لأنه كان الأدرى بمسالك تهريب السلاح، خاصة وأن الثورة الجزائرية كانت تُعاني من نُقص فادح في الأسلحة والذخيرة، ولا بد من

التحرك بسرعة لمعالجة هذا الإشكال، وساعدت السلطات المصرية في عهد جمال عبد الناصر في تزويد الثورة الجزائرية بالأسلحة وتخزينها في ليبيا، في حين يقوم المجاهدون الجزائريون بنقلها إلى الجزائر.

أمر مصطفى بن بولعيد المجاهد بشير حجاج مسؤول ناحية الخروب بقسنطينة أن يلتحق بهم بعد إتمام مهمته، وأعطاه سي مصطفى العنوان الذي سيجتمع به في تونس، وفي طريقه إلى ليبيا عرج قائد الأوراس على الناحية السادسـة (النمامشة) التي لم تهيكل حينها قصد تنظيم خلاياها، غير أن بشير حجاج الذي كلّفه بن بولعيد بتجنيد الرجال وجمع السلاح وقع أسيرا في يد قوات العدو الذين قاموا بتعذيبه واستنطاقه بوحشية، ولم يحتمل حجاج شدة العذاب فأفشى سر بن بولعيد، وكشف لهم أن هذا الأخير هو قائد الأوراس، وأعطاهم عنوان الدار التي سينزل بها، والتي كان من المقرر أن يلتقيه فيها بمدينة قابس التونسية.

وبسرعة اتصلت الشرطة بالجزائر بمحافظة الشرطة بمدينة قابس وأعطتهم أمرا باعتقال مصطفى بن بولعيد ومن معه، وقصدت الشرطة صاحب الدار التي كان من المنتظر أن يتوقف بها قائد الأوراس كنقطة اتصال، وسألوه عن أشخاص يقيمون عنده، فنفى صاحب الدار ذلك ولكنه أخبرهم أن بعض الأشخاص كانوا يأتونه أحيانا للمبيت عنده في طريقهم لأداء مناسك الحج، وهذا ما كان بن بولعيد يقوله للنّاس الذين يُقيم عندهم أو من يدلونهم على الطريق حتى لا يُكتشف أمرهم، كما أن النّاس اعتادوا في ذلك الوقت الحج إلى بيت الله الحرام رجالا أو ركبانا، وقد أمرت سلطات الأمن الفرنسية صاحب الدار أن يبلغهم بوصول أي غريب يأتي للمبيت عنده.

عندما وصل مصطفى بن بولعيد إلى قابس ترك عمر مستيري، وعمار الفرشيشي في انتظاره ريثما يؤّمن مكان المبيت الليلة، وقصد تلك الدار والتي تبعد عن مدينة قابس بنحو عشر كيلومترات بعدما حجزوا غرفة في فندق متواضع، لكن هذا الأخير أصّر على تبليغ الشرطة عنه وأخبره بما حدث له معهم، فطلب منه بن بولعيد التريث قليلا لكن صاحب الدار كان

خائفا، ولم يرد التورط معه، وقال له: "لا بد أن أبلغ الشرطة حالا، فبيتي تحت الحراسة"، فقفل بن بولعيد راجعا إلى مدينة قابس محبطا وخائفا من الوقوع في يد الشرطة الفرنسية التي أصبحت تفتش عنه، ولمح حافلة متوجهة إلى بلدة بن قردان على الحدود مع ليبيا تتهيأ للإقلاع فأسرع وركب فيها، ورآه عمار الفرشيشي الذي كان برفقة عمر مستيري فركب الحافلة هو الآخر بينما بقي مستيري في مدينة قابس، وفي نفس الوقت شرعت مصالح الأمن الفرنسية رفقة المصابحية، وهم التونسيون المتعاونون مع الفرنسيين في البحث عن بن بولعيد ومرافقه.

في الطريق إلى بن قردان توقفت الحافلة في منطقة تسمى"مدنين"، وركب ضابط فرنسي ومعه فوج من الصبايحية في الحافلة، ولما وصلوا إلى بن قردان مع غروب الشمس، أمر الضابط الفرنسي جنود الصبايحية باقتياد كل من في الحافلة إلى مركز الشرطة، وكان بن بولعيد يحمل معه مسدسا فهمس في أذن صاحبه قائلا: "افعل ما سأفعله"، فتأخرا في المشي وعلى غفلة من الصبايحية فر الاثنان معا إلى وسط البلدة، وطاردهم الفرنسيون وعملاؤهم من حي إلى حي، واختبأ الرجلان في إحدى الحدائق، لكن أحد الصبايحية توجه مباشرة إلى المكان الذي كان بن بولعيد وصاحبه يختبئان فيه، فسحب سي مصطفى مسدسه وأطلق عليه النار فأرداه قتيلا، ثم هرب المجاهدان في جنح الليل في اتجاه غير محدد، وبسبب الظلام الدامس تعثر مصطفى بن بولعيد وسقطت البوصلة والمسدس من يده فحمل المسدس إلا أن البوصلة ضاعت منه فلم يتمكنا من تحديد موقعهما ما إذا كان قد وصلا إلى التراب الليبي أم أنهما ما زالا في تونس؟ وفي الصباح عاد الجنود الفرنسيون ومعهم الخيالة الصبايحية وحملوا جميعا على مطاردة الهاربين وتتبعوا أثرهم، وتمكن أحد الخيالة من العثور عليهما وتوجه مباشرة إليهما وصاح عليهما "اخرجا يا مجرمين" ثم نادى على أصحابه، أما بن بولعيد فطلب من صاحبه الهدوء وقال له "دعه يقترب حتى أطلق عليه النار ولا أفلته"، فلما اقترب منه وأراد بن بولعيد القضاء عليه تعطل مسدسه واكتشف حينها أن إحدى قطع

المسدس قد ضاعت منه ليلة أمس عندما سقط المسدس من يده في الظلام، وتمكن الصبايحية من إلقاء القبض عليه رفقة الفرشيشي وطرحوا بن بولعيد أرضا على قفاه ولما حضر الضابط الفرنسي ركله على وجهه بعنف فشدق أنفه.

خضع مصطفى بن بولعيد خلال اعتقاله في تونس للتعذيب الشديد طيلة 17 يوما وبعد حضور مبعوث الحاكم العام في الجزائر برفقة الرائد مونتاي، طُلب منه أن يوجه نداء إلى المجاهدين الجزائريين للاستسلام وتسليم أسلحتهم لقوات الأمن الفرنسية لكن بن بولعيد رفض الطلب وتحجج بأن قيادة الثورة جماعية ولا يمكنه اتخاذ هكذا قرار إلا بعد إجماع 22 عضو في قيادة الثورة على ذلك، فسأله الضباط الفرنسيون "وما السبيل إلى ذلك؟"، فرد عليهم "هناك حالة واحدة فقط لإقناع الثوار بالنزول من الجبال ..وهي أن تعترف فرنسا باستقلال الجزائر، وإطلاق سراح جميع المساجين، وانسحاب الجيش الفرنسي من الجبال"، وتكفل الرائد "مونتاي" الذي أرسله الحاكم العام للجزائر بالتحقيق مع مصطفى بن بولعيد.

وحوكم بن بولعيد أمام محكمة عسكرية بتونس، وحكم عليه بالسجن المؤبد، ونظرا لكثرة الاعتقالات في السنة الأولى للثورة وتداول اسم مصطفى بن بولعيد في قاعات الاستنطاق والتعذيب باعتباره أحد القادة البارزين للثورة الجزائرية، فتم تحويله إلى الجزائر حيث قضى ليلة واحدة في سجن قالمة في ما يسمى بقاعات العبور ثم نقل إلى سجن الكدية بقسنطينة، وأعيدت محاكمته مجددا وحكم عليه هذه المرة بالإعدام، ووضع في جناح المحكوم عليهم بالإعدام.

الفصل السادس

الهـروب مـن السجــن

فكرة الهرب من سجن الكُدية

لم يكن أمام المساجين المحكوم عليهم بالإعدام سوى انتظار موعد تنفيذ الحكم أو البحث عن أقرب فرصة للهرب من السجن. لكن هذا الأمر كان أشبه بالمستحيل في سجن الكدية الذي يتميز بالحراسة المشددة وبمتانة وعلو أسواره، وفكر مصطفى بن بولعيد في إيجاد سبيل للهرب من هذا الجحيم وعرض الفكرة علي وعلى محمد العيفة وإبراهيم طايبي كل واحد منا على حدة، فقادنا تفكيرنا أول الأمر إلى تجريد أحد الحراس من ملابسه ومغالطة بقية زملائه لكن المشكل الذي طرح هو كثرة الحراس من جهة، ومن جهة ثانية أن كل أروقة السجن تلتقي في مكان واحد لا بديل عنه ممّا يجعل الأمر صعبا للغاية.

وجاء في مرة من المرات أحد حلاقي السجن لحلق ذقن سي مصطفى وأخبره أنه رأى في المنام سجناء يتحدثون عن تنفيذ حكم الإعدام في حق بن بولعيد وعشرة من أصحابه، وتشاء الصدف أن يتحقق هذا الحلم بشكل عكسي حيث نجا بن بولعيد وعشرة من رفاقه من سجن الكدية.

الفكرة الثانية للهرب من السجن جاءت بعد أن علم إبراهيم طايبي أن هذا الحلاق وهو أحد سجناء الحق العام والمكلفين بتنظيف وتقديم الأكل للمحكوم عليهم بالإعدام. وهو أحد رفاقه في سجن بئر خادم الذي دخله من قبل عندما كان قاصرا. لم يبق أمامه الكثير للخروج من السجن، فطلب منه إبراهيم أن يُحضر لهم منشارا صغيرا لقطع الحديد عندما يخرج من السجن ويُخبئه داخل قطعة خبز أو في حذاء، وبعد الإفراج عن الحلاق جاءهم بالمنشار داخل مكنسة صغيرة ورماها من وراء سور السجن على أن يلتقطها صديقه إبراهيم وأصحابه، لكنها سقطت في جناح القصر ووجدها حراس السجن غير أنهم ظنوا أن الأطفال هم من قاموا برميها عبثا.

وصادف هذه الحادثة دخول السجناء السياسيين. وكان معظمهم من حزب الشعب. في إضراب عن الطعام احتجاجا على ظروف اعتقالهم، بيد أنهم عُوقبوا بوضعهم في زنزانات المحكوم عليهم بالإعدام، في حين حُول

المحكوم عليه بالإعدام إلى قاعة تسمى القاعة الثامنة وتدعى كذلك "المدرعة"، وهي نفسها التي سجن فيها "الشيخ الحداد" أحد قادة ثورة المقراني (1871 ـ 1872)، ولم يثن هذا الأمر مصطفى عن البحث عن طريقة أخرى للفرار من السجن.

ألحق بشير حجاج ـ والذي تسببت المعلومات التي أدلى بها تحت التعذيب الشديد للفرنسيين في اعتقال بن بولعيد ـ بقاعة المحكوم عليهم بالإعدام وأصبح النزيل رقم ثلاثين، وعلم بأن مصطفى بن بولعيد وأصحابه يفكرون في إيجاد طريقة للهرب من السجن، فأخبرهم أنه يوجد وراء سور القاعة مخزن للخردوات في جناح السجناء السياسيين، ومن هذه المعلومة البسيطة تفتقت في ذهن مصطفى بن بولعيد خطة محكمة للهرب من السجن تتمثل في حفر نفق تحت الأرض يؤدي من قاعة المحكوم عليهم بالإعدام إلى المخزن، ومنه سيتم تسلق سور جناح السياسيين قبل تجاوز السور الخارجي والهروب من السجن.

لكن مجموعة من السجناء من بين الثلاثين تحفظوا من هذه الفكرة من غير أن يعلنوا على ذلك، وعبروا عن فقدان أملهم في الهرب من السجن بل إن أوضاعهم قد تزداد سوءًا إذا اكتشف الحراس محاولة الهرب هذه، وقد يحرمون من بعض الامتيازات المخصصة للمحكوم عليهم بالإعدام كالتبغ والقهوة والسجن الجماعي، لكن بن بولعيد اشترط عليهم التزام السرية وعدم كشف خطة الهروب لحراس السجن كأضعف الإيمان، وعقد بن بولعيد مع المحكوم عليهم بالإعدام اجتماعا، وقال لهم "إذا حافظتم على السر والهدوء والنظام فقد نسلم جميعنا أو على الأقل معظمنا". وأقسموا على المصحف الشريف الذي طلبه بن بولعيد من محاميه على الاحتفاظ بالسر مهما كانت الظروف، وقال سي مصطفى للمساجين "سنعمل من أجل الجميع... وحتى لا نموت كالجيف".

اقتلعنا قطعتين حديديتين الأولى من شباك النافذة وهي عبارة عن "محجن" (crochet) وانتزعت الثانية من الباب وهي عبارة عن "بومال" (pommelle) وبعد أن حفرنا ما قدره حبة فول وجدنا أرضية السجن

مبنية بالإسمنت ، وقد يستحيل علينا فتح ثغرة في الأساس وحفر نفق في الأرض بهذه القطعة الحديدية، فاقترح علينا ابراهيم طايبي استعمال الخل لأنه يساعد على تآكل الإسمنت ويسهل عملية الحفر، وقد كنا نعمل من المغرب إلى غاية العاشرة ليلا حيث يفرض علينا حراس السجن النوم خلال هذه الساعة.

ما بين الساعة التاسعة صباحا ومنتصف النهار كان يسمح لنا بالخروج إلى ساحة السجن وبين منتصف النهار إلى غاية الثانية كانوا يعيدوننا إلى الزنزانة، غير أننا أردنا أن نستغل هذا الوقت الثمين لحفر النفق، كما أننا كنا بحاجة إلى بعض الوسائل لتنظيف مكان الحفر لإخفاء أي أثر قد يثير الشبهات حولنا، فعملنا لذلك خطة وقع السّجانون في فخها، إذ تعمدنا رمي فضلات السجائر في كل مكان من السجن وضرب الكرة المصنوعة من الجوارب الرثة على الشجرة التي تتوسط ساحة السجن فتتناثر أوراقها على الأرض، واشتكى السجانون من نقص النظافة وتذمروا لذلك، فأمرنا مدير السجن بتنظيف المكان عقابا لنا على عدم مبالاتنا، لكننا أبدينا نوعا من الرفض فأصر مدير السجن على تنظيفنا للمكان، فرد عليه بن بولعيد قائلا "نعم سننظف المكان فهل ظننت أننا كسالى" ولم يدر في خلد مدير السجن أن بن بولعيد قد استغفله، وفعل مثلما خططنا له دون أن يدري.

رسمنا دائرة على أرضية السجن والتي على أساسها تم الحفر لاقتلاع جزء من الأرضية المحاذية لأساس السجن التي كان على عمق عشرين سنتيمترا، وباستعمال الخل أصبح الأمر أقل صعوبة، وحتى لا يسمع السجانون صوت تكسير الحجارة كان العيفة يرقص فوق الأرضية الدائرية المراد نزعها والسجناء يغنون ويطبلون بصوت مرتفع حتى يظن حراس السجن بأننا نروح عن أنفسنا، لكسر الملل والروتين الذي يميز حياة المساجين خاصة أولئك المحكوم عليهم بالإعدام، إلى غاية أن تمكنّا من قطع الأرضية بعد 13 يوما من الحفر.

السرية لتحقيق النجاح

أكد مصطفى بن بولعيد على ضرورة التزام السرية التامة والحذر الشديد لأن أي خطأ صغير قد يؤدي إلى اكتشافنا، لذلك تم تكليف عدد من المحكوم عليهم بالإعدام بالحراسة عند الحفر، في البداية كانت الحراسة تتم بصعود سجين فوق كتف زميله ومراقبة الحراس من النافذة، لكني اكتشفت بالصدفة أن التمدد على الأرض لمعرفة أي قادم نحو الفناء من خلال النظر إلى أسفل الباب الذي كان مرتفعا قليلا عن الأرضية يسمح برؤية أرجل الحراس الداخلين إلى الفناء، وإذا جاء أحد الحراس يُسرع إليه السجناء ومن بينهم بعض أفراد جماعتنا لمراقبة بعضنا البعض لمنع تسرب أية إشارة حول العملية، في حين يظن السجان أن السجناء شغوفين بمعرفة ما إذا جاء حاملا لرسائل من أهلهم.

وأخفينا الحفرة بوضع الفراش فوقها حتى لا يسهل ملاحظتها، وزيادة في الأمان كنا نسد حوافي الأرضية المقطوعة بعجينة مشكلة من الخبز والصابون وبقايا الدخان لإعطائها اللون الداكن، إذ أن الحراس كانوا يقومون بتفتيش القاعة والأفرشة كل ثمانية أيام، وبعد كل 15 يوما يتم تبديل الأفرشة، وكان يأتي حارس كل يوم لإلقاء نظرة عامة على الزنزانة ومعه سجين يحمل معه سلم للتأكد من أن شبابيك السجن غير مقطوعة وأنه لا يوجد أي أثر لمحاولة الهرب من الشباك، ثم يأتي سجناء من الحق العام ويتعمد أربع أفراد من جماعتنا مساعدتهم في تبديل الأفرشة حتى لا يتم اكتشاف الحفرة فيتم نزع الفراش الذي فوق الحفرة بسرعة ويوضع فراش جديد بنفس السرعة.

وبقي مشكل إخفاء الحصى والرمل والأتربة التي نستخرجها يوميا أثناء الحفر، واهتدينا إلى طريقة ذكية للتخلص من الركام دون أن يشعر الحراس بأمرنا، فكنا نترك مياه الحنفية تتدفق بغزارة في المرحاض بعد قفل فوهته بمنشفة، وفي الوقت نفسه يقوم أحدنا بحمل الأتربة في غطاء وخلطها بالأيدي مع الماء في المرحاض حتى لا تنسد فوهته، ثم تنزع المنشفة من فوهة المرحاض فيجري الماء المخلوط بالأتربة، وبعد أن

ازداد حجم الأتربة المستخرجة كما حدث في المرة الأخيرة حيث تعاون أربعة سجناء لحمل غطاء مملوء بالأتربة لتصريفه في دورة المياه، وقد كنت مكلفا بعملية تصريف الأتربة المخلوطة بالمياه.

وعمل مصطفى بن بولعيد على رفع معنوياتنا حتى لا يتسرب اليأس والقُنوط إلى نفوسنا وكان يقول لنا دوما: "لماذ أنتم قانطون؟ فبإذن الله ستنجح الثورة وتستقل الجزائر، انظروا إلى المساجين في تونس والمغرب إنهم اليوم يتجولون في الشوارع ..."، ويزيدنا هذا الكلام أملا في النجاة من مقصلة الاستعمار، ويشحذ هممنا أكثر لحفر النفق بإرادة وعزيمة لا تلين، رغم أن السجناء الذين استبد بهم الخوف بقوا مصّرين على رفض المشاركة في الحفر، معتقدين أنه من المُحال بمكان أن يتمكن أي شخص من الهروب من سجن الكُدية إلا إذا حدثت معجزة، غير أنهم مع ذلك التزموا بالسرية خاصة بعد أن تعهدوا بذلك أمام الجميع، وأقسموا اليمين على المصحف.

حادثة سعيد حجار

تقدمت عملية الحفر بشكل فعال خاصة بعد تجاوز عقبة الأرضية التي تم نخرها من الأسفل بعد الانتهاء من تقطيع جوانبها ثم قام محمد العيفة بالرقص فوقها ونحن نصفق ونغني من حوله للتمويه حتى سقطت هذه القطعة الإسمنتية وتم اقتلاعها دون أن يشعر الحراس بوجود أمر مريب، غير أن حادثا لم يكن في الحسبان كاد أن يفضح كل شيء، فسعيد حجار أحد أفراد جماعة باجي مختار والذي اعتُقل وحُكم عليه بالإعدام، أُصيب بحالة من اليأس والإحباط الشديدين، وصار يميل إلى الوحدة والعزلة والانطواء على الذات فقرر الانتحار فجأة، وأخذ يضرب رأسه على حائط القاعة بقوة على الواحدة ليلا حتى أدمى، وسقط مغشيا عليه، فأخبر السجناء الحارس بالأمر، فجاء مدير السجن ومعه مسؤول الحرس مسرعين ومستعلمين عما حدث، فوجد سعيد حجار ممددا على الأرض فسأل المساجين "ماذا حدث؟"، فأجابه مصطفى بن بولعيد "إنه مصاب بالوسواس لأنه يكتب

رسائلا إلى أهله دون أن يتلقى ردودا من أحد"، ولمّح إلى أن رسائل سعيد حجّار لا تصل أصلا إلى أهله، فقال له مدير السجن "سأتكفل شخصيا بنقل رسائله"، وكان سي مصطفى يخشى أن يأخذ سعيد حجار إلى مصحة السجن لعلاجه وهناك قد يكشف حجار عن محاولة الهرب، لذلك حاول سي مصطفى مراوغتهم حتى لا يتم إخراجه من القاعة واقترح عليهم معالجته فيها، وقال لهم "من الأفضل أن تتركوه معنا لأنه معتاد علينا ونحن معتادون عليه، فدعوه معنا وسنتكفل به، وفي حالة ما إذا أخذتموه فتحملوا مسؤولية ما قد يحدث"، فأبقاه الحراس معنا، وفي الغد أرسلوا الممرض لمعالجة جرحه، أما نحن فتكفلنا به نفسيا.

سعيد حجار كان مع المجاهدين التونسيين ولكن عندما وقعت خلافات بينه وبين أحدهم قال له "إذهب إلى بلدك وجاهد هناك" ولم تكن الثورة الجزائرية قد اندلعت بعد، وقد تأثر سعيد حجار لهذا الكلام وتمنى لو تندلع الثورة في الجزائر في أقرب وقت ليلتحق بها، وخلال تواجده وسط الثوار التونسيين تعرف على الحاج علي النايلي واتصلا معا بباجي مختار والتحقا بفوج سوق اهراس، ولكن سعيد حجار اعتقل في العملية التي استشهد فيها باجي مختار.

عوائق على الطريق

عند حلول الذكرى السنوية الأولى لاندلاع ثورة أول نوفمبر شن المجاهدون عمليات عسكرية استهدفت قوات العدو وأدت إلى سقوط الكثير من الجنود والضباط الفرنسيين قتلى وجرحى، ونتيجة لذلك صارت معاملة الحراس للسجناء أكثر حدة وقساوة، وقال أحد الحراس لبن بولعيد "أنتم قتلتم من الفرنسيين ضباطا ومدنيين.. أنتم لا تستحقون لا الرحمة ولا الشفقة" فرد عليه بن بولعيد "أنتم.. دولة بأكملها قامت بقصف القرى بالطائرات وقتلت النساء والأطفال وحتى قطعان الماشية".

أُخذ أحد المحكوم عليهم بالإعدام إلى المحكمة للتحقيق معه، وعند إرجاعه للقاعة دفعه أحد الحراس بعنف إلى الداخل وأغلق الباب بشدة

علقت سترته في الباب فجذبها بقوة فانهار جزء بسيط من جوانب الباب، فخشي بن بولعيد أن يثير هذا الأمر الشبهات حول عملية الحفر، لذلك تلقوا الحراس بالواقعة وقاموا باحتجاجات اضطرت مدير الحبس إلى النزول إليهم وطلب مقابلة بن بولعيد الذي يعتبره مسؤولنا الذي لا يُرد له كلام وقال "جئت لأرى ماذا فعل بن بولعيد" فجاءه سي مصطفى وقال له حارسكم غير مؤدب"، ، كما اشتكى بن بولعيد لعدم وصول الرسائل إلى السجناء، ووعده مدير السجن بالنظر في الأمر.

كان مصطفى بن بولعيد يوصينا بالحيطة والحذر في حديثنا داخل الزنزانة "فالحيطان لها آذان"، وركز سي مصطفى على التغذية الروحية. فكان حريصا على آن يؤدي الجميع صلاتهم جماعة خاصة صلاة المغرب التي نؤديها في ساحة السجن، وفي كل الحالات كنا نترك شخصين أو ثلاثة للحراسة عندما يؤدي البقية واجب الصلاة.

تواصل الحفر على قدم وساق ليل نهار مع تشديد حراسة السجناء السجانين حتى لا يكشف أمرنا، وصادفتنا أثناء عملية الحفر صخرة كؤود عرقلت عملية الحفر، بل أخطر من ذلك أصبح الحفر عليها يصدر صوتا مسموعا لذلك كان لابد لنا أن نلتف حول العيفة لنصفق له وهو يرقص للتمويه على صوت الحفر حتى لا يسمعنا لا الحراس ولا بقية المساجين.

المعجزة

تمكنا من الوصول إلى المخزن بعد ثلاثة أيام فقط قضيناها في ثقب أرضية المخزن، وطلب مصطفى بن بولعيد من العيفة بحكم خفته بالصعود إلى المخزن واستطلاع الأمر، فصعد العيفة إلى المخزن بعد أن تجاوز النفق الضيق زحفا، ونظر من حوله فوجد أسرة قديمة وفرشا مرمية في الداخل، ولم يُطل به الأمر فعاد إلينا وقال لبن بولعيد "الدنيا زاهرة"، ففرح الجميع وقال أحدنا مازحا "بصحتك.. عشت خمس دقائق حرية".

تطورت الأمور بعد فتح فجوة في الطرف الآخر من القاعة وصارت عملية إخفاء الركام والأتربة أسهل، حيث أصبحت تنقل في الأغطية إلى

قناة الجزائر
algeriachannel.net

الجهة المقابلة في المخزن بعد أن كنا نتخلص منها بصعوبة في المرحاض، لكن مشكلة أخرى واجهتنا فحتى لو تمكنا من الصعود جميعا إلى المخزن، إلا أنه من الصعب بمكان تجاوز سور جناح السياسيين ناهيك عن السور الخارجي للسجن الذي يتجاوز علوه الست أمتار، وبالتالي لا يُمكن القفز من فوقه إلا باستعمال سلم، فتكفلت مع السبتي جبار بالاستطلاع على الموجودات في المخزن وربطنا سريرين ببعضهما بواسطة عمودين حديديين وأحكمنا الوثاق بأشرطة مزقناها من الفرش، بعد أن تركنا مسافة نصف متر بين السريرين المشدودين بالقضيبين حتى نزيد من طول السلم، وقارب طول السلم أربع أمتار ونصف، في حين كان طول السور الأول يقدر بخمس أمتار أما السور الخارجي فيصل إلى ستة أمتار.

صعد مصطفى بن بولعيد إلى المخزن لتفقد عملنا والتعرف على مدى متانة السلم الذي يتم إعداده للهروب، وقال لنا "إن شاء الله يتحمل السلم" وأضاف: "هذا السلم لوحده لا يكفي، فإذا تمكنا من تجاوز سور السياسيين به، فمن المُحال تجاوز السّور الخارجي"، فاقترحنا عليه أن نهربه وحده من السجن على الأقل لإنقاذ الثورة باعتباره أحد قادتها، لكنه رفض هذه الفكرة وأصر على مشاركة الجميع.

كان المخزن يحتوي على بوطات من الحلفاء التي تستعمل في حشو الفرش المخصصة للمساجين، فقررنا استعمال البوطات الواحدة فوق الأخرى على شكل درج لتجاوز السور الأول، ومن ثم حمل السلم إلى السور الخارجي لإنهاء عملية الهروب.

وبعدما أصبح كل شيء جاهزا لتحقيق "الهروب الأكبر" من السجن، قرر سي مصطفى وحتى تتم عملية الهروب في نظام أن يخرج الستة الذين شاركوا في الحفر بدون قرعة على أن يختار شخص واحد من كل فوج، و هم حسب الترتيب: مصطفى بن بولعيد، محمد العيفة، الطاهر الزبيري. إبراهيم طايبي، رشيد بوشمال، علي حفطاري، في حين تجرى القرعة على البقية ويتم ترتيبهم حسب ذلك، على أن يُقسموا إلى فوجين كل فوج مشكل من اثني عشر سجينا، حيث يختار بن بولعيد الفوج الأول من بين

إطارات الثورة، وقد حاول سي مصطفى شهامة منه أن يُشارك في القرعة ولا يستثن نفسه، غير أن الجميع رفضوا ذلك وصرخوا جميعا "إذا نجحت أنت في الهروب، نجحت الثورة".

قبل أيام من الهروب من السجن حذرنا مصطفى بن بولعيد من التقاط أي شيء من الأرض سواء كانت علبة سردين أو علبة سجائر أو حتى قلما خشية أن تكون مسمومة أو مفخخة وطالبهم بالاختباء في الشعاب بدل الجبال وقال لهم: "إياكم أن تجدوا شيئا وتقوموا بحمله.. واقصدوا الحقول والشعاب ولا تذهبوا إلى الجبال حتى تتجنبوا الوقوع في محيط العمليات العسكرية". ونصحنا بأخذ حبات من السكر بالإضافة إلى الشمة (النفة)، وذلك حتى نستطيع تحمل الجوع لأطول مدة ممكنة بعد الهرب، أما الشمة فلتركها في الأماكن التي نتوقف بها حتى لا تستطيع كلاب الحراسة تتبع رائحتنا.

وفي 10 نوفمبر 1955 اليوم الذي تقرر فيه تنفيذ خطة الهروب من السجن، حالة من القلق والاضطراب ممزوجة بالفرح والأمل استبدت بنا خاصة بعد أن خرجنا لساحة السجن على الساعة الثانية زوالا كالعادة، وحاول سي مصطفى تهدئتنا حتى لا يلحظ حراس السجن الاضطراب على وجوهنا فيعززوا من إجراءات الأمن والحراسة ويُحبطوا الخطة.

وفي المساء وبعد أن بدأ الاستعداد الحقيقي لتنفيذ المرحلة الأخيرة من خطة الهروب، جاءنا أحد حُراس السجن ليُخبرنا أن محامي مصطفى بن بولعيد جاؤوا لزيارته، فاستاء بن بولعيد لهذه الزيارة التي جاءت في غير أوانها، فطلب منا أن لا نقلق فلن يتأخر علينا كثيرا، وذهب لمقابلة محاميه واعتذر لهم لعدم قدرته على الجلوس معهم لأن إخوانه واقفون ينتظرونه ليؤمهم في صلاة المغرب كالعادة وضرب لهم موعدا في الغد، ثم عاد إلينا، وصلينا المغرب جماعة وركعتين لله من غير الفريضة ودعوناه أن ييسر لنا أمرنا.

اخترنا الوقت الذي تتبدل فيه الحراسة، والذي يأخذ فترة تقارب العشرين دقيقة قبل أن يلتحق حراس الليل بمواقعهم، فزحفنا داخل النفق إلى المخزن بالترتيب المتفق عليه وبشكل منظم رغم حالة القلق التي

لازمتنا، وكسر مصطفى بن بولعيد ومحمد العيفة قفل باب المخزن وأخرجا السلم وأسنداه على السور الأول وصعدا عليه، وعندما وصلت أنا وإبراهيم طايبي إلى سور السياسيين وجدنا السلم فصعدنا عليه، ولما وقفنا على أعلى السور رفعنا السلم ونزلنا به، وبحثنا عن مصطفى بن بولعيد والعيفة فلم نجدهما، ولما عثرنا عليهما سألناهما قلقين "أين كنتما ونحن نبحث عنكما؟" فرد علينا العيفة "كنا نبحث عن مكان مرتفع لنضع عليه السلم لأن طوله أقل من طول السور الخارجي".

وبالنسبة لبقية السجناء فشكلوا درجا من بوطات الحلفاء ونزلوا من أعلى سور السياسيين إلى الأسفل عبر حبل مربوط بإحدى البوطات في أعلى الدرج، وأصبح السور الخارجي الحاجز الوحيد بيننا وبين الحرية، إلا أنه كان عاليا وأطول من السلم بنحو مترين مما تطلب رفع السجناء للسلم حتى يتمكن كل واحد من الصعود إلى أعلى السور والنزول عبر حبل مربوط بالسلم إلى الأسفل ثم القفز إلى الأرض لأن الحبل قصير ولا يصل إلى الأسفل.

صعد محمد العيفة إلى السلم أولا بعد أن طلبنا منه ذلك خشية أن يقع مصطفى بن بولعيد في يد دورية فرنسية إن نزل من السور، وتم رفع السلم به حتى تمكن من الوصول إلى أعلى السور بصعوبة ثم نظر يمينا وشمالا وخاطبهم "بحول الله رانا ناجحين..وساعة ساعة ويمر واحد" بمعنى سننجح بحول الله ولكن أحيانا يمر شخص غير بعيد عن سور السجن، وطالبه بن بولعيد بالإسراع والنزول عبر الحبل إلى الأسفل وقال له "روح ما ترجعش"، وحاول العيفة جاهدا الإمساك بالطرف العلوي للسور لكن قطعة قرميد كانت مرصوصة في السور تكسرت وهو يحاول التشبث بها فأصابت مصطفى بن بولعيد في وجهه وجرحته حتى سالت الدماء من خده، فمسح تلك الدماء، وصعد السلم وقمنا برفعه إلى أعلى وتشبث سي مصطفى جيدا بالطرف العلوي للسور، ثم أمسك الحبل ونزل ثم قفز إلى الأرض واختفى في ظلمة الليل.

ولما جاء دوري هجم لخضر مشري على السلم وصعد عليه رغم أنه لم يكن من المشاركين في الحفر وحاولت منعه من الصعود بدون جدوى، فلم أُرِد أن

تتعطل خطة الهروب بسبب مشكل بسيط فناديت على أصحابي ليحملوا معي السلم بلخضر مشري، وعندما أردت أن أصعد بعده منعني إبراهيم طايبي وقال لي "دورك أخذه صاحبك"، أحسست حينها باليأس فقد تضيع مني هذه الفرصة المصيرية للنجاة من الموت المحقق، لكن السبتي جبار. وكان رجلا شهما. فصاح على الجميع وقال لهم "هُزُوا بسي الطاهر" أي ارفعوا السلم به، وما زال لحن صرخة السبتي تلك ترن في أذني إلى اليوم، ورفع السجناء السلم وأمسكت بالطرف العلوي للسور ثم أمسكت الحبل ونزلت من أعلى السور بعد أن تفسخت يداي بسبب الحبل الملتصق بالجدار.

ومشيت مسرعا ولم أركض هاربا حتى لا يفتضح أمري، ولم أكن أدري في أي اتجاه أقصد فلمحت أمامي ثكنة عليها حرس من الأفارقة لم يشاهدوني، وحتى أغالط العساكر "السنيغاليين" صحت "يا محمد يا علي ينعل بوها القاوري هذا، ما نزيدش نخدم عندو"، أي لن أعمل مجددا عند هذا الأجنبي، ورأيت غير بعيد عني مشري لخضر وإبراهيم طايبي يهرولان فزعان فلحقت بهما، ومشى ثلاثتنا بسرعة وسمعنا صوت دراجة نارية تجري باتجاهنا فاعتقدنا أن الشرطة الفرنسية تُطاردنا، فركضنا بأقصى ما نملك من قوة، ودخلنا أزقة حي قصديري في ضواحي مدينة قسنطينة، ففتحت علينا الكلاب براكين نباحها وأغلق الناس الأبواب والنوافذ، ونزلنا إلى أسفل أحد الوديان، وقد تملّكتنا حالة نفسية امتزج فيها الهلع بالفرح والخوف بالأمل ونحن نجري والموت يركض خلفنا يُوشك أن يقتلع أفئدتنا من جوانحنا، ولم نكن ندري إن كانت هذه بداية عمر جديد أم هي النهاية.

وفي تلك اللحظات دوّت صفارات الإنذار لتُمزّق سكون الليل، وعلا نباح الكلاب وأُشعلت الأضواء الكاشفة، وسُمع إطلاق كثيف للرصاص، لقد قامت القيامة، وانكشفت خطة الهروب لأن السلّم لم يحتمل أكثر بعد أن تعلق به أكثر من سجين، فانكسر بعد تدافع المساجين من أجل الصعود أولا، فاختلطت عليهم الأمور، فمنهم من عاد إلى قاعة السجن عبر النفق، ومنهم من قصد حراس السّجن ليبلّغ عن محاولة الهروب حتى ينجو بنفسه،

وضاعت فرصة الهروب على تسعة عشر محكوم عليهم بالإعدام كان من بينهم السبتي جبار الذي شارك في حفر النفق وفي إنجاز سلم الهروب وأنقذ حياتي عندما كدت أفقد دوري بعد أن التصق مشري لخضر بالسلم رافض التزام دوره مما تسبب في إدخال الفوضى على النظام المتفق عليه، ونُفذ حكم الإعدام على العض ممن لم يتمكنوا من الفرار وكان من بينهم السبتي جبار الذي استشهد تاركا وراءه أسمى أمثلة التضحية والإيثار.

مطاردة المنصورين

ظللت أنا وإبراهيم طايبي ومشري لخضر نركض طوال الليل، وصعد ثلاثتنا إلى مرتفع باتجاه غابة أشجارها محروقة، بعدما نال التعب من إبراهيم طايبي وأُصيب بالعياء والقيء والغثيان، وحاولت أن أساعده لكن مشري لخضر ظل يجري هاربا وهو يخشى على نفسه أن تضيع عليه فرصة النجاة، لكني ترجيته البقاء معنا حتى نظل مجتمعين، غير أن مشري لخضر لم يستجب لرجائي رغم أني كنت مسؤوله السابق وظل يركض هاربا، فلحقت به وأجبرته على التريث قليلا حتى يلحق بنا إبراهيم، فلا يجب أن نتركه وحيدا في هذا الظرف العصيب.

طلع ضوء النهار ونحن في أسوء حال فقد أنهكنا التعب واستُنفذ منا الجهد، فتسلّقنا إحدى الأشجار في مكان مكشوف، وحاولنا أن نأخذ قسطا من الراحة، لعلّ غفوة بسيطة تنسينا شيئا من المعاناة ولو للحظات. ولكن أنّى للنوم أن يطرق باب جفوننا، وقوات الجيش الفرنسي معززة بالشرطة والدرك والحركى والقياد والشنابط يطلبوننا في كل مكان، ويكفي أن يرانا أي شخص حتى تصبح حياتنا في خطر، واختلط علينا الخوف والفرح، ولم نعرف أنفرح لتمكّننا من الهرب من السجن أم نقلق لأن الفرنسيين يطاردوننا في كل مكان وقد يلقون القبض علينا في أي لحظة.

بقينا ماكثين فوق الشجرة طوال النهار في انتظار المساء حتى نتمكن من التحرك، وسمعنا حينها صوت محركات الشاحنات مرت من مكان غير بعيد عنا، ومع ذلك لم نغادر أماكننا حتى لا يفضحنا ضوء النهار، وانتظرنا

حتى غروب الشمس وتحركنا حينها من أماكننا للبحث عن كوخ منفرد علنا نجد ما نسد به جوع يومنا ونستعلم عن تحركات الفرنسيين ومواقع جيش التحرير، ومشينا إلى أن وجدنا كوخا في أسفل ربوة وكلبا ينبح، فنادينا على صاحب الكوخ، ولما أتانا سألناه إن كان العساكر الفرنسيون وأتباعهم مروا من هذه الجهة فقال لنا "لم يأت أحد إلى هنا"، ثم طلبنا منه أن يقدم لنا ماء وطعام، فجاءنا بطبق من الكسكس بزيت الزيتون، وكان رجلا فقيرا ولكنه يحب المجاهدين الذين ينادونهم في تلك المنطقة بـ"المنصورين"، وقبل مغادرتنا سألناه ثانية إن كان يملك حذاء، فقد تمزقت أحذيتنا وتفسخت أرجلنا من طول الجري ليلة أمس، فأعطانا حذاءه رغم فقره، واتخذ مشري لخضر لنفسه عصا يتكئ عليها، وتحسنت صحة إبراهيم طايبي شيئا فشيئا بعد الراحة التي أخذها في ذلك النهار، وتعوده على المشي رغم مكوثه الطويل في السجن.

بعد أن أسكتنا جوع بطوننا وابتعدنا عن سجن الكُدية بشكل أشعرنا بشيء من الأمان الذي افتقدناه طويلا، واصلنا طريقنا ليلا إلى وجهة غير معلومة ونزلنا من أعلى الربوة لكننا ولسوء حظنا وقعنا على كومة من النباتات الشوكية (القندول) ولم نتمكن من تخليص أنفسنا منها إلا بصعوبة، وتراءى لنا من بعيد جبل كثيف الأشجار فقصدناه، وبينما نحن نمشي سمعنا نباح كلب فتوجهنا نحو صوت النباح أين وجدنا كوخا به زريبة فيها بضع معزات، فاستقبلنا صاحب الكوخ وأدخلنا إلى الدار، وقدم لنا طبق الشخشوخة بزيت الزيتون، فأكلنا القليل ثم شربنا القهوة التي كانت عنوان الكرم والضيافة، ثم سألنا صاحب الدار "أين يوجد أقرب مركز للمنصورين؟" فقال نافيا "لم يأتوني"، وأضاف "لكني سمعت بأن زاوية العيايشة فيها مناضلو الجبهة"، والتقفنا هذه الكلمة بلهفة وسعادة، وسألناه مجددا عن الطريق المؤدية إليها فوجهنا إلى الطريق الذي يجب أن نسلكه.

في زاوية العيايشة

قصد ثلاثتنا تلك الطريق الضيّقة ولكنها كانت معبدة ومشينا فيها إلى أن طلع علينا النهار، وأصبح لابد علينا إيجاد مكان لنختبئ فيه، ولمحنا ثلاثة أشجار أو أربعة بجنب بعضها البعض وفي وسطها منبع مائي، فقصدناها واختبأنا في هذا المكان ونحن نراقب أي تحرك للعدو وطائراته الاستطلاعية لأن لباس المحكوم عليهم بالإعدام كان فيه رقعتين حمراوتين على الركبتين ورقعة حمراء في الظهر ويسهل تمييزه حتى من الطائرة، ولما طلع الصباح جاء فلاح ليحرث الأرض التي بالقرب منا وسمعناه وهو "ينده" على الثور والبغل اللذين يجران المحراث، ثم أراد أن يشرب من نبع الماء، فلما اقترب منه وجدنا، فتفاجأ واندهش وأراد النكوص إلى الوراء فخشينا أن يُحدّث الناس بما رآه فيفضحنا، فنادينا عليه "يا سي محمد ألا تلقي السلام علينا! ألست مسلما!؟"، فاعتذر لنا عن سوء تصرفه، ثم طلبنا منه أن يأتينا بشيء لنأكله، فجاءنا بطعام سدّ بعضا من جوعنا، وسألناه عن اسم الدواوير القريبة من المنطقة، فأخبرنا عنها وذكر من بين هذه القرى "دوار العيايشة"، ففرحنا لسماع هذا الخبر لأننا عنه نبحث، وطلبنا من ذلك الشيخ الفلاح أن يعطينا لحاف رأسه (الشاش) فاقتسمه معنا ورجع إلى حيواناته ولم يمكث طويلا ثم عاد بها إلى بيته، أما نحن فأرسلنا مشري لخضر إلى "دوار العيايشة" للاتصال بنظام جبهة التحرير الوطني بعد أن مسحنا لباسه بالتراب للتمويه عن ملابس السجن.

ذهب مشري إلى زاوية العيايشة البعيدة بنحو أربعة كيلومترات في حدود الساعة العاشرة صباحا، ولم يصل إلى هناك إلا في حدود الساعة الثانية زوالا، وكان قد أخذ اتجاها ملتويا لتجنب لفت الأنظار، وبعث "العيايشة" رجلان ومعهما برنوس وقشابية بالإضافة إلى حذاء جلدي وآخر بلاستيكي، وهم يسوقون قطيعا من الأغنام حتى لا يشك أحد في أنهم جاؤوا لملاقاتنا.

لبست وإبراهيم طايبي البرنوس والقشابية وسقنا الأغنام حتى نظهر وكأننا رُعاة، وحتى لا نثير الشبهات خاصة بعد أن علمنا أن السلطات

الاستعمارية وعدت بدفع عشرين مليون فرنك فرنسي لمن يساعد على القبض علينا وبالأخص مصطفى بن بولعيد، ولما وصلنا إلى الزاوية مساءا وجدنا مشري لخضر مستلقيا وقد أطعموه وأكرموا مثواه. وأخبرنا حينها رجال الدوار أن ثلاثة آخرين من إخواننا الذين هربوا معنا من السجن موجودون هم أيضا بالدوار، ويتعلق الأمر بكل من علي حفطاري، محمد بزياني، ورشيد بوشمال، فطلبنا منهم أن يأتونا بهم لملاقاتهم، والتقينا جميعا والأرض لا تكاد تسعنا من السعادة والفرح بالنجاة من مقصلة العدو.

وتجمّع الناس من حولنا مندهشين من كيفية هروبنا من سجن الكُدية، وحكينا لهم قصة هروبنا من السجن ونجاتنا من الإعدام والموت المحقق، والنّاس مُشرئبي الأعناق ينصتون بانبهار وكأنهم يستمعون إلى أساطير ألف ليلة وليلة.

وجاءنا الناس بما لذّ وطاب من الطعام واللحم والتين المجفف كلّ بما استطاع، وفرحوا بنا أشد الفرح، وقضينا في تلك الليلة أسعد أوقاتنا منذ اعتقالنا، وأحسسنا لأول مرة منذ هروبنا بالأمان والاطمئنان خاصة بعد اتصالنا بنظام الثورة، ولكننا لم نكن نتصور ما ينتظرنا من مفاجآت غير متوقعة.

الوصول إلى مركز بن طوبال

اتصل السكان بمسبلي الثورة، وأخبروهم بأن ستة مجاهدين من بين الأحد عشر هاربا من سجن الكُدية يوجدون بدوار العيايشة، وكان زيغود يوسف قائد المنطقة الثانية (الشمال القسنطيني) الذي خلف ديدوش مراد بعد استشهاده في 18 جانفي 1955، قد أعطى أوامره بالإسراع بحماية بن بولعيد ومن معه قبل أن يصل إليهم الجيش الفرنسي، وطلب من المسبلّين نقلهم إلى مكان أكثر أمنا وتحت حراسة مشددة.

وصل نحو خمسة مسبلين إلى دوار العيايشة ومعهم البغال وبنادق الصيد وحملونا معهم إلى منطقة تسمى "عين التين" التابعة لولاية ميلة حاليا البعيدة قليلا عن "دوار العيايشة"، وهي عبارة عن ربوة عالية،

ومكشوفة تسمح بمراقبة مساحات واسعة حولها خاصة عندما تزحف القوات الفرنسية على المنطقة بشاحناتها العسكرية، وقطعت القافلة وديانا ووديانا، وفي كل مكان مشكوك في خطورته توضع الحراسة لتأمينه، واستراحت القافلة في "عين التين"، وفي الوقت نفسه كانت الحراسة قائمة، ثم مشينا ليلا وأينما مررنا على منطقة إلا ووجدنا الحراسة قائمة، ولشدة البرد توقفت القافلة في الطريق وشربنا قهوة ساخنة بعثت في نفوسنا بعض الدفء والحيوية، ثم واصلنا طريقنا إلى مقر المنطقة الثانية في "جبال الميلية" بجيجل، أين قابلنا لخضر بن طوبال نائب قائد المنطقة الثانية، وكان "زيغود يوسف" قد غادر المركز في تلك الليلة بعد اجتماع قيادة المنطقة الثانية (الشمال القسنطيني) لتقييم نتائج هجومات 20 أوت1955، واحتفالا بالذكرى الأولى لاندلاع الثورة التحريرية، وقد دام الاجتماع ثلاثة أيام، وتم فيه تعيين المسؤولين الجدد في المنطقة الثانية خلفا للمسؤولين الذين استُشهدوا في هجومات الشمال القسنطيني.

سألنا لخضر بن طوبال عن مصطفى بن بولعيد فأخبرناه أنه اتخذ وجهة أخرى لا نعلمها، أما نحن فجمعتنا زاوية العيايشة، واسترحنا في مركز المنطقة ونمنا إلى الصباح، وعندما استيقظنا وجدنا في هذا المركز نحو خمسين مجاهدا، وتعرفنا هناك على أحد إطارات المنطقة ويسمى "الطاهر القسنطيني" ووجدنا أن الكثير من جنود جيش التحرير يلقبون بالأوراسي، فلما سألنا القسنطيني عن سر هذا الاسم، أخبرنا بأنه ذهب إلى الأوراس واصطحب معه 24 رجلا بسلاحهم كدعم من منطقة الأوراس بقيادة شيحاني بشير نائب بن بولعيد لدعم هجومات 20 أوت 1955.

وتجولنا في المركز ولفت انتباهنا شخص له هيبة ويتصرف كمسؤول فسألنا عنه، فقيل لنا "هذا علي كافي أصبح مسؤول قطاع في المنطقة بعد 20 أوت 1955 خلفا للمسؤول السابق الذي استُشهد في هجومات الشمال القسنطيني"، كما تعرفنا على قائد آخر أصبح له مكانته السياسية خلال الثورة وغداة الاستقلال، وهو "علي منجلي" والذي عُيّن مسؤول ناحية خلال هذا الاجتماع.

محنة حارس الغابة

قضينا ليلتنا تلك وسط جنود جيش التحرير الوطني وانطلقنا في الصباح لمقابلة زيغود يوسف. سارت القافلة ومعها تسعة جنود يحرسونها، كنا نمشي ليل نهار ونستريح بين الفينة والأخرى إلى أن وصلنا إلى دشرة فتوقفنا عندها للراحة ولنستعلم عن تحركات العدو وعملائه، وكلف قائد القافلة فتى لم يتجاوز الرابعة عشر من عمره ليقودنا إلى دشرة أخرى لا تبعد عن الأولى سوى ببضعة مئات الأمتار، في حين قصد الجنود وجهة أخرى، ولما وصل ستتنا إلى الدشرة الثانية وجدنا نحو خمسة رجال ومعهم آخر بلباس حرس الغابات وهو مسؤول جبهة التحرير الوطني في الدشرة، فتحدثنا معهم ثم دعانا الحارس إلى الاستراحة في أحد الأكواخ ريثما يُعدون لنا طعام العشاء.

وسألنا الناس عن حالنا فقصصنا على حارس الغابة ومن معه كيف تمكننا من الهروب من السجن، وتناولنا بعدها طعام العشاء قبل المغرب، وبينما كنا نتبادل أطراف الحديث وإذا بمشري لخضر يلمح حركة غير عادية في خارج الكوخ، رجال يحملون الفؤوس والشواقير، ومقطبة جباههم وكأنهم يضمرون شرا، فأسرّ لي مشري قائلا "الناس أمام الباب يحملون العصي والشواقر ولا أدري ماذا يضمرون لنا".

هجم حارس الغابة ومن معه علينا وقيدوا أيدينا بالحبال، فطلبت منهم أن يقتلونا ولا يسلمونا إلى فرنسا، فرد علي حارس الغابة: "لن نسلمكم لفرنسا.. ولكن فرنسا تلعب لعبات كبار"، فقد كان يظن أننا مبعوثون من فرنسا لاختراق جبهة وجيش التحرير الوطني لذلك لم يثقوا بنا، وساقونا إلى مكان يبعد عن الدشرة بنحو كيلومترين اثنين أين يوجد مركز لجيش التحرير الوطني، وسلمونا إلى مسؤول المركز الذي يُدعى "الخالدي" والذي استمع إلينا واطمأن إلى أننا لسنا مبعوثين من فرنسا كما حاولت بعض الأطراف ترويج هذا الأمر عنا، فأمر الخالدي بفك وثاقنا، وبتنا تلك الليلة في هذا المركز، وفي الصباح اقتدنا إلى مركز زيغود يوسف في "السمندو".

بين يدي زيغود يوسف

قاد الخالدي فرقة من الجنود لاصطحابنا إلى مركز زيغود يوسف، ومشينا مسافة ليست باليسيرة، إلى أن وصلنا إلى مركز زيغود يوسف بالسمندو بسكيكدة عصر ذلك اليوم، وقابلناه شخصيا، وقصصنا عليه حكايتنا وكيف تمكنّا من الفرار من سجن الكُدية بقيادة مصطفى بن بولعيد قائد الأوراس، وكان زيغود حريصا على معرفة مصير سي مصطفى، وتحدثنا معه عن العمليات التي قمنا بها في سوق اهراس والأوراس قبل أسرنا، وبعد أن أكرم زيغود يوسف مثوانا، خيّرنا بين البقاء معه أو العودة إلى مناطقنا فاخترنا الثانية، ومكثنا عنده في المركز ثلاثة أيام، شاهدنا خلالها زيغود يوسف يستيقظ على الخامسة صباحا ليقوم بتدريب فوج من الجنود لمدة ساعتين، ويضبط الحراسة جيدا تحسبا لأي عملية عسكرية مباغتة يقوم بها الجيش الفرنسي، وفي صباح اليوم الثالث كلّف زيغود شخصا يُدعى "سي مبروك" وأربع جنود بمرافقتنا إلى مناطقنا في سوق اهراس والأوراس، وزودنا زيغوت ببندقيتين ومسدس قبل مغادرتنا للمركز.

توجهنا برفقة "سي مبروك" الذي رافقنا وجنوده إلى حيث أمره قائده، وكان يمتطي حصانا ويتقدمه الجنود، وسرنا من جبال السمندو مرورا على قالمة من نواحيها الشرقية، وواصلنا طريقنا نحو "الكاف لعكس" شمال سدراته، واسترحنا في المساء عند شخص يُدعى "الطاهر عرفة" قائد وحدة لجيش التحرير والذي أخبرنا أن عبد الله بلهوشات ومسطوري واثنين آخرين فروا من الجيش الفرنسي والتحقوا بجيش التحرير الوطني منذ نحو أسبوع (أواخر نوفمبر 1955)، وكلّف "الطاهر عرفة" مجموعة من الجنود بمرافقة كل من حفطاري وبزياني وبوشمال إلى الأوراس في حين واصلت أنا ولخضر مشري وإبراهيم طايبي طريقنا إلى أولاد بشيح أين وجدنا قائدا جديدا من الأوراس يدعى الوردي قتال ومعه مجموعة من المجاهدين من النمامشة، وقد اتصلوا بفوج جبار عمر الذي أتى واصطحبني معه إلى مركزه أما مشري لخضر فبقي في مركز الوردي قتال، بينما انضم إبراهيم طايبي إلى فوج عبد الله نواورية في سوق اهراس أحد المتبقين من فوج باجي مختار.

واستطاع مصطفى بن بولعيد مع محمد العيفة النجاة هما أيضا والوصول إلى الأوراس سالمين، وكذلك الشأن بالنسبة لكرومة حمادي. وسليمان زايدي، وحسين عريف، وتحققت رؤية الحلاق الذي رأى مصطفى بن بولعيد وعشرة من أصحابه ينفذ فيهم حكم الإعدام، ولكن الله وهبنا حياة جديدة، بلغت مدة الأسر التي قضيتها في السجون الفرنسية عشرة أسهر وسبعة أيام، وقد نقشت أسماؤنا في الزنزانة التي مكثنا فيها .

الفصل السابع

إعـــدام جبـــار عمـــر

عبد الله بلهوشات

عندما عدت إلى مركز جبار عمر حدثني هو وموسى حواسنية أن الثورة أمرت أبناء الشعب الجزائري بالتوقف عن دفع الضرائب للفرنسيين، ونظرا لاستجابة الشعب الجزائري لهذا الأمر فقد شكلت فرنسا الاستعمارية فرقا من القُومية لمرافقة الخزناجي لجباية الضرائب من الأهالي حتى في الأماكن النائية، وقد تم تعيين عبد الله بلهوشات مسؤولا عن حرس الخزناجي في "وادي الكبريت" خاصة وأنه كان قد أنهى خدمته العسكرية في الجيش الفرنسي برتبة "عريف" ، فاتصل المجاهدون بوالد عبد الله وهددوه بحرق بيته إن لم ينسحب ابنه من الجيش الفرنسي، وسلموه منشورا يحمل علامة "السيف الأسود" الذي يرمز إلى الحكم بالإعدام، وأمهلوه أسبوعا كاملا قبل تنفيذ تهديدهم، فاتصل به والده وأقنعه بالالتحاق بجيش التحرير، فحمل عبد الله بلهوشات أربع قطع سلاح واختفى بأحد البيوت في ضواحي مداوروش مسقط رأسه، واتصل بـ"عمر البوقصي" أحد مجاهدي الأوراس الذي كان مارا بمنطقة سوق اهراس متوجها إلى الوردي قتال، فتم ضم عبد الله بلهوشات إلى صفوفهم واستلموا منه قطع السلاح الأربعة، ولما سمع جبار عمر بذلك استاء للأمر لأن فوجه هو الذي سعى إلى تجنيد عبد الله بلهوشات، وبالتالي فقد كانوا أحق بقطع السلاح الأربعة.

وقد أبلى عبد الله بلاء حسنا في الثورة وعرف بالشجاعة والبطولة مما أهله لتقلد عدة مسؤوليات في الثورة في وقت قياسي بل سعى لتكوين ولاية جديدة يكون على رأسها برتبة عقيد قبل أن يعين رائدا في مجلس قيادة الولاية الأولى.

الصراع بين جبار عمر والوردي قتال

في التقسيم الأول الذي أعده القادة الستة كانت ناحية سوق اهراس تابعة للمنطقة الثانية (الشمال القسنطيني)، وبعد استشهاد باجي مختار

في 18 نوفمبر 1954 بمزرعة "دالي شواف" في ضواحي "مجاز الصفه" في سوق اهراس رفقة العديد من المجاهدين وأسر بعضهم ولم ينج منهم سوى عبد الله نواورية، وتفكيك فوج جبار عمر واستشهاد وأسر معظم عناصره، أصاب الركود النشاط الثوري بسوق اهراس، فأراد جبار عمر إعادة إحياء هذا النشاط بتجنيد المزيد من المجاهدين لتعويض النواة الأولى من مجاهدي الناحية التي أُبيدت بصفة شبه كلية، وتولى جبار قيادة الناحية بصفة عملية لعدم وجود اتصال بمنطقة الشمال القسنطيني.

وفي نفس الوقت بادر جبار عمر وعبد الله نواورية" بإجراء اتصالات بالمنطقة الأولى (الأوراس) بحثا عن الاتصال بنظام الثورة والحصول على الدعم بالسلاح والتأييد بالرجال ومنحه شرعية قيادة الناحية، خاصة وأن المنطقة الثانية حسب الكثير من الشهادات كانت ضعيفة التسليح وقليلة الرجال في الأشهر الأولى للثورة.

وفي الوقت الذي سعى فيه جبار عمر لبسط سيطرته على ناحية سوق اهراس، فُوجئ بوصول مجموعة من المجاهدين من ناحية النمامشة (خنشلة) بقيادة الوردي قتال إلى ناحيته، وذلك في 25 أكتوبر 1955 بعد معركة "الجرف الشهيرة"، وأثار هذا القرار حفيظة جبار عمر الذي لم يكن له اتصال بالمنطقة الثانية، في حين قامت قيادة الأوراس بدعم ناحية سوق اهراس بالرجال والسلاح بالنظر إلى الإمكانيات التي كانت تتوفر عليها مقارنة بالمناطق الأخرى.

وظهر الصراع جليا بين القائدين جبار عمر والوردي قتال، فالأول يستند إلى شعبيته وبطولاته ورصيده الجهادي في المطالبة بأحقيته في قيادة الناحية، خاصة وأنه من الرعيل الأول للثورة وهو الذي قام بتنظيم ناحية سوق اهراس بعد استشهاد باجي مختار، علاوة على أنه ابن المنطقة، أما الثاني فيستمد قوته من الشرعية التي منحته إياها قيادة المنطقة الأولى (الأوراس)، وشهرته التي اكتسبها في معركة الجرف التي أصيب فيها بجروح.

هجومات الشمال القسنطيني تفك الحصار على الأوراس

كانت منطقة الأوراس أكثر المناطق حيوية ونشاطا، حيث تركزت أهم العمليات المسلحة في هذه المنطقة، لذلك أقحمت السلطات الفرنسية قوات كبيرة في الأوراس، وشددت الخناق على المنطقة بغية وأد الثورة في مهدها قبل أن يمتد شررها إلى بقية المناطق، ولفك الحصار على الأوراس وجهت المنطقة الأولى نداء لبقية المناطق للتحرك قصد تخفيف الضغط عليها، فبدأ البطل زيغود يوسف قائد منطقة الشمال القسنطيني يفكر في القيام بهجومات واسعة على مراكز العدو، لكنه كان يفتقد للرجال والسلاح الكافي للقيام بعمليات بهذا الحجم، غير أن الوقت لم يكن في صالح الثورة، لأن انهيار المقاومة في الأوراس يعني انطفاء شعلة الثورة في بقية المناطق، كما أن القائد مصطفى بن بولعيد التزم أمام قادة الثورة قبيل اندلاعها بأن تتحمل الأوراس العبء الأكبر للثورة لمدة ستة أشهر إلى غاية التحاق بقية المناطق، غير أن المنطقة الأولى تحملت ثقل الثورة إلى غاية 20 أوت 1955.

ولمواجهة مشكل نقص الرجال والسلاح في المنطقة الثانية أرسلت المنطقة الأولى بعض الجنود للشمال القسنطيني للمشاركة في هجومات 20 أوت، حيث اصطحب الطاهر القسنطيني 24 مجاهدا من الأوراس كما قاد "عيسى عبد الوهاب" 12 مجاهدا من "الأوراس"، وأكد لي الصالح بوبنيدر الذي أصبح فيما بعد قائدا للولاية الثانية أنه أشرف بنفسه على عبور مجاهدي الأوراس إلى الشمال القسنطيني لدعم هجومات الشمال القسنطيني وفي نفس الوقت أعطى البطل زيغود يوسف أوامره بتجنيد أكبر عدد من الرجال حتى وإن لم يملكوا أسلحة نارية، ودعاهم إلى حمل الأسلحة البيضاء وحتى العصي لمقاتلة الفرنسيين في ضوء النهار ولو بأجساد عارية، لأن الوقت لا ينتظر، فكان لا بد من إشراك الجماهير في معركة التحرر.

رفعت هجومات الشمال القسنطيني من معنويات مجاهدي الأوراس على الرغم من أن مصطفى بن بولعيد ظل في تلك الفترة أسيرا لدى المستعمرين، لكنه بالمقابل خلّف نائبه شيهاني بشير على رأس قيادة

المنطقة الأولى ومعه القائدين عجول وعباس لغرور، غير أن الخلافات دبت بين شيهاني بشير من جهة، وعاجل عجول ولغرور من جهة ثانية.

معركة الجرف

بعد أن بلغ صيت الثورة وانتصاراتها أرجاء الجزائر، جمع جنود شيهاني بشير سكان القرى والمداشر بما فيهم الأعيان في نواحي تبسة، وخطب عليهم شيهاني خطبته الشهيرة التي وجّه فيها تحذيرا أخيرا للمتعاونين مع الاستعمار من مغبة مواصلة معاداتهم للثورة، وأنذرهم بالموت إن هم أصروا على الوقوف ضد استقلال وطنهم وقال فيما قال: "إشهدي يا سماء، واشهدي يا جبال، واشهدي يا أشجار، واشهدي يا أحجار ... أن الجزائر عربية وليست فرنسية".

ولما بلغ الجيش الفرنسي أنباء عن وجود وحدات هامة من المجاهدين بقيادة شيهاني بشير، أرسل قوات ضخمة إلى منطقة الجرف قرب تبسة وذلك في 22 سبتمبر 1955، وفرض حصارا خانقا على المنطقة، وعزم على إبادة جميع الثوار المتواجدين بالمنطقة وعلى رأسهم شيهاني بشير، والثأر مجددا من هجومات الشمال القسنطيني التي مر عليها نحو شهر.

ووقعت "معركة الجرف" الشهيرة التي دامت ثمانية أيام، وقصفت الطائرات الفرنسية الوديان والشعاب الكبيرة بشراسة وحولتها إلى كتلة من اللهيب والدخان، وقذفت الدبابات والمدافع بقنابلها صوب وحدات جيش التحرير الوطني، ثم اقتحم العساكر الفرنسيون بأعداد هائلة "الجبل الأبيض" ومن عدة جهات مدججين بالرشاشات والبنادق الآلية، وردت عليهم وحدات جيش التحرير ببسالة وقوة لا تلين، مستفيدين من معرفتهم الجيدة بتضاريس المنطقة وتمرسهم على حرب العصابات، وهو ما عزّز من قوتهم وبأسهم وتمكنوا من إسقاط عدة طائرات حربية وعمودية، وتدمير الكثير من الدبابات، والقضاء على الكثير من العساكر الفرنسيين، ومع ذلك أصرّ جنرالات فرنسا على مواصلة العملية العسكرية الواسعة النطاق ليل نهار لإفناء جنود جيش التحرير الوطني

في المنطقة حتى ولو كلفهم ذلك سقوط المئات من جنودهم قتلى وجرحى، فقد أرادوا تحقيق نصر استراتيجي، يكون مقدمة لإخماد جذوة الثورة بشكل نهائي.

وقُتل عدد كبير من العساكر الفرنسيين، كما استشهد الكثير من المجاهدين في هذه المعركة الضارية. التي كانت مصيرية للطرفين، وأطبق الجيش الفرنسي على الجرف، أما طائراته الحربية فلم تكف عن رمي المجاهدين بحمم من النار طيلة أيام المعركة، وقصف العدو الكهف الذي كان يتحصن به شهاني بشير ومرافقيه بالغازات السامة ثم ردموا فوهة الغار حتى يتأكدوا من القضاء تماما على قيادة الأوراس، فانتبه المجاهدون إلى أن الغار الذي اختبؤوا فيه تنبعث منه نسمة هواء، فقال شهاني لجنوده "من المؤكد أن لهذا الغار مخرج آخر وإلا لما انبعثت منه نسمة الهواء هذه"، وأمرهم بدخوله والمشي إلى نهايته خاصة بعد أن اكتشفت القوات الفرنسية هذا الغار وبدأت بقصفه بقنابل النابالم والأسلحة الكيماوية معتقدة أنها تمكنت من القضاء عليهم، وتوغل المجاهدون داخل الغار الممتد على عدة كيلومترات ومكثوا فيه نحو ثلاثة أيام، إلى أن وجدوا أشعة الشمس تنبعث من طرفه الآخر ، فتأكدوا من وجود مخرج لهذا الغار الذي يشبه النفق الطويل كما توقع ذلك المجاهدون، أما عاجل عجول وعباس لغرور فقد تمكنا مع جنودهما من الخروج من التطويق بعد اشتباكات بطولية استطاعوا فيها اختراق خطوط العدو ببسالة قل نظيرها.

وتمكن المجاهدون من الخروج إلى الطرف الآخر من الجبل والإفلات من الحصار الحديدي الذي فرضه عليهم الجيش الفرنسي طيلة أكثر من أسبوع، في حين ظلت القوات الفرنسية تُفتش عنهم دون جدوى وكأنّ الأرض ابتلعتهم، فرجعت تجرٌ وراءها أذيال الخيبة بعد أن فقدت العشرات من القتلى، وتحطمت العديد من آلياتها الحربية، وأعطى هذا الانتصار الاستراتيجي دفعا قويا للثورة، ورفع من معنويات المجاهدين، كما زاد من شعبية جيش التحرير الوطني.

غير أن حدة الصراع بين قادة منطقة الأوراس ازدادت تأزما، خاصة بعد أن اتهم عباس لغرور شيهاني بشير بارتكاب تجاوزات أخلاقية تخالف مبادئ الشريعة الإسلامية فأمر بقتله، ونفذ الحكم في 30 أكتوبر 1955، غير أن بعض الشهادات التي سمعتها فتقول أن عجول ولغرور اتهما شيهاني باستدراج قوات العدو إليهم بخطابه الذي ألقاه على الجماهير، وصار عجول قائدا عمليا للمنطقة الأولى يساعده في ذلك عباس لغرور في غياب مصطفى بن بولعيد الذي كان مازال تحت الأسر، إلا أن شقيقه عمر بن بولعيد رفض الاعتراف بسلطة "عجول" على الأوراس، ونصّب نفسه هو الأخر قائدا على المنطقة الأولى معتزلا عجول وجنوده في ناحية أخرى من الأوراس، الأمر الذي هدّد تماسك قيادة المنطقة التي اعتبرت إلى وقت قريب قلب الثورة النابض، حيث سيطر عمر بن بولعيد على الجهة الغربية للمنطقة، وتولى عاجل عجول قيادة الجهة الوسطى للأوراس معتبرا نفسه المسؤول الأول للمنطقة، بينما قاد عباس لغرور الجهة الشرقية في جبال النمامشة.

وعندما تمكن البطل التاريخي للأوراس مصطفى بن بولعيد من الفرار من سجن الكُدية بقسنطينة والالتحاق بمركز قيادة المنطقة الأولى، تفاجأ لما سمع أن نائبه شيهاني بشير والمحامي العمراني الماركسي التوجه بالإضافة إلى شابين آخرين قد قُتلوا بأمر من عجول وعباس لغرور، فلامهما كثيرا على هذا الأمر، وهو ما أثار حفيظة عجول الذي خشي أن يعاقبهما بن بولعيد عندما تعود زمام الأمور إلى يديه، فرفض عجول إعادة الاعتبار له كقائد للأوراس إلى غاية مرور ستة أشهر وقال له: "ست أشهر النظام لا يضع فيك الثقة"، بل وشكّك في وطنية بن بولعيد ونزاهته عندما قال لبعض أصحابه "سجن الكُدية ليس كرتونا ليتمكنوا من الهروب منه بسهولة"، ملمحا إلى أن السلطات الفرنسية لربما سهلّت عليهم مهمة الهروب من السجن قصد استعمالهم لاختراق قيادة الأوراس وتفكيكها، واستاء مصطفى بن بولعيد لكلام عجول عنه وأسره في نفسه، رغم أنه كان يعلم أهمية الاحتياط للأمور طبقا لمبدأ

أدنى ثقة تعني أعلى درجات من الأمان". غير أن عودة مصطفى بن بولعيد إلى الأوراس بكل ما يمثله من ثقل رمزي ومعنوي ساعد في توحيد المنطقة مجددا بعد أن كادت تقع فريسة للصراعات الشخصية.

العودة إلى ميادين المعارك

عدت إلى منصبي غير الرسمي كنائب لجبار عمر في حين بقي مشري لخضر مع فوج الوردي قتال، ووجدت أن أعداد المجاهدين قد تضاعفت بعد أن كاد فوجنا يفنى في الشهور الأولى للثورة، وزوّدني جبار عمر ببندقية يلقبها المجاهدون بالخماسي.

بلغ جبار عمر خبرا يُفيد أنّ القوات الفرنسية تحاصر فوج السبتي بومعراف في جبل بوخضرة القريب من الونزة، فقرر جبار أخذ فوج من المجاهدين والذهاب لمؤازرة السبتي ومن معه، ومساعدتهم على الخروج من الحصار، وقصدنا جبل بوخضرة راجلين وركبانا إلى أن وصلنا إلى الجبل، فوجدنا أن السبتي بومعراف تمكن ورجاله من الإفلات من قبضة القوات الفرنسية التي قادت عملية عسكرية للقضاء على المجاهدين في المنطقة واشتبكت معهم دون أن تنال منهم.

حرب العصابات

اعتمد المجاهدون في معاركهم على أسلوب الهجمات المباغتة والانسحاب السريع وتجنب الاشتباك المباشر، والتركيز على الكمائن التي عادة ما تكون نتائجها مضمونة، ومثلت حرب العصابات الأسلوب الأمثل في قتال الجيوش الفرنسية النظامية التي دوخها هذا الفن في القتال رغم ضخامة عددها وعتادها، ومع ذلك قام المجاهدون في بعض الأحيان بمحاصرة القوات الفرنسية وأسر بعض عساكرها والاستحواذ على أسلحتهم كلما سنحت الفرصة بذلك، في حين ارتكزت القوات الفرنسية في عملياتها العسكرية على الطائرات العمودية التي تقوم بنقل القوات إلى أماكن المعارك بسرعة فائقة، كما اعتمدت على الطائرات الحربية التي

تقوم بقصف مواقع المجاهدين بقنابل النابالم الحارقة، ثم تتقدم الدبابات إلى أقرب نقطة ممكنة في الميدان لتقصف هي الأخرى المنطقة وتُلهبها نارا قبل أن تقتحم قوات اللفيف الأجنبي والحركى متبوعة بالمظليين وببقية العساكر الميدان ويدخلوا في اشتباكات مباشرة مع المجاهدين. ومع ذلك لم يتمكن الفرنسيون من النيل من إرادة الجزائريين الذين بدأت شوكة ثورتهم تقوى يوما بعد يوم وزادت ثقتهم في إمكانية النصر على الاستعمار رغم أن هذا الأمر كان إلى عهد قريب ضربا من الخيال أو الجنون أو مغامرة غير محسوبة النتائج، فالانتصارات التي حققها المجاهدون في العديد من المعارك رسخت في أذهانهم فكرة أن "مصير الاحتلال إلى زوال"، ووصلت الثورة إلى مرحلة اللاّرجوع.

كمين وادي ملاق

بناءا على معلومات مؤكدة حول مرور شاحنات لنقل الرمال من وادي ملاّق إلى الونزة تحرسهما كتيبة عسكرية، قررنا تنظيم كمين لهذه الكتيبة الفرنسية، فترصدناهم على جانبي الطريق، ولما اقتربت منا الشاحنات المدنية ومعها خمس شاحنات عسكرية محملة بالعساكر بالإضافة إلى عربات مدرعة، أمطرناهم بوابل من الرصاص وأصبنا الكثير من العساكر وأرديناهم بين قتيل وجريح، ثم حاولنا الاستيلاء على أسلحتهم، لكن بعض العساكر الذين قفزوا من الشاحنات وانبطحوا أرضا ردوا بنيران كثيفة علينا ولم يكن عددنا يتجاوز 12 مجاهدا، ومع ذلك تمكنا من غنيمة قطعة سلاح ولم يُصب منا سوى مجاهد واحد بجراح طفيفة وانسحبنا سالمين غانمين.

وبعد بضعة أيام من وقوع هذا الكمين أرسل الجيش الفرنسي قوات له من أ راضي تونس باتجاه مركزنا القريب من بيت جبار في ضواحي الونزة للقيام بعملية عسكرية انتقاما لقتلاهم في ذلك الكمين. فانسحبنا إلى مواقع خلفية ومع ذلك لاحقتنا القوات الاستعمارية وقصفتنا بالطائرات والمدافع والأسلحة الثقيلة، إلاّ أنناّ تمكنا من مباغتة قوات العدو من حيث لم يحتسبوا وأصبناهم إصابات مباشرة.

وقُتل في هذه المعركة خمس عساكر سُحبت جثثهم من أرض المعركة، في حين انسحبنا إلى مواقع آمنة، وأخبرنا الأهالي بعد نهاية المعركة بأنّهم سمعوا الكثير من العساكر الذين هاجمونا اليوم يتحدثون بالعربية بلهجة تشبه اللهجة التونسية.

طايبي يثأر من قتلة باجي مختار

قررّ "إبراهيم طايبي بعد التحاقه بفوج عبد الله نواورية، الثأر من الأشخاص الذين بلّغوا السلطات الفرنسية عنهم عندما كانوا مختبئين في إحدى المزارع مع باجي مختار قبل أن تباغتهم القوات الفرنسية وتقتل وتأسر معظم أعضاء الفوج الخمسة والعشرين رجلا، واستطاع إبراهيم طايبي بعد هروبه من السجن أن يقضي على صاحب المزرعة الذي بلّغ عنهم، في حين أفلت منه بقية العملاء.

الطريق إلى الأوراس

في 5 فيفري 1956 اتصلت قيادة المنطقة الأولى بالوردي قتآل وطلبت منه حضور اجتماع سيعقد بالأوراس لتقييم الوضع وإحضار جبار عمر معه، وشكّل هذا الأخير فوجا من عبد الله نواورية، موسى حواسنية، مسعود جعادي، حمه شوشان، بالإضافة إلى إبراهيم طايبي وأنا حيث أردنا مقابلة بن بولعيد كما تواعدنا على ذلك في السجن، وانطلقنا من "جبل بوسسو" جنوب طاورة مرورا بمركز السبتي بومعراف وواصلنا طريقنا باتجاه الأوراس، وسرنا إلى أن وصلنا إلى منطقة بنواحي خنشلة تدعى "الخناق الأكحل" وهي منطقة خاضعة لنفوذ رجال عجول وعباس لغرور، ونزلنا في كوخ مهجور وأقمنا فيه لمدة يومين في جو بارد ومثلج، واجتمعنا هناك بالوردي قتآل وجنوده، وكان هذا المركز خاضعا لمسؤولية قائد ثوري يدعى "عثماني تيجاني".

وقبل مغادرتنا للكوخ ذهب جبار عمر إلى الوردي قتال لاستئذانه بمواصلة الطريق إلى الأوراس، إلاّ أنّ الوردي قتآل فاجأه عندما طلب منه

عدم اصطحابي وإبراهيم طايبي معهم، فرد عليه جبار منفعلا "ولكن هؤلاء أصدقاء مصطفى بن بولعيد وهم الذين هربوا معه من سجن الكُدية ويرغبون في ملاقاته كما تواعدوا على ذلك عندما كانوا في السجن"، فقال قتّال: "فليذهبا إذن إلى عباس لغرور في الجبل الأبيض فإن وافق على السماح لهما بالذهاب لملاقاة مصطفى بن بولعيد فسيعطيهما الرخصة والدليل الذي يرافقهما".

لم يكن قتال ينظر بعين الرضا لمرافقتي لهم لأنني كنت تحت قيادة جبار عمر، بالإضافة إلى كوني صديق حميم لمصطفى بن بولعيد وأحد المقربين إليه عندما كنا في سجن الكُدية، في الوقت الذي كان قتّال يُضمر شرّا لجبار عمر، ولم يكن يريد أن أُفسد عليه أنا وإبراهيم طايبي مخطّطه للتخلّص من جبار.

رجع جبار عمر إلينا وأخبرنا بأن الوردي قتال رفض مرافقة إبراهيم طايبي وأنا لهم، وأضاف أنه هو الآخر لن يذهب إلى الاجتماع، لكني ألححت عليه بالذهاب وأن لا يقوم بهذا التصرف مع سي مصطفى، وقلت له "إذهب معهم وبلغ سي مصطفى سلامنا وأخبره عن أمرنا"، فوافق جبار عمر على هذا الاقتراح، ولم يأخذ معه سوى عبد الله نواورية وموسى حواسنية وبعض الجنود للحراسة، في حين طلب مني ومن إبراهيم طايبي الذهاب إلى مركز عباس لغرور في الجبل الأبيض هذا الأخير لم يحضر الاجتماع بسبب إصابته بجراح أثناء إحدى المعارك.

تأسّف بن بولعيد كثيرا لمّا أبلغه جبار عمر أنه لم يُسمح لنا بالمجيء إليه لأننا غير معنيين بالاجتماع ولم يرد اسمانا في الاتصال. وأننا الآن في الخناق الأكحل بانتظار أوامره للسماح لنا بمقابلته، فلام سي مصطفى الوردي قتال على هذا الأمر وأخبره أنه تواعد معنا على الملاقاة إن كُتبت لنا النجاة.

وخلال الاجتماع الذي عُقد بمنطقة الحمامات بحضور عجول، عمر بن بولعيد، والبشير ورتان المدعو سيدي حني وغاب عنه عباس لغرور دعا مصطفى بن بولعيد قادة المنطقة الأولى للتماسك لأن الثورة انطلقت وهي

ماضية في التوسع والانتشار، وأصبح لها جيش ازداد قوة وتنظيما، ثم أمسك بذراع جبار عمر، وكان رجلا ضعيف البنية فقال له "أنت اللّي رعدت فرانسا!" بمعنى أنت الذي ترتعد منك فرنسا خوفا! واحتضنه، ثم طلب منه أن يواصل "ضرب العسكر" والتفت إلى عبد الله نواورية وأمره "بحفر المخابئ وجمع المؤن"، فقد كان مصطفى بن بولعيد يفكر في تنظيم اجتماع قادة المناطق الخمسة بسوق اهراس قبل أن تضطرهم الظروف لعقده "بوادي الصومام" بالمنطقة الثالثة (القبائل).

القبض على جبار عمر

وخلال اجتماع قادة الأوراس عرضت كل ناحية تقاريرها عن الوضع السياسي والعسكري والتنظيمي والمالي، واستغل الوردي قتال هذا الاجتماع لتوجيه تُهم خطيرة لغريمه جبار عمر، كالاعتداء على حرمة أحد الجزائريين، والحقيقة أن هذه التُهم كانت ملفقة ومزيفة وتهدف بالأساس إلى التخلص من جبار بأي شكل، وفي العادة استعمل بعض الثوار تُهم الخيانة أو التجاوزات الأخلاقية أو اختلاس أموال الثورة كذرائع لتصفية المجاهدين الذين لا يتفقون معهم خاصة وأن الثورة في بداياتها لم تكن تملك نظاما قضائيا وليس لديها الوقت للتدقيق في كل قضية على حدة فوقعت بعض الأخطاء التي تحدث في كل ثورات العالم.

ولكن مصطفى بن بولعيد رفض فكرة توقيف جبار عمر ومعاقبته وأمر بعودتهم للعمل في مناطقهم واقترح تشكيل لجنة للتحقيق في مشاكل المنطقة، وهكذا تم تعيين عبد الوهاب عثماني رئيسا للجنة ممثلا عن عجول، وعمار دونه ممثلا عن عباس لغرور، ومحمد العيفة أحد الفارين من سجن الكُدية ممثلا عن مصطفى بن بولعيد.

مشى الركب إلى أن اقتربوا من مركز عباس لغرور فقصد الوردي قتال ومعه محمد العيفة وعبد الوهاب عثماني المركز لمقابلة لغرور واصطحاب ممثله الذي سيختاره ليكون في لجنة التحقيق، ولكن جبار عمر أراد هو الآخر مرافقتهم للاطلاع على صحة عباس لغرور الذي كان جريحا، ولما

منعهم الوردي قتّال من ذلك، أحسّ جبار عمر أن الأمور ليست على ما يُرام وأنّ هناك مكيدة تُدبر ضدّه، فقال لموسى حواسنية:

- لنعد إلى منطقتنا.

- كيف نذهب وقد أمرنا بمرافقة اللجنة، وعبد الله نواورية قد يرفض العودة معنا؟

- سنأخذه معنا ولو بالقوة.. عندما يحل المساء نغادر هذا المكان.. تقدم أنت إلى الأمام وأنا من الخلف ونواورية بيننا حتى لا يهرب.

وهذا ما وقع، حيث مشوا إلى أن وصلوا إلى بيت رجل من معارف موسى حواسنية يُدعى "العربي بعلوج" النموشي (صديق صهر سي موسى) القاطن بضواحي مداوروش، فتناولوا العشاء عنده، أمّا جماعة الوردي قتال فقد اكتشفت مغادرة جبار عمر وجماعته "الخناق لكحل" بشكل مريب، لذلك انطلقوا في طلبهم ولحقوا بهم عند العربي بعلوج، فقالوا لهم: "قتلتم الوردي قتال ثم فررتم.."، فنفى جبار عمر هذا الأمر بطبيعة الحال، لكن جماعة الوردي أصرت عليهم بمرافقتهم إلى "الخناق لكحل"، وتدخل العربي النموشي الذي كانت له سطوة في المنطقة وحذر جماعة الوردي من أن يمسّوا ضيُوفه بسوء، وتكهرب الجو واضطرب، ثم تعهدت جماعة الوردي بأخذ جبار وصاحبيه وإعادتهم دون أن يُصابوا بأي أذى، وبالفعل أُعيد ثلاثتهم إلى "الخناق لكحل" ثم أُخلي سبيلهم، غير أن الآتي أعظم فقد اتخذ رئيس لجنة التحقيق عبد الوهاب عثماني مع الوردي قتال قرارا بالقضاء على جبار عمر بعد العودة إلى سوق اهراس لأن الأمر سيكون أسهل هناك لأن مصطفى بن بولعيد قد استشهد في هذا الوقت، فقد كان عثماني وقتال ولغرور مستائين جميعا من تصرفه ذاك وعدم إذعانه للأوامر.

التحقيق مع جبار عمر

تم إيفاد اللّجنة إلى ناحية سوق اهراس للتحقيق في صحة التُهم التي وجهها الوردي قتال إلى جبار عمر، وبعد فترة من عودة قادة الناحية إلى قواعدهم استدعي جبار عمر إلى مركز الوردي قتال لمقابلة أعضاء

اللّجنة، وهناك قُتل بأمر من الوردي قتال مسؤول ناحية سوق اهراس بتواطؤ من رئيس اللجنة عبد الوهاب عثماني، ولم يكن بإمكان عضوي اللجنة محمد العيفة وعمار دونه عمل الكثير لتخفيف العقوبة على جبار عمر الذي دوخ قوات الاحتلال الفرنسي بعملياته الجهادية الجريئة، وكان يفترض على اللجنة أن تقدم تقريرها إلى مصطفى بن بولعيد قبل اتخاذ أي قرار، لكن سبق السيف العذل.

في مركز عباس لغرور

بعد أن مُنعت وإبراهيم طايبي من مرافقة قيادات ناحية سوق اهراس لمقابلة مصطفى بن بولعيد أُمرنا بالتوجه إلى مركز عباس لغرور أحد القيادات البارزة في منطقة الأوراس والذي لم يذهب لحضور الاجتماع بسبب جروح أُصيب بها في إحدى المعارك، ومشينا على الأقدام مسيرة ثلاثة أيام إلى أن وصلنا إلى مركز عباس لغرور فوجدناه جالسا بأحد الكهوف وعلامات الهيبة والوقار مرتسمة على وجهه، ومن حوله القادة يحرسهم الجنود.

استأذنا بالدخول على عباس لغرور فأذن لنا، وقصصنا عليه ما جرى لنا منذ هروبنا من السجن مع "مصطفى بن بولعيد" إلى غاية منعنا من مقابلة هذا الأخير إلاّ بإذن خاص منه، وأعطانا عباس 350 خرطوشة وطلب منا الرجوع إلى المنطقة، وقال لنا "بن بولعيد قائد كبير وسوف يقوم بجولة في المنطقة بعد الانتهاء من الاجتماع".

كتيبة من المجندين الجزائريين في الجيش الفرنسي تلتحق بالثورة

سعى جيش التحرير الوطني لاستقطاب المجندين الجزائريين في الجيش الفرنسي وتهريبهم قصد إضعاف جيش العدو وخلخلة صفوفه، فضلا عن حاجة الثورة إلى رجال مدربين يحملون معهم أسلحتهم وذخيرتهم خاصة وأن الثورة كانت تُعاني من نقص شديد في التسليح، واعتمد المجاهدون في التأثير على المجندين في الجيش الفرنسي على أسلوب الترهيب والترغيب،

فكانوا يهددونهم تارة بالموت إن استمروا في الوقوف ضد إرادة شعبهم، ويعدونهم بمنحهم رتبا أعلى من الرتب التي تمنحهم إياها فرنسا خاصة بعد صدور قانون فرنسي يدعى "la loi-cadre" والذي يفتح المجال للمجندين الجزائريين لاعتلاء رتب قيادية في الجيش، ومع ذلك فرّ الكثير من الضباط والجنود الجزائريين من الجيش الفرنسي كأفراد أو كمجموعات صغيرة والتحقوا بصفوف جيش التحرير.

وعند عودتي مع إبراهيم طايبي من الأوراس متجهين إلى منطقة سوق اهراس نزلنا في إحدى البيوت القريبة من ثكنة أغلب جنودها من المجندين الجزائريين بمنطقة البطيحة القريبة من مدينة سوق اهراس، وأخبرنا أصحاب المنزل أن بعض المجندين في الجيش الفرنسي قرّروا الهروب الليلة والالتحاق بجيش التحرير أين يوجد محمود قنز ومحمد لخضر سيرين وجنودهما، ثم غادرنا المكان وواصلنا طريقنا إلى جبل بني صالح مركز منطقة سوق اهراس.

كان محمد عواشرية وعبد الرحمان بن سالم وهما ضابطي صف في الجيش الفرنسي برتبة رقيب أول يحضران لعملية هروب كبيرة من الثكنة في الوقت الذي كان قائد هذه الوحدة وهو فرنسي برتبة ضابط يتغيب عن الثكنة لقضاء ليالي من السمر في سوق اهراس، واستغل الضابطين الجزائريين غيابه للفرار، وذلك بمساعدة أفراد من الشعب، ولم يكن معنيا في البداية بعملية الفرار هذه سوى أربعة عشر مجندا جزائريا، غير أن أخبار العملية انتشرت وسط بقية المجندين وأرادوا هم كذلك الفرار من الثكنة والالتحاق بجيش التحرير، وبسرعة فرت كتيبة كاملة من المجندين الجزائريين بكامل عدتهم وعتادهم بشكل فوضوي إلى الجبال، غير أن عددهم الكبير سهل عملية اكتشاف أمرهم، فأرسل الضابط الفرنسي "بيجار" في الغد قواته العسكرية المدعمة بالمظليين والطائرات الحربية والدبابات لمطاردة الفارين، وتمكنوا من اللّحاق بهم وقصفوهم بالطائرات والمدافع، فقتلوا من قتلوا وأسروا من أسروا في حين تمكن 45 منهم من الإفلات من قبضة القوات الفرنسية التي قامت بعملية واسعة النطاق لإخماد هذا "التمرد" الذي

شكل ضربة قوية للسياسة الفرنسية الساعية لاستعمال الجزائريين لقتال بعضهم البعض، ولم نكن حينها بعيدين عن المعركة التي جرت بين المظليين الفرنسيين والمجندين الجزائريين، وأخذنا نراقب سير المعركة عن بعد.

العودة إلى مركز لغرور

وعندما وصلنا إلى جبل بني صالح أين تتمركز قيادة الناحية، التقينا بالمجاهد "عبد الحميد زروالة" المدعو "عالي الناس" الكاتب العام للناحية وأخبرناه بالعملية الكبيرة التي قام بها محمد عواشرية وعبد الرحمان بن سالم لتهريب كتيبة من المجنّدين الجزائريين في الجيش الفرنسي بكامل عتادها إلى الجبال ممّا أدّى إلى تدخل قوات القائد "بيجار" المظلية على نطاق واسع للقضاء عليهم قبل أن يتمكنوا من تنظيم أنفسهم ضمن صفوف جيش التحرير فنجا من هذه العملية نحو 45 مجندا من أصل 120، وتمكن عبد الرحمان بن سالم بقيادة فوج من المجندين إلى مسقط رأسه ببوحجار في جنوب شرقي عنابة، وحدثناه عن عدم تمكننا من حضور الاجتماع وملاقاة مصطفى بن بولعيد بعد أن اعترض على ذلك الوردي قتال فأمرنا عباس لغرور بالعودة إلى المنطقة. فأبدى عالي الناس أسفه لما حدث.

فأمرنا عبد الحميد زروالة بالعودة فورا إلى مصطفى بن بولعيد وتبليغه بكل ما حدث. رغم أننا أخبرناه أن الاجتماع الذي عُقد تحت إشراف بن بولعيد قد يكون انفض قبل أن نصل إليه، إلاّ أن عبد الحميد ألح علينا بالرجوع إلى بن بولعيد وسلمنا رسالة إليه كما أعطانا خمسة ملايين فرنك لكل منا لتسليمها لشخص معين هو من سيقودنا لملاقاة بن بولعيد.

وعدنا من حيث رجعنا وأخذنا معنا دليلا وجنديا يُدعى إبراهيم دريس"، وقصدنا في الطريق دارا في منطقة "عين نشمة" لعلّنا نجد طعاما للعشاء وبغالا نركبها للوصول بأقصى سرعة إلى مصطفى بن بولعيد قبل أن ينفض الاجتماع، وتمكّن مسؤول جبهة التحرير في المنطقة من تدبر الأمر مثلما طلبنا منه تماما، وانطلقنا نطوي الأرض طيا على متن البغال. وعندما وصلنا إلى أحد الوديان أحجم البغل الذي كان يمتطيه طايبي عن

عبور الوادي وباءت كل المحاولات بالفشل، وفي لحظة غضب سحب إبراهيم المسدس من غمده وأطلق النار على البغل فأرداه قتيلا، اندهشت لهذا التصرف وغضبت أشد الغضب من ابراهيم وقلت له "أنت مجنون، وأنا لن أمشي مع المجانين".

رجعت مع إدريس إلى مسؤول جبهة التحرير الوطني في "عين نشمة" وقضيت ليلتي عنده أفكر في الأمر، وفي الصباح قرّرت اللحاق بإبراهيم طايبي لأني كنت أخشى أن لا تُتاح لي الفرصة للقاء مصطفى بن بولعيد والاطمئنان على أحوال الجماعة التي شاركت في الاجتماع (جبار عمر ومن معه)، وطلبت من مسؤول الجبهة ثانية أن يتدبر لي فرسا قويا أركبها للّحاق بزميلي، فتدبر هذا المسؤول فرسا وقال لي "إحرص عليها"؛ ركبت الفرس وانطلقت أعدو بها كالريح، فمررت على مداوروش، ثمّ على دوار "أم العظايم" مسقط رأسي نهارا وكلما وصلت إلى قرية أو دوارا إلاّ وسألت عن صاحبي والدليل الذي معه فأخبروني أنّهم رؤوا رجلين يمتطيان بغلين، فعلمت أنهما ليسا بعيدين عني فركضت بالفرس إلى أن وصلت إلى مسؤول الجبهة في أم العظايم المدعو "البحري" فأخبرني هذا الأخير أنهما مضيا قبل قليل، فواصلت طريقي وأنا أطوي الأرض طيّا إلى أن بلغت هضبة النمامشة (سطيح)، فوجدت عندهم إبراهيم وقد نزل عند أحد السكان فلما رآني ضحك وسعد للحاقي بهما بهذه السرعة.

توجهنا نحن الثلاثة (أنا وإبراهيم والدليل) إلى عباس لغرور بالجبل الأبيض بتبسة لعله يعطينا رخصة لعبور النواحي التي يُسيطر عليها قصد مقابلة مصطفى بن بولعيد وتبليغه الرسالة التي نحملها إليه، والتقينا هناك بالتيجاني وبوعكاز وسيدي حنّي ونور الدين خلادي وهم قيادات تحت مسؤولية عباس لغرور، وعلمنا حينها أن اجتماع قيادات الأوراس الذي عُقد بحضور مصطفى بن بولعيد قد انفض، وأنّ جماعة جبار عمر هم الآن في طريق العودة إلى ناحية سوق اهراس، في حين زار الوردي قتال ومعه العيفة وعبد الوهاب عثماني عباس لغرور للاطمئنان على صحته بعد الجراح، وسلمنا العيفة رسالتين من مصطفى بن بولعيد، واحدة لي والأخرى لإبراهيم.

الفصل الثامن

استشهاد مصطفى بن بولعيد

بن بولعيد يستشهد في ظروف غامضة

حسبما رواه لي موسى حواسنية فقد فاجأت عودة مصطفى بن بولعيد إلى مركز قيادة منطقة الأوراس عاجل عجول الذي آلت إليه قيادة المنطقة عمليّا بعد إعدام شيهاني بشير نائب بن بولعيد، وما زاد في تعميق الهوة بين الرجلين هو تحميل بن بولعيد عجول مسؤولية قتله رفقة عدد آخر من المجاهدين بسبب أخطاء لا يرى بن بولعيد أنها تستحق عقوبة الموت، فلام عجول كثيرا على هذا الأمر وقال له: "تستقل الجزائر ولن نجد خمسة رجال مثله"، فقد كان شيهاني رجلا مثقفا في زمن طغى فيه الجهل والأميّة، ولم يستسغ عجول هذا التأنيب الذي أحرجه بأسئلة تحمل في طياتها لوما شديدا له رغم أن عباس لغرور هو الذي أعدم شيهاني بعدما ثبت أمامه بالدليل القاطع والشهود ارتكاب شيهاني لتجاوزات أخلاقية لا علاج منها سوى الإعدام ـ حسب ما رواه لي مجموعة من محيط عجول ـ مهما بلغ وزن صاحبها طبقا لما تنص عليه القوانين الداخلية للثورة.

ولم يُبد عجول كبير ترحاب بنجاة بن بولعيد من الأسر وفراره من السّجن، بل شكّك في صحة هروبه فعلا من سجن الكُدية الحصين، وهو ما أكده لي الحاج لخضر فيما بعد فقال لي "في إحدى المرّات كنت أتظلّل أنا وسي مصطفى تحت جذع شجرة متكئين على جذعها، فتنهد سي مصطفى، فقلت له: سي مصطفى.. هل أنت بخير.. ماذا هناك؟ فقال لي "أتعلم ماذا قال لي عجول؟ النظام (الثورة) ستة أشهر لن يضع فيك الثقة"، وهذه الكلمات فاجأت بن بولعيد وأثارت حفيظته وأزعجته كثيرا.

كما أخبرني محمود الواعي ـ الذي كان كاتب أحمد نواورة ـ أنّ عجول أرسل إليه رسالة كتب له فيها "لا تثقوا في الجماعة التي هربت من سجن فرنسا، لأنه ليس كرتونا حتى يخرجوا منه..."

وأثار عجول قضية عمر بن بولعيد الشقيق الأكبر لمصطفى بن بولعيد الذي انفرد بقيادة ناحية من نواحي المنطقة الأولى، ونصّب نفسه قائدا للمنطقة في غياب أخيه ولم يعترف بعجول ولغرور كقائدين للأوراس،

فردّ عليه سي مصطفى: "سأستدعي عمر وإن ثبتت عليه التُهم التي وجّهتها إليه فأنا من سينفذ حكم الموت عليه بيدي"، واستدعى سي مصطفى شقيقه بعد تجريده من المسؤولية.

ولم يكن عجول ينظر بعين الرضا إلى الوفود التي كانت تزور مصطفى بن بولعيد رمز الثورة وتُهنّئه على النجاة وتُعلن له الولاء والطاعة، متجاوزة إياه، ولم يكن يمر يوم على سي مصطفى إلاّ ويجتمع مع هؤلاء وهؤلاء لإعادة تنظيم منطقة الأوراس التي نخرتها الانقسامات بفعل الصراعات الشخصية والفراغ الذي تركه غيابه ونائبه شيهاني، وتمكّن بن بولعيد في فترة قصيرة من حل العديد من الخلافات والصّراعات وإعادة لُحمة منطقة الأوراس، فقد كان يحظى بثقة قيادات الثورة في الداخل والخارج فضلا عن مجاهدي الأوراس الذين يدينون له بالولاء.

وفي 22 مارس 1956 استشهد البطل مصطفى بن بولعيد في ظروف غامضة عند انفجار جهاز إشارة (إرسال واستقبال) مفخخ بإحدى الكازمات ومعه عدد من المجاهدين، ولم ينج منهم إلا اثنين أحدهم يُدعى علي بن شايبة، وهذا رغم أنّ بن بولعيد حرص في كلّ مرة على غرار ما أوصانا به قبل الهروب من السّجن بعدم لمس الأشياء المشبوهة حتى ولو كانت قلما علّها تكون مفخخة، ومن الغريب أن يستشهد بطريقة لطالما حذّر إخوانه منها، ممّا يُوحي بأنّ هناك مؤامرة دبّرت بليل ضدّ مصطفى بن بولعيد، ولكن يبقى التساؤل من خطّط لهذه المؤامرة ؟

وحسبما سمعته من بعض المجاهدين فإنّ الجهاز المفخخ الذي أدّى إلى استشهاد مصطفى بن بولعيد تركته فرقة للجيش الفرنسي بمكان غير بعيد عن مركز قيادة الأوراس، وعند مغادرتها للمكان عثر المجاهدون على الجهاز فحملوه إلى مصطفى بن بولعيد الذي أراد تشغيله فانفجر الجهاز ممّا أدّى إلى استشهاده ويستدل أصحاب هذه الرواية باعترافات بعض جنرالات فرنسا في مذكراتهم بأنهم هم من خطّط وفخخ الجهاز الذي أدى إلى استشهاد قائد الولاية الأولى، غير أن هذه الرواية تبدو غريبة إذا قسنا ذلك بالحذر الذي ميّز بن بولعيد في التعامل مع الأشياء التي يخلّفها جيش

الاحتلال، إذ كيف يقوم بن بولعيد بتشغيل جهاز دون التحقق منه إلا إذا كان واثقا من سلامته من المتفجرات بناء على تطمينات من معه؟ إذ آن بن بولعيد خلال اجتماع قادة الأوراس حذرهم قائلا "الثورة في خطر. وسنعمل على تصحيحها" فسي مصطفى كان متخوفا من أثر الدعايات التي كان يطلقها عجول ضده من خلال مراسلات لبعض القادة بعدم الثقة في الفارين من السجن.

وما يؤكد حرص بن بولعيد ما رواه لي موسى حواسنية الذي كان في مركز بن بولعيد قبيل استشهاده، حيث تحصل المجاهدون خلال كمين نصبوه لفرقة لجيش الاحتلال على جهاز إشارة وغنموا منها بعض قطع السلاح، وعندما أحضر المجاهدون جهاز الإشارة الصغير هذا قال لهم سي مصطفى: بمعنى "ضعوا جهاز الإشارة هذا جانبا حتى يفحصه خبير في المتفجرات لعل فيه لغم"، وتؤكد هذه الحادثة الحرص الشديد لبن بولعيد على عدم استعمال أي جهاز يأتي من العدو حتى ولو غنموه في المعارك، لذلك يبدو الأمر غامضا عندما ينفجر جهاز إشارة كبير يستعمل في الاتصالات الدولية في كازمة لقائد الولاية، خلّفه عساكر العدو في إحدى تنقلاتهم!!

عجول يفرض سيطرته على الأوراس

تعمدت قيادة الأوراس إخفاء خبر استشهاد مصطفى بن بولعيد حتى لا تثبط معنويات المجاهدين وحتى تحافظ على تماسكهم، ولا تعطي فرصة للدعاية الفرنسية لتحريك خناجرها المسمومة في جرح الأوراس، غير أن اختفاء مصطفى بن بولعيد لم يمر دون أن يترك تساؤلات عدة لم تجد لها جوابا شافيا، وهو ما دفع زيغود يوسف إلى إرسال مبعوثين إلى مصطفى بن بولعيد وتسليمه رسالة شخصية إليه.

وصل مبعوثي زيغود إلى مركز عباس لغرور في مكان يدعى "راس العش" على أن يواصلا طريقهما إلى مركز بن بولعيد فاستقبلهما لغرور وطلب منهما تسليمه الرسائل لإيصالها لمصطفى بن بولعيد، فرفضا وأكدا له أن

زيغود أوصاهما بتسليم الرسائل إلى سي مصطفى يدا بيد، فغضبت حاشية عباس لغرور من رد الرسولين وصاح فيهما أحدهم قائلا "كيف ترفضون إعطاء الرسالة للقيادة؟!"، فأصر الرسولين على موقفهما وقالا "هذه هي الأوامر فإن شئتم قتلنا وأخذ الرسالة فهذا شأنكم".

أما ما كان من أمري وإبراهيم طايبي فقد قضينا ليلتنا مع جيش عباس لغرور بالجبل الأبيض بالقرب من تبسة، وفي الغد وفي منتصف الطريق جاءنا جندي وقال لي "الشيخ يقول لك تعال" وكان يقصد بالشيخ عباس لغرور، فذهبت إليه فوجدته جالسا لوحده في كازما، فقال لي عباس "سي الطاهر ستبقى هنا مع تجاني عثماني لتتولى قيادة الفاص (المنطقة) الذي كان فيه علي كربادو (خائن سلم نفسه للعدو)"، لكني اعتذرت عن قبول هذه المسؤولية قبل مقابلة مصطفى بن بولعيد، فصمت لغرور وصمت معه، وساد صمت رهيب، كسرته بالانصراف من عنده، ورغم أن قوانين الثورة تمنع أي مجاهد من رفض المسؤولية التي يكلف بها كما تمنعه من طلبها أو المطالبة بها، إلا أن عباس لغرور كان حكيما فلم يعاقبني لرفضي قيادة ناحية في الأوراس. وأخبرت إبراهيم طايبي بما دار بيني وبين عباس لغرور من حديث مقتضب، وشعرنا خلال مُكوثنا بهذا المركز بعدم الاطمئنان وأحسسنا بوجود أمر مريب في المركز.

محمد العيفة كان رفقة الوردي قتال وعبد الوهاب عثماني وعمر البوقصي، حين كَلَّف لغرور عمار دونه ليكون في اللّجنه المشكلة للتحقيق في قضية جبار عمر، وبعد عودتهم من اجتماع قيادة الأوراس تركوا جبار عمر وحواسنية ونواورية في انتظارهم في الطريق، وقد بدا محمد العيفة الذي أرسله بن بولعيد حاملا معه رسائل إلي وإلى وإبراهيم طايبي مضطربا على غير العادة، واكتشفت فيما بعد أن مصطفى بن بولعيد قد استشهد في ظُروف غامضة. غير أنّ العيفة أخفى عنا الحقيقة التي بقيت فترة ليست بالقصيرة محصورة لدى فئة ضيقة من قادة الأوراس.

وجاء في رسالة مصطفى بن بولعيد إليَّ وإلى إبراهيم طايبي بالفرنسية: "أهنِّئكما على النجاة والحمد لله أنّنا عدنا إلى جيشنا، وقد

كلّمني صديقاكما جبار عمر وموسى حواسنية عنكما وإنشاء الله سيكون لقاؤنا عما قريب".

وقبل ذلك غادر عبّاس لغرور مركزه في الجبل الأبيض قاصدا مركز المنطقة على أساس مقابلة سي مصطفى وعجول وأخذني وإبراهيم طايبي معه بالإضافة إلى رسولي زيغود يوسف ومعه نحو 150 جنديا، وسرنا إلى منطقة بالقرب من قرية "راس العش" التي تتمركز بها ثكنة للجيش الفرنسي، فأرسل لغرور إلى قائد الثكنة يخبره بتواجده بالقرب منهم ويتحداه في مواجهة لكن الضابط العساكر الفرنسيون لم يغادروا ثكنتهم، في حين قضى المجاهدون ليلتهم تلك في راس العش وفي منتصف نهار الغد شددنا الرحال نحو الخناق الأكحل أحد مراكز جيش التحرير وقضينا فيه ليلتين، ثم مشينا بين الجبال حتى شارفنا "وادي العرب" حيث بلغنا قرية "بوتياحمت"، وتوقفنا بها للاستراحة قليلا، ثم أكملنا طريقنا إلى مركز الاتصال التابع لمركز الولاية، وتركني لغرور مع سي إبراهيم ومعنا الرسولين في مركز الاتصال ومعظم الجنود في حين ذهب هو وبعض مرافقيه لمقابلة عجول.

قضينا ليلتنا تلك في مركز الاتصال. وفي الغد أُرسل في طلب رسول زيغود ويُدعى "علي"، وفي اليوم الموالي استدعوا الرسول الثاني ويدعى "عثمان"، بينما غادر إبراهيم مركز الاتصال دون أخذ إذن من أحد إلى مركز عجول، وفي اليوم الثالث مرت دورية لجيش التحرير متجهة إلى مركز عجول فتبعتها رغم أني لم أتلق إذنا بدخول مركز الولاية، ولمّا وصلت إلى هناك وجدت مجموعة من الكازمات ولمحت إبراهيم طايبي مستلقيا تحت شجرة بالقرب من باب كازمة عجول، فقصدته، فأخبرني إبراهيم أنّ عجول استدعاني وقرّر تحويلي إلى ناحية "عين ناقة" في الجنوب (ولاية بسكرة حاليا)، وقبل أن نكمل حديثنا جاءنا أحد مرافقي لغرور ويُدعى "الباهي" وقال لي " تعال.. عجول يُريد رؤيتك"، دخلت عند عجول ووجدت معه عباس لغرور والتيجاني وعلي معافي وبابانا ساعي وآخرين لم أتعرف عليهم، وقد كانوا جالسين بجنبه فصافحتهم، ثم بادرني عجول قائلا:

- سي الطاهر يجب أن ترجع كما قال لك سي عباس.

- ولكني أريد أن ألتقي مع سي مصطفى، لأنّنا تواعدنا على هذه الملاقاة قبل أن نهرب من السجن.

- سي مصطفى غير موجود.

- إذن سأنتظره حتى يعود.

- سي مصطفى غير موجود في الجزائر إطلاقا.. والنظام لا يعطيه الثقة تسعة أشهر.

وكان عجول صادقا لأن سي مصطفى استشهِد وبالتالي فهو غير موجود لا في الجزائر ولا في غيرها من البلدان، لكنيَ لم أكن حينها أتصور أن مصطفى بن بولعيد مات قبل أن نلتقي كما تعاهدنا على ذلك، وما حزّ في نفسي وفاجأني إلى حد الإحباط هو انتقاص عجول من قيمة بن بولعيد.

ولم يترك لي عجول فرصة للكلام فبادرني مجددا:

- أخرج هناك وقدم لي ملاحظة مكتوبة.

- ليس عندي ما أكتبه، كل ما لدي قلته لك شفهيا.

خرجت من مجلس عجول فوجدت إبراهيم بانتظاري وسألني على عجل "ماذا قال لك عجول؟"، فأخبرته بما دار بيننا من حديث، وجاءنا حينها الضابط المدعو "الباهي" وقال لي "تعال.. سآخذك إلى مركز الاتصال، فالجيش الفرنسي خارج، ولا بد علينا ضبط الأفواج".

مشيت رُفقة الباهي وفي الطريق طلب مني هذا الأخير أن أُسلّمه بندقيتي ليراها، وظننت أنّ الباهي أُعجب بنوعية بندقيتي التي يدعونها بـ"القارة" والتي قلما امتلكها أي مجاهد في ذلك الوقت فسلّمته إيّاها، لكنني تفاجأت عندما طلب مني الباهي هذه المرة أن أعطيه حزام الخرطوش الذي لدي، فسألته:

- لماذا؟

- لدي أمر بتجريدك من سلاحك؟

أحسست أن الأمور ليست على ما يُرام، فسلّمت الباهي حزام الخرطوش، ثم أخذني الباهي إلى مركز الاتصال، وانتظرت فيه عدة أيّام

قبل مقابلتي لعجول ثانية، والذي أوصى جنود المركز بمراقبتي طبقا لأوامر القيادة، وبقيت في هذا المركز مجردا من سلاحي في وضع نفسي قاتل مدة أسبوع وعندما قرّر عباس لغرور مغادرة مركز عجول مع جنوده المكلفين بحراستي والذين يُعدّون بالعشرات استدعى بقية الذين كانوا بانتظاره في مركز الاتصال، وكان من المفترض أن أرافقهم مُكرها وكنت في الوقت نفسه أُفكّر في كيفية الفرار والعودة إلى منطقتي في "طاورة" بسوق اهراس، وبينما كان عجول يودع عباس لغرور لمحني فقال لي "الطّاهر.. أنت ستبقى هنا، ولن تغادر"، فاسودّت السّماء في وجهي وازدادت ظُلمة بعد ظُلمة لكنّي كظمت غيظي، فلم يكن أمامي سوى الاستجابة للأوامر.

تصفية إبراهيم طايبي

لم يكن إبراهيم طايبي يرغب في الذهاب إلى "عين ناقة"، وكان يقضي الكثير من وقته مع كتّاب عجول أمثال عبد العزيز زرداني، مصطفى دُبابي، مصطفى رحيم وقارة، غير أن عجول لم يرُقه قلة انضباط إبراهيم طايبي، فقرّر معاقبته بإرساله لحفر الخنادق وبناء الكازمات وكلّف المسؤول الأول عن الأشغال في المنطقة المجاهد "زحّاف" بِضمّه إلى صفوف رجاله.

عمل إبراهيم يوما واحدا ولم يحتمل قسوة العمل، وفي تلك الليلة فر هاربا طول الليل علّه يتمكن من الوصول إلى المنطقة التي يُسيطر عليها عمر بن بولعيد غربي الأوراس لكنّه لم يكن يعرف إلى أين يتجه، حيث كان يجري كالأعمى إلى أن طلع النهار فلمح كوخا لأحد الأهالي فقصده علّه يجد عنده شيئا يأكله أو على الأقل من يدله على الطريق إلى عمر بن بولعيد، وفي أيّ منطقة هو الآن وهل هي تابعة لبن بولعيد أو لعجول ولسوء حظّه وجد في الكوخ جنودا لعجول فسألوه إن كان يملك رخصة للتحرك، فقد كان عجول لا يسمح لأي جندي بالتحرك من مكان إلى آخر إلاّ برخصة، وعندما نفى ذلك ألقوا عليه القبض وربطوا يديه بوشاح واقتادوه مباشرة إلى عجول، ولمّا وصلوا إلى المركز مرّوا بإبراهيم من أمامي وكنت مستلقيا تحت ظل شجرة

على الساعة العاشرة صباحا ودخلوا إلى كازمة عجول تاركين ابراهيم خارجا، فاقتربت منه وسألته عن حاله فقصّ علي ما وقع له، وبينما هم كذلك رجع جنود عجول واقتادوه إلى الغابة واختفى خبره منذ ذلك الحين، لكنني رأيت قشابيته وساعته عند بعض جنود عجول وتأكّدت حينها أنّ إبراهيم قُتِل. وقد أنّبني عجول لحديثي مع إبراهيم وقال لي:

- لماذا تكلمت مع هذا المجرم ؟

- عهدي به أنه مجاهد محكوم عليه بالإعدام وهرب معنا من سجن الكُدية، وإن كان قد ارتكب أي جريمة خلال مدة افتراقنا فلا علم لي بذلك.

فاستدار عجول بعنف وقال لي متوعدا:

- ...وإلا سأعتبرك مثله.

وهذا ما اعتبرته تهديدا بإعدامي إن ارتكبت أدنى خطأ.

بقيت شبه محتجز في مركز عجول مجردا من سلاحي، وكنت أحضر من حين لآخر بعض اللقاءات التي جمعت عجول مع رجاله، وهناك بدأت أتعرف على شخصيّة عجول المتسمة بالهيبة والقوة والصرامة.

الاندماج في جيش عجول

أُرسِلت مجردا من سلاحي إلى مركز الاتصال التابع لمركز عجول في "غابة فورار" بجبل كيمل، والذي كان بمثابة قاعدة متقدمة لا بد من المرور عبرها قبل الاتصال بمركز القيادة، ومن خلال مراكز الاتصال الموزعة على المناطق والنواحي يتم مراقبة تحركات العدو، بالإضافة إلى تجميع الجنود وتوزيعهم على قواعدهم.

وإلى جانب مراكز الاتصال، كان في مركز القيادة مصلحة الصحة، ومصلحة الكتابة، هذه الأخيرة كانت مهمتها الترجمة وكتابة الأوامر والمناشير الدعائية للرد على الدعاية الاستعمارية، وأحيانا تضطّر قيادة المنطقة بتكليف كاتب المنطقة بقيادة الناحية أو لتأطير هياكل الثورة.

كلّفت بالحراسة لمدة أربع ساعات في اليوم بدون سلاح رفقة مجاهد يُدعى "إسماعيل" (مازال على قيد الحياة لغاية كتابة هذه الأسطر) والذي

كان يحمل معه بندقية صيد، وكان العساكر الفرنسيون يقتربون من حين لآخر من مركز الاتصال لجس نبض المجاهدين للتعرف على أماكن تمركزهم وعددهم ومستوى تسليحهم استعدادا لتوجيه عملية عسكرية واسعة للقضاء عليهم.

وذات يوم اقترب عساكر فرنسيون يحملون معهم أربع جثث لرجال مدنيين من نواحي الصحراء ورموهم في "وادي بورومي" وأرادوا المغادرة، فأعطيت لي بندقية وقمنا بإطلاق الرصاص باتجاه العساكر الفرنسيين الذين غادروا المكان فزعين، وكأنهم لم يكونوا على استعداد للدخول في اشتباك مسلح معنا، ولم تقع أي خسائر في صفوف الطرفين، غير أن هذا الاشتباك البسيط لفت انتباه جنود عجول إلى كفاءتي القتالية عندما يجد الجد، وأثار ذلك إعجابهم وبلّغوا عجول ما جرى لنا في هذا اليوم.

قام عجول بتحويلي إلى ناحية أخرى تحت قيادة "سي عثمان" الذي سلمني بندقية وكلفني بقيادة فوج من اثني عشر مجاهدا في نواحي وادي سيد علي، وزودنا بحمار لحمل المؤونة من مراكز المؤونة التابعة للناحية، وبقيت شهرين تحت قيادة سي عثمان ثمّ إعادتي إلى مركز عجول الذي شكّل ثلاث فرق كموندوس، وأُرسلت مع مجاهد يُدعى "عبد الرحمان العمراني" لقيادة كتيبة كموندوس على مستوى "وادي العرب" غير بعيد عن مركز قيادة الولاية، وكنت حينها موضوعا تحت الاختبار، لكن لم يطُل الأمر حتى بعث عجول العمراني إلى "جبل طامزة" بنواحي خنشلة نظرا لشخصيته المنفعلة، فأصبحت المسؤول الأول عن هذا الكموندوس فقمت بتقسيمه إلى ثلاث فرق كل فرقة فيها نحو 35 جنديا، وعين عجول سي مبروك البادسي نائبا لي.

على طول وادي العرب كانت مراكز العدو منتشرة في تبعليين، تيزداييين، خيران، الولجة، بوياحمت، خنقة سيدي ناجي، وزريبة حامد وأحيانا كانت قوات العدو تقترب من مراكز جيش التحرير لجس النبض، في حين نُراقبهم عن بُعد، ثم نتربص بهم إلى حين وصولهم إلى مرمى نيراننا فنرجمهم برصاص كاللهب، وفي نفس الوقت نُرسل جنديا إلى مركز

الاتصال لتنبيه القيادة بأنّ الجيش الفرنسي يقوم بهجوم على مراكز المجاهدين، ونحدد حجم قوات العدو والجهة التي هاجم منها حتى تأخذ القيادة احتياطاتها.

وكان الكموندوس الذي أقوده يملك بندقية رشاشة (تسمى 24. 29) ذات خزّان رصاص يحتوي على 32 رصاصة، ويستعمل هذا السلاح جنديان الأول يقوم بإطلاق النار، والثاني يملأ الخزنات بالرصاص، ووضعت حول قطعة السلاح هذه فرقة كاملة حتى لا تقع في يد العدو خلال الاشتباكات، وأمرتهم بأن لا يُغادروا مواقعهم، ومع ذلك كان البعض منهم يتحركون من مكان إلى آخر أثناء الاشتباك فأنادي عليهم بالرجوع إلى مواقعهم وعدم تركها مهما اشتدّ القتال، ولم تصل هذه المناوشات إلى حد المواجهة الواسعة لكنّها أعطت صورة للعدو عن مدى متانة وصلابة المجاهدين المرابطين في الخطوط الأولى للمواجهة ، وقد شاركت في اشتباكين من هذا النوع كان أحدهم بالقرب من قرية خيران المليئة بالعساكر الفرنسيين.

غير أن بعض الجنود من أبناء عمومة عجول ادّعوا أنني أسعى للاستيلاء على البندقية الرشاشة من نوع "برن" انجليزية الصنع، وتسليم نفسي للفرنسيين، فقام عجّول بتحويلي من مركز إلى مركز ومن مهمة إلى أخرى، وبلغني خبر الوشاية التي دسّها بعض الجنود في أذن عجول، وفهمت سرّ إبعادي في كل مرة من كوموندوس إلى آخر، فأصبحت خائفا من أن يتم تصفيتي غدرا بعد تلفيق تُهمة الخيانة لي، رغم أنّه كان محكوما علي بالإعدام مثل بن بولعيد، وليس لي من ملجأ بعد الثورة سوى الشهادة، لكن المؤامرات والدسائس كثرت فأصبحت لا آمن على نفسي من القتل غدرا على يد عجول وأعوانه.

معركة خنقة سيدي ناجي

وصلت أخبار إلى قيادة الولاية عن تحرك قوات كبيرة من العساكر الفرنسيين من مركز "خنقة سيدي ناجي" وتوجّهوا إلى حيث يُوجد بعض المدنيين الهاربين الذين كنا ندعوهم "باللاّجئين"، وهم من أبناء الشعب

الفارين إلى الجبال وغير المنضبطين في وحدات جيش التحرير، وكان الجيش الفرنسي يسعى من خلال هذه العملية لحرق أكواخ اللاجئين وإجبارهم على العيش في محتشدات، لعزلهم عن جيش التحرير، وحرمان هذا الأخير من الدعم اللوجيستيكي الذي يوفره لنا الأهالي، ولم يكن هؤلاء الأهالي يحتملون العيش في تجمعات ضيقة بعد أن ألفوا العيش في أكواخ متباعدة.

أمرني سي عثمان زحاف أن أُحضر فرقة من الفرق الثلاث التي تحت قيادتي لضمها إلى بقية الفرق العسكرية التي شرع في تجميعها تحت قيادته وشكّلنا أكثر من كتيبة، وعندما هجم فيلق من الجيش الفرنسي على هذه المناطق تمكّن اللاّجئون من اكتشاف أمر هذه القوات الزاحفة عبر الحراسة التي كانت تُوضع بالمناوبة، فهرب اللاجئون وتواروا في الشعاب هم وأبناؤهم ونساؤهم وحيواناتهم، بعدما أبلغوا جيش التحرير بأمر القوات الفرنسية المهاجمة، والتي بدأت بقصف أكواخ اللاجئين ثم دخلت في اشتباكات حامية الوطيس مع جيش التحرير دامت ساعة من الزمن، اختلفت تماما مع تلك المناوشات التي وقعت من قبل، حيث سقط قتلى وجرحى من الجانبين.

وتراجعت القوات الفرنسية منسحبة من ميدان المعركة بعد اعتقالها لبعض المدنيين بعدما أحرقت أكواخهم البائسة لإجبارهم على الإقامة في المحتشدات التي شيّدتها في القرى المحكمة الحراسة، لفصل الشعب عن جيش التحرير الوطني، وتطبيق سياسة عزل السمكة عن البحر، بمعنى أن جيش التحرير إذا فُصل عن الشعب فإنّه لا يستطيع المقاومة طويلا لأنه سيفقد الدعم اللوجيستيكي الذي يوفره له السكان سواء بالنسبة للغذاء واللباس أو بالنسبة للمعلومات عن العدو وعُملائه.

أزمة النمامشة

وفي جويلية 1956 اعترض لزهر شرايطي زعيم نمامشة على قيادة عجول للولاية الأولى فأرسل شرايطي في طلب الوردي قتال ورجاله من سوق اهراس وقال له "عجول يريد الفتك بنا"، فعقد الوردي قتال اجتماعا

لمجاهدي سوق اهراس وأخذ جنود الوردي أجود الأسلحة التي لدى مجاهدي الناحية، ثم التحق قتال ومن معه بلزهر شرايطي زعيم النمامشة وقاموا بمحاصرة عباس لغرور في جبال النمامشة. فجمع عجول نحو 150 رجلا ذهب بهم لنجدة لغرور ومن معه، وقادهم بنفسه، واقتحم ميدان المعركة التي دامت يومين أو أكثر وغاب عجول عن مركز الولاية أكثر من أسبوعين وتحدث عجول مع عبّاس حول بعض التمردات التي تفجرت في المنطقة السادسة وحول التزود بالسلاح والاتصال "بعبد الحي" مندوب الثورة في تونس.

مغامرة الفرار من معسكر عجول

واجه عجول عدة مشاكل للسيطرة على منطقة الأوراس وأدت صرامته الشديدة إلى هروب العديد من الجنود من مراكزه إلى مراكز خصومه في المنطقتين الأولى والسادسة والذين رفضوا الاعتراف به كخليفة لمصطفى بن بولعيد، ولوقف هذا النزيف البشري وضع عجول نظاما يقضي بمنع أي جندي من التحرك من منطقة إلى أخرى إلا برخصة.

وأردت الهروب من معسكر عجول بعدما أصبحت مهددا بالقتل غدرا، كما أني رغبت في الالتحاق بإخواني في منطقة سوق اهراس، والتقيت مع مجاهدين تونسيين أحدهما يسمى "بوجمعة" والآخر يسمى "علي"، فسألتهما عن سبب وجودهما وسط وحدات جيش التحرير فقالا لي "جئنا من تونس مع أحد المجاهدين الجزائريين الذي قاد قافلة جمال محملة بالسلاح من ليبيا إلى الأوراس، وعندما طلبنا العودة إلى تونس لم يرد عجول على طلبنا بالإيجاب، ونحن نخشى إن غادرنا هذا المكان بدون رخصة أن نعاقب عقابا شديدا"، ووجدت نفسي مشتركا معهم في نفس الهم وكان معنا شخص رابع من جماعة محمود قنز يُدعى "الخميسي"، وأبدى التونسيان رغبة في الهروب من مركز عجول وهو نفس ما كان يدور في خلدي، فاتفقنا على خطة للمغادرة رغم علمنا بخطورة هذا الأمر لأنه يعتبر بمثابة تمرد وقد نلقى نفس مصير إبراهيم طايبي إنّ ألقي علينا القبض.

وفي إحدى العمليات ضد الجيش الفرنسي تأخرت مع إخواني الثلاثة عن بقية المجاهدين الذين عادوا إلى المركز، بينما انسللنا هاربين باتجاه "خنقة سيدي ناجي" ولم أنس أن أحمل معي ختم الكموندوس الذي كنت أقوده لاستعماله إذا ما طلب مني جنود عجول رخصة التنقل.

مشينا إلى أن غربت علينا الشمس فوصلنا إلى مكان يُسمى "زريبة حامد" وقصدنا بيت رجل يُدعى "مبروك"، اعتاد رجال عجول إحضار المؤونة من عنده، فطلبت من صاحب الدار أن يُهيِّئ لنا مكانا نرتاح فيه، وأخبرناه أننا في مهمة خاصة. فقدم لنا العشاء وأعدّ لنا مكانا للنوم، لم أستطع النوم في تلك الليلة فالكوابيس كانت تطارد أحلامي وصورة عجول الذي أمر بقتل طايبي لا تكاد تفارقني، وفي الصباح تناولنا القهوة مع الكسرة، ثم طلبنا منه أن يتدبر لنا ثلاثة بغال لنركبها ويحضر لنا زادا، فجاءنا ببغلين وحصان، وأعطانا أرغفة من الكسرة فامتطينا صهوتها وانطلقنا باتجاه الصحراء لنتجنب جنود عجول ونتمكن من معرفة الطريق وحتى لا نضيع في الجبال والغابات التي ينتشر بها الجنود.

وفي حدود الساعة العاشرة علا في السّماء صوت أزيز طائرة حربية فرنسية صفراء اللّون من نوع "لوران"، فخبأنا دوابنا واختبأنا تحت جذع شجرة، إلى أن مرت الطائرة علينا بسلام دون أن يلحظ قائدها وجودنا، فواصلنا طريقنا باتجاه "قرية بودخان"، وخيمنا تلك الليلة في إحدى الشعاب ولم يبق لدينا من الزاد سوى قليل من القهوة و الكسرة التي زوّدنا به أحد السكان.

جماعة الوهراني

وواصلنا سيرنا وجنحنا نحو الشمال (جنوب جبال النمامشة)، نصعد وننزل من التلال العالية إلى الوديان والشعاب ونحن لا ندري إلى أين ستقودنا هذه الطريق في تلك الليلة المظلمة التي بدت بلا نهاية، ونحن نخشى الوقوع بين يدي رجال عجول، وبعد أن نفذ منا الزاد، اشتد علينا العطش ولقينا من سفرنا نصبا، بلغنا منطقة في نواحي

"العقلة" فجر اليوم الموالي، فوجدنا نبع ماء شربنا منه حتى ارتوينا، كما اكتشفنا أن جيش الاحتلال كان بالأمس في نفس المكان بدليل بقايا السجائر المنتشرة في الأرض والتي تحتفظ بقليل من الحرارة، ولحسن حظنا وجدنا أيضا بقايا من الخبز والجبن فأكلنا ما وجدناه، وارتحنا بالقرب من هذا النبع إلى أن طلعت الشمس، وبينما نحن كذلك إذ قصد النبع أحد السكان في تلك المنطقة الخالية، فطلبنا منه أن يحضر لنا رغيفا من الكسرة، فقال لنا "أنا ذاهب لإحضار ذاك الباب" وأشار إلى قرية مهجورة بالقرب من نبع الماء أحرقها جيش الاحتلال وغادرها أهلها، وأضاف: "بيتي غير بعيد من هنا"، وأشار إلى دار تبعد أقل من كيلومتر عنا وطلب منا أن نقصدها وننتظره بالقرب من الدار إلى أن يأتينا.

وجاءنا ببرنوسين وأدخلنا إلى البيت مشى مثنى حتى لا يثير لباسنا العسكري فضول الناس، وقدّم لنا الغداء فأكلنا وارتحنا قليلا من وعثاء السفر، وفجأة دخل علينا ثلاثة مجاهدين بعد أن أخبرهم صاحب الدار بأمرنا، وكان أحدهم يَدَّعي أنه محافظ سياسي، إذ كان هناك مركز لجيش التحرير بمنطقة "كاف الرومي" بقيادة "أحمد الوهراني"، فطلبوا منا استظهار الرخصة، ومرافقتهم إلى مسؤول المركز، وخشيت أن يكونوا من جماعة "عجول" ولكنّني مع ذلك لم أسألهم إلى أي فريق يوالون حتى لا ينكشف أمرنا، وقلت لهم بعد أن استظهرت الرخصة المزورة "نحن ذاهبون في مهمة مستعجلة"، لكنّ جنود الوهراني أصرّوا على ذهابنا معهم إلى المسؤول فوضعت الرخصة فوق صخرة ووضعت عليها حجرة بعد أن رفض جنود "الوهراني" استلام الرخصة، ولم يكن بإمكانهم إجبارنا على مرافقتهم لأننا أحسن تسليحا منهم، إذ أنني كنت وأحد التونسيين نحمل بندقيتين آليتين من نوع "فيزي ماص36"، وآخر يحمل بندقية "ستاتي"، والرابع يحمل معه بندقية من نوع "موسكوتن 86" فرنسية الصنع، بينما جنود "الوهراني" لم يكونوا يحملون معهم سوى بنادق صيد.

جيش النمامشة.. واقتراب الفرج

خرجنا وغادرنا المكان مع الظهيرة تاركين جنود "الوهراني" في حيرة من أمرهم، وواصلنا مسيرنا ركضا، خوفا من أن يلحق بنا، إلى أن اقتربنا من خيم البدو الرحل فأكرمونا وأعطونا أرغفة من الكسرة وبغلين ثم سلكنا طريقا ترابيا ليلا، وصادفنا في الطريق خيما أخرى للصيافة (البدو الرحل)، فنزولنا من فوق صهوة البغال والكلاب تنبح علينا وسألنا أصحاب الخيمة:

- إلى أين يُؤدي هذا المسلك؟
- إلى الشريعة، وأنتم على مشارفها.

ففزعنا لإجابته لأن مدينة الشريعة تحتوي على ثكنة كبيرة للجيش الفرنسي، فولينا عائدين وسلكنا طريقا آخر على اليسار، ومشينا إلى أن طلع علينا النهار فصادفنا خيمة أخرى للبدو الرحل في أقاليم "النمامشة"، فتركنا عندهم البغلين ليرعيا مع حيواناتهم بينما جلسنا في جناح بإحدى الخيم لنرتاح قليلا.

بلّغ صاحب الخيمة المجاهدين في تلك الجهة عن ضيوفه الغرباء، فجاء عشرة مجاهدين إلى الخيمة ليجدونا متكئين، فبادرونا بالسلام وسارعت هذه المرة بالسؤال:

- إلى أي جيش تنتمون؟
- نحن من جيش لزهر شرايطي والوردي قتال، والزين بوقرفوف.
- نحن كنا عند عجول.
- عجول لو يقع بين أيدينا فسنقتله.

وقصصنا عليهم حكايتنا مع عجول وكيف هربنا من مركزه إلى أن وصلنا إلى هذا المكان، فأخذونا معهم إلى مركزهم على متن الأحصنة والبغال ولم يكن مركزهم بعيدا عن الخيمة، ووجدنا نحو كتيبة من المجاهدين بهذا المركز، وتعرفت هناك على الملازم الثاني امحمد بعلوج الذي يقرب العربي بعلوج الذي أنقذ حياة جبار عمر وموسى حواسنية من جنود "الوردي قتال"، والتقيت الزين بوقرفوف الذي كان رفيق الوردي قتال في سوق اهراس

وأخبرني الزين أنّ الوردي قتال ولزهر شرايطي في طريقهم إلى تونس، كما حدّثني عن صهري موسى حواسنية الذي كان عندهم في المنطقة السادسة. قبل أن يعود إلى ناحية سوق اهراس، وعلمت فيما بعد أنّ الوردي قتال أحضر معه إلى النمامشة كلا من محمود قنز وعبد الله بلهوشات، ثم أطلق سراحهم بسرعة وكلّفوا محمود قنز أن يُخرج السبتي بومعراف قائد ناحية أولاد سيدي يحيى من بوخضرة وضواحيها وأن يتولى القيادة مكانه خاصة وأن محمود من عرش "أولاد سيدي يحيى".

وتحدثنا مع مقاتلي النمامشة عمّا عانيناه طوال الطريق، وكشفنا لهم عن رغبتنا في العودة إلى مناطقنا، وأخبرنا بوقرقوف أن دورية متجهة إلى الحدود بإمكان المجاهدين التونسيين مرافقتها إلى هناك، أمّا أنا والخميسي فسلّمنا رسالة وقال لنا "منطقة سوق اهراس حدثت فيها مشاكل (الخلاف بين جبار عمر والوردي قتال)، ولكنّنا ما زلنا مجاهدين ونحن على استعداد لمساعدتكم ومعاونتكم بالسلاح، وخذ هذه الرسالة إلى المسؤولين هناك".

في هذه الفترة وبعد إعدام جبار عمر وعودة الوردي قتال إلى منطقة النمامشة، أصبحت منطقة سوق اهراس بلا قيادة واحدة فتولى كل من عبد الله بلهوشات ومحمود قنز وموسى حواسنية والسبتي بومعراف قيادة نواحي من هذه المنطقة.

في الغد أخذت الرسالة وذهبت مع الخميسي إلى سوق اهراس. فالطريق إلى هناك لم تعد صعبة بعدما دلتني جماعة الزين وبعلوج على الطريق الذي سنسلكه للوصول إلى هناك دون أن نخشى مصادفة رجال عجول، وسرنا إلى أن وصلا إلى جنوب "مسكانة" فدلنا أحد السكان على مركز جماعة محمود قنز، حيث قصد الخميسي هذا المركز بينما واصلت المسير وحيدا في ظلمة الليل، إلى أن وصلت أخيرا إلى نواحي "الونزة" بعد يومين وليلة من المسير من مركز "الزين بوقرفوف".

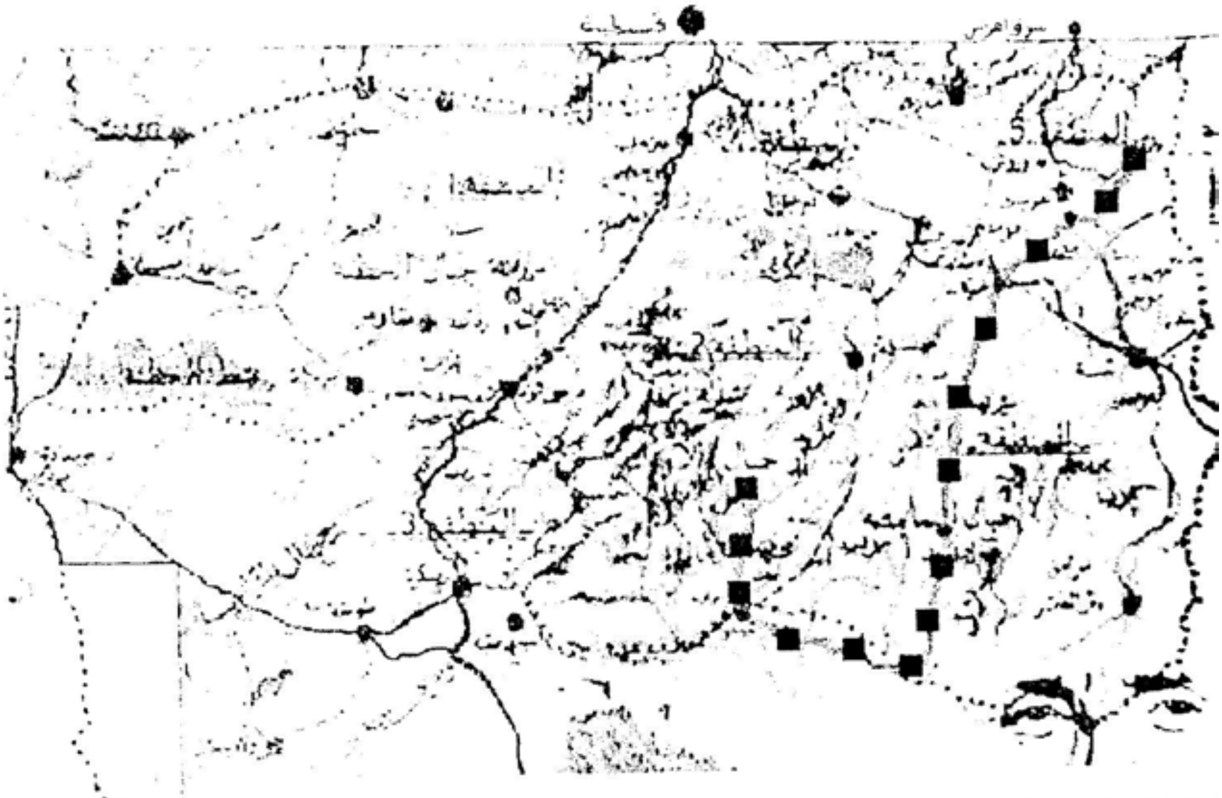

■—■ الطريق الذي سلكه الطاهر الزبيري وأصحابه للفرار من مركز عنقول سجبل شمال ابي الونزة

سألت أحد السكان عن جيش جبار عمر فأخبرني أن هذا الأخير قد مات، وأن أقرب جيش في المنطقة هو جيش عبد الله بلهوشات المتمركز غربي الونزة، فاتجهت لمقابلته، أين سلّمته رسالة قادة النمامشة والتي أعربوا له فيها عن استعدادهم لمساعدتهم بالسلاح كما في السابق، ومواصلة الجهاد. ثم قصصت عليه ما جرى لي من أحداث ومغامرات كادت تودي بي في كل مرة إلى الموت المحقّق، لولا أنّ الأقدار شاءت غير ذلك، وأُعجب بلهوشات بما سمع، وعندما سألت عن حمدي والسبتي بومعراف والأصناب قادة جيش جبار عمر أخبروني أنّهم جميعا في الحدود وهم ينسقون مع عمارة بوقلاز بما فيهم شقيقي بلقاسم لتشكيل ولاية جديدة من سوق اهراس والقالة و عنابة، وطلب بلهوشات مني الالتحاق بالحدود للنظر فيما سيفعلونه، ومُرافقة إحدى الدوريات التي كانت متجهة إلى هناك، لكنّه طلب مني ترك بندقيتي عنده وسلّمني مسدسا بالمقابل.

غادرت مركز بلهوشات للالتحاق بمركز الاتصال والعبور للشيخ "امحمد" على الحدود التونسية، إذ أنني - وباستثناء شقيقي بلقاسم الذي زارني في الجبل وقبلها في المحكمة - لم أر أيّا من أفراد عائلتي خاصة والدتي "جمعة"، وزوجتي مبروكة وابنتي البكر زهرة التي ولدت في ديسمبر 1954 والتي لم أُمتع نظري بها قط، وكان شقيقي بلقاسم خلال هذه الفترة يبحث عني ويتقصّى أخباري وأراد أن يذهب إلى مؤتمر الصومام عله يلتقي قادة الأوراس ويسألهم عني لكنّه مُنع من الذهاب إلى هناك.

لقاء الأهل في تونس

حالة يُرثى لها كنت عليها عندما توجهت إلى الحدود التونسية في سبتمبر 1956 لزيارة أهلي، فالتعب والإرهاق زادهما المرض والأرق اللذين أنهكا جسدي المثقل بالهموم، وصار لباسي رثًا وممزّقا ومتسخا، وغزا القمل جسمي، فوجدت أنه من حق نفسي علي أن أمنحها استراحة محارب لأسترجع بعض أنفاسي، فمسيرة التحرير ما زالت طويلة ولا بد لها المزيد من التضحيات قبل الوصول إلى الهدف.

سبقتني أخباري إلى تونس وعلم شقيقي الأكبر بلقاسم أني على قيد الحياة وأني في طريقي إليهم، فخشي على والدتي صدمة الفرحة وهي التي احترق فؤادها لفراقي خاصة بعد أن انقطعت أخباري عنهم وظن البعض أنني استشهدت، فلم يخبر بلقاسم والدتي بأني قادم إليهم، بل أخبرها بأني على قيد الحياة وأني بخير، ثم أخبرها بأني في الونزة وبعدها أني قريب منهم حتى تتلقى والدتي خبر عودتي بشكل متدرج.

عندما وصلت إلى الحدود ولم يعد يفصلني عن التراب التونسي سوى واد صغير، قصدت مسؤولا تونسيا يُدعى "الشيخ امحمد" مسؤول مركز عبور يقع على بعد كيلومترين داخل التراب التونسي، فقضيت ليلتي عنده، وفي الغد ركبت سيارة أجرة إلى مدينة "تاجروين" وسمع شقيقي بلقاسم بقدومي وكان حينها في مدينة الكاف فجاء إلي وكان اللقاء مؤثرا تعجز الكلمات عن وصفه، فما أروع أن تجد صدرا يحتضنك بكل ذلك الدفء والمحبة بعد شهور من البعد والوحشة والعذاب.

ومن مدينة الكاف واصلنا طريقنا إلى مدينة تونس، واجتمعت العائلة الكبيرة وهي لا تكاد تصدق أني عدت من جحيم المعارك حيّا أرزق، ولا تسل أحدا عن حجم تلك الفرحة التي اختلطت فيها الزغاريد بالدموع. واحتضنت أمّي وابنتي الزهرة بحرارة علّني أطفئ نار الوحشة ولوعة الشوق اللتان اكتويت بهما قرابة السنتين، وحضرت هذه اللحظات المؤثرة زوجتي و شقيقتها زوجة موسى حواسنية، وزوجتي شقيقي بلقاسم والسّعيد، حيث كان هذا الأخير مجاهدا ضمن كموندوس على الحدود التونسية بقيادة شقيقي بلقاسم، ولم ألتق حينها بالسّعيد لكنّي التقيت فيما بعد بشقيقي الأصغر صالح الذي كان مجاهدا ضمن وحدة لخضر سرين على الحدود واستشهد فيما بعد.

جماعة عبد الحي تحاول توقيفي

أقمت في تونس مع عائلتي عشرة أيام، استعدت فيها صحتي ونشاطي، وكنت من حين لآخر أخرج للتجول في شوارع العاصمة تونس وما لفت انتباهي كثرة الجزائريين المقيمين بشارع "باب المنارة"، وفي إحدى المرات وبينما كنت أتجول في هذا الشارع إذا بسيارة من نوع "بيجو 203" تتوقف بالقرب مني وكانت تُقّل أربعة أفراد، وطلب مني أحدهم الركوب معهم وقال لي "تروح معانا للإدارة، عند الشيخ عبد الحي"، فقلت لهم "إذهبوا إلى حال سبيلكم فالإدارة أعرفها بنفسي"، لكنّهم تماطلوا في المغادرة، فوضعت يدي على المسدس فانصرفوا دون أن يمسوني بأذى.

كانت تونس حينها قد تحصلت على الاستقلال ولكن ساحتها السياسية كانت تغلي بالأحداث بسبب الخلاف الذي نشب بين الزعيمين صالح بن يوسف والحبيب بورقيبة حول مواصلة الكفاح المسلح مع الجزائر والمغرب إلى غاية استقلال بلدان الشمال الإفريقي أو القبول بالاستقلال الداخلي واتباع سياسة "خذ وطالب" والتي تبناها بورقيبة، ورغم محاولة صالح بن يوسف إعادة تنظيم صفوف المجاهدين التونسيين إلاّ أنّ بورقيبة تمكّن من السّيطرة على زمام الأمور وحسم الصراع لصالحه.

الفصل التاسع

الأوراس يغيب عن الصومام

الولاية الأولى تغيب عن مؤتمر الصومام

كما سبق وأن ذكرنا فقد أمر مصطفى بن بولعيد قبل استشهاده عبد الله نواورية بحفر المخابئ وجمع المؤن ممّا أوحى لبعض المجاهدين أنّ اجتماعا هاما لقادة الثورة سيعقد في ضواحي سوق اهراس، وفي الوقت نفسه بادرت منطقة الشمال القسنطيني بالدعوة إلى عقد اجتماع يضم قادة الثورة في الداخل والخارج، ولكن الاستعداد له بدأ بإشراف عبّان رمضان وموافقة العربي بن مهيدي قائد المنطقة الخامسة (وهران) بعد وصوله إلى مدينة الجزائر، قبل أن يتقرر عقده في "قرية إيفري" بالمنطقة الثالثة، وكان الدافع الأساسي وراء السعي لعقد هذا الاجتماع هو حوصلة النشاط الثوري وتقييم الاحتياجات. وتعيين قيادة جديدة للثورة وتحديد تنظيمها وسياستها وقد وافقت المنطقة الثانية والثالثة والرابعة والخامسة على هذا الاجتماع.

ولم يتمكن المشرفون على تنظيم المؤتمر من الاتصال بالمنطقة الأولى نظرا لإعدام شيهاني بشير واستشهاد مصطفى بن بولعيد الذي بقي استشهاده سرا تضاربت حوله الأنباء حتى قادة الثورة لم يتمكنوا من استبيان الأمر إلا بعد شهور على استشهاده. ورغم تولي عجول قيادة الأوراس ولو بصفة مؤقتة إلى غاية تعيين قيادة جديدة رسميا إلا أن الصراعات على قيادة المنطقة الأولى ازدادت حدة، فرفض عمر بن بولعيد الاعتراف بقيادة عجول للولاية وحمله مسؤولية استشهاد شقيقه، بل أراد تنصيب نفسه قائدا للأوراس، وحاول تمثيل الولاية الأولى في مؤتمر الصومام، حيث وصل إلى المنطقة الثالثة على رأس مجموعة من الجنود لكن عجول ولغرور عندما سمعا بأمر عمر بن بولعيد أرسلوا إلى المشرفين على المؤتمر ينفون تمثيل هذا الأخير للمنطقة الأولى، ولكنهم رفضوا في الوقت ذاته المشاركة في هذا المؤتمر حتى لا يجدوا أنفسهم مضطرين لكشف سر استشهاد مصطفى بن بولعيد، أو لحاجة في نفس يعقوب.

ولم تكن قيادة الأوراس تعطي أهمية كبيرة لمؤتمر الصومام نظرا للمشاكل الداخلية التي كانت تتخبط فيها المنطقة بعد استشهاد بن بولعيد. كما أن المنطقة الأولى كانت أكثر ارتباطا بالوفد الخارجي، وكان التنسيق قويا مع عبد الحي مندوب الثورة في تونس المقرب من أحمد بن بله.

قرارات مؤتمر الصومام

تمخض مؤتمر الصومام عن قرارات هامة بالنسبة للثورة الجزائرية. خاصة وأنه كان أول لقاء يجمع أكبر عدد من القادة لتقييم قرابة سنتين من الجهاد، ورغم غياب ممثلي المنطقة الأولى والقاعدة الشرقية التي لم تكن قد تشكلت بعد، بالإضافة إلى الزعماء التاريخيين للثورة في الخارج وهم؛ أحمد بن بله، محمد بوضياف، ومحمد خيضر وحسين آيت أحمد، إلا أنّ المؤتمر استطاع الخروج بعدة قرارات هامة خاصة في الجانب التنظيمي، حيث شكّل لجنة التنسيق والتنفيذ (CCE)التي تُمثل القيادة الجماعية للثورة والمكونة من خمس أعضاء وهم: عبان رمضان، العربي بن مهيدي، كريم بلقاسم، يوسف بن خدة. وسعد دحلب.

كما أقرّ المجتمعون إنشاء مجلس وطني للثورة الجزائرية يتكون من 17 عضوا دائمين و17 عضوا إضافيين، وتتمثل صلاحياته في تحديد السياسة العامة للثورة وتعيين قادتها، وتمكن عبان رمضان مهندس مؤتمر الصومام من إقناع القادة المجتمعين بوضع هذا الهيكل المركزي لقيادة الثورة غير أن هذه الفكرة وجدت معارضة قوية من بوضياف وبن بلة وخيضر، لأن المبدأ المتفق عليه بين قادة الثورة عام 1954 هو اللاّمركزية في العمل الثوري، أمّا الموضوع الذي أثار جدلا واسعا هو أولوية الداخل على الخارج وأولوية السياسي على العسكري؛ بمعنى أن أولوية اتخاذ القرارات تعود للقادة في الداخل قبل قادة الخارج وأنّ القادة السياسيين تعود لهم الأولوية في اتخاذ القرارات المصيرية قبل القادة العسكريين وهو ما رفضه قادة الخارج وعلى رأسهم بن بله.

الأوراس يغيب عن الصومام

وعلى الجانب التنظيمي أصبحت المنطقة تسمى ولاية: والناحية منطقة؛ والقسم ناحية؛ واستحدثت الولاية السادسة التي مثلها علي ملاح بعد أن ألغيت في بداية الثورة عندما انكشف أن جيلالي حجاج الذي كان مقررا أن يكون أول قائد للصحراء ليس سوى عميلا فرنسيا خالصا، وتم تقسيم جيش التحرير الوطني إلى مجاهدين، مسبلين، وفدائيين، وحددت في هذا المؤتمر رتب الجنود وضباط الجيش من جندي إلى صاغ ثاني (عقيد) وهي أعلى رتبة عسكرية خلال الثورة، كما قسم جيش التحرير إلى فيالق وكتائب وفرق وأفواج.

الوفد الخارجي يعارض قرارات مؤتمر الصومام

عارض الوفد الخارجي بشدة مؤتمر الصومام الذي لم يشارك في إعداد قراراته على غرار بقية قيادات الخارج، وأرسل أحمد مهساس مندوب الثورة في القاهرة للاتصال بإطارات الولاية الأولى ومنطقة سوق اهراس في مدينة غاردماو التونسية وضمت هذه اللقاءات عمارة بوقلاز، الطاهر غروطة، مسعود عيسي، لزهر شرايطي، محمود قنز، الحاج علي حمدي، وأنا وشقيقي بلقاسم وذلك لمناقشة قرارات مؤتمر الصومام ومدى شرعيته أصلا، وأثار بوقلاز قضية عدم اعتراف مؤتمر الصومام بسوق اهراس كولاية جديدة، بل إن عمار بن عودة عند استقباله لمبعوثيه إلى الصومام أكد لهما أن المنطقة عادت إلى الولاية الثانية. من جانبهما احتج كل من مسعود عيسي ولزهر شرايطي على قرار المؤتمر بأولوية السياسي على العسكري ورفضوا فكرة أن يخضع جيش التحرير لجبهة التحرير الوطني، وهو ما أكد عليه مهساس وأضاف أنه لا يمكن تسمية أولوية الداخل على الخارج بل هي ثورة واحدة في الداخل والخارج والقادة الذين هم في الخارج يواجهون نفس الصعوبات والمشاكل التي يواجهها رفاقهم في الداخل.

ورفض كل من لزهر شرايطي، ومسعود عيسي، وعلي مشيش، والحاج علي وهم قادة محليون في الأوراس الاعتراف بسلطة عجول على الولاية الأولى وحمّلوه مسؤولية قتل شيهاني بشير نائب مصطفى بن بولعيد الذي

اغتيل في ظروف غامضة ووجّهت هذه المرة تُهمة استشهاد بن بولعيد لعجول رغم عدم وجود أدلة قاطعة تثبت ذلك، فضلا على أن القادة المحليين آثاروا قضية عدم مشاركة الولاية الأولى في مؤتمر الصومام، ورفضوا الاعتراف ببعض قراراته خاصة ما تعلق بأولوية الجبهة على جيش التحرير، ونتيجة لهذه الخلافات دخلت الولاية الأولى في انقسامات حادة ولم يتفق قادتها على رجل واحد ليُمسك بدفة القيادة.

لقائي بعباس لغرور

سمعت بوجود عباس لغرور في تونس فأردت لقاءه، فوافق على استقبالي في فيلا "الدندان"، وتحدثنا مليّا عن الأوضاع في الولاية الأولى، وأخبرته أن هناك حالة تذمر سائدة بين الجنود نظرا لصرامة عجول الشديدة، فسألني عباس لغرور:

- هل عدت إلى منطقة سوق اهراس؟

- لا، فضلت زيارة أهلي قبل الاتصال مجددا بقادة المنطقة.

- إن الثورة في خطر وإن بعض المسؤولين في خوضهم يلعبون، ولذلك فإنني أوصيكم أن تكونوا رجالا، حافظوا على الثورة وجنّبوها الوقوع في المخاطر والمزالق، وإنّني هنا لحسم بعض المشكلات ثم أعود بعد ذلك إلى الجزائر.

لكن عباس لم يعد إلى الجزائر بل تمت تصفيته بعد محاكمته إثر واقعة النمامشة التي قتل فيها الزين عباد وبشير عيدوني وجرح كل من لزهر شرايطي والوردي قتال وبابانا ساعي واتهم كل من عبد الحي وعباس لغرور بتدبير عملية تصفية قادة النمامشة. وطُويت صفحة من صفحات أحد أبطال الجزائر، المشهود لهم بالشجاعة والرزانة والدّهاء، لكن الظروف الصعبة التي مرّت بها الثورة كانت تتطلب فرض نوع من الصرامة لضبط الأمور.

لجنة التنسيق والتنفيذ تبسط سيطرتها على الحدود الشرقية

أرسلت لجنة التنسيق والتنفيذ العقيد عمر أوعمران قائد الولاية الرابعة بالنيابة (وسط الجزائر) في نهاية سبتمبر 1956 لضبط الأمور في تونس، فاعتقل علي مهساس مندوب الثورة في القاهرة وتم وضعه تحت الإقامة الجبرية لمعارضته قرارات مؤتمر الصومام وتحريض قادة الجبهة الشرقية (الولاية الأولى والقاعدة الشرقية) على عدم الاعتراف بها. لكنّ مهساس تمكن من الهرب مُتهما لجنة التنسيق والتنفيذ بمحاولة تصفيته جسديا، وبمساعدة محمود شريف تمكّن أوعمران من إزاحة عبد الحي مندوب الثورة في تونس والذي كانت تصفه القيادة التونسية بأنه دولة داخل دولة، ولم يبق سوى عباس لغرور الذي عارض هو الآخر رفقة عجول قرارات مؤتمر الصومام واعترف لغرور بقتل شيهاني بشير بنفسه، وكان يعتقد أنه بإمكانه إقناع قادة الثورة بوجهة نظره وصواب خياراته خاصة وأنه كان يثق في أوعمران وكريم بلقاسم اللذين حدثه عنهما الشهيد مصطفى بن بولعيد وذكرهما له بخير، لكنّه تعرض في النهاية إلى التصفية في نوفمبر 1956.

وجدت لجنة التنسيق والتنفيذ نفسها مضطرة للخروج إلى تونس والمغرب بعد اعتقال العربي بن مهيدي عقب إضراب الثمانية أيام في 1957. وتدخل القوات الفرنسية العائدة من الشرق الأوسط بعد فشل العدوان الثلاثي على مصر لقمع الإضراب بوحشية، وتصفية نظام الثورة بالعاصمة مما أجبر لجنة التنسيق والتنفيذ على الالتجاء إلى الخارج، حيث اتفقوا على أن يذهب عبان رمضان وسعد دحلب إلى المغرب بينما توجه كريم بلقاسم ويوسف بن خدة، ولخضر بن طوبال الذي خلف الشهيد زيغود يوسف إلى تونس والقاهرة في جوان 1957.

عميروش في مهمة نحو الأوراس

كلّف مؤتمر الصومام العقيد زيغود يوسف قائد الولاية الثانية و"إبراهيم مزهودي بالاتصال بالولاية الأولى وبالنمامشة وسوق أهراس لحل المشاكل التي طرأت على المنطقة والتحقيق في مقتل بشير شيهاني. كما كلّف اعمر

أوعمران" وسي الشريف (من الولاية السادسة) وعميروش بمهمة الاتصال بالأوراس للتحقيق في قضية مقتل "مصطفى بن بولعيد" وحل المشاكل والصراعات التي عرفتها المنطقة.

واستشهد البطل زيغود يوسف وهو في طريقه إلى الولاية الأولى في 23 سبتمبر 1956 بسيدي مزغيش شمال قسنطينة إثر اشتباك مع قوات العدو، أمّا العقيد اعمر أوعمران قائد الولاية الرابعة بعد عودته إلى ولايته كلف بالقيام بمهمة أخرى مستعجلة بتونس لضبط الأمور على الجبهة الشرقية، لذلك فإنّ عميروش توجه منفردا إلى الأوراس، ولم يحضر معه بقية القادة الأخرين.

محاولة اغتيال عجول

حسبما رواه لي عثمان زحاف والجرموني وعلي مشيش والذين شاركوا وحضروا اجتماعات عميروش بقادة الأوراس والتي دامت عدة أيام تحت ظل إحدى أشجار الأوراس، فإن فُرقاء الولاية الأولى كانوا يلتقون في النهار ويفترقون في المساء، ثم يرجع كل قائد إلى مُعسكره القريب من مكان الاجتماع، وعندما انفض اجتماع إطارات الولاية الأولى في 19 أكتوبر 1956، والذي عُقد تحت إشراف العقيد عميروش، ورجع عجول ليستريح في أحد الأكواخ ومعه نحو عشرة من الجنود، ولشدة ذكائه جعل بعض الحراس فوق الكوخ في حين نام هو ونحو ثمانية جنود داخله وبمجرد أن أُطفئت الأنوار ترك عجول مكانه لأحد الجنود ونام في جهة أخرى، وكما كان يتوقع هجم عليهم بعض الثوار يقال بأنهم من جماعة علي مشيش وأمطروهم بالرصاص على حين غرة، فقتلوا الجندي المكلف بالحراسة والذي كان فوق الكوخ ولمّا سمع عجول صوت البارود، حمل سلاحه وخرج وتبادل مع المهاجمين إطلاق النّار لكنّه أُصيب بجروح بليغة على مستوى يده اليمنى التي كان يحمل بها سلاحه، وهاجمت جماعة علي مشيش بقية الجنود ثم توارت في الغابة تحت جنح الظلام، أمّا عجول فتمكن من الإفلات من الموت وهرب قاصدا بيت والده المُقيم في الجبال وهو ينزف

دما، وحسب إحدى الروايات فإنّ والده ذهب إلى المدينة ليأتيه بالدواء لمعالجة جرحه الدامي، لكنّه بدل ذلك راح وبلغ الدرك الفرنسي عن مكان تواجد ابنه معتقدا أنهم سيحمونه بعدما حاول الثوار قتله، فجاءت مجموعة من رجال الدرك وألقت القبض على هذا الصيد الثمين، واستنطقته لأيام حول مراكز المجاهدين وأماكن تواجد الكازمات التي تخزن فيها المؤن والأدوية، وتؤكد بعض الشهادات أن عجول كان يُحمل على طائرات استطلاع فرنسية حتى يُبلغهم عن أماكن تجمعات المجاهدين، لكنّه على ما يبدو كان يتعمد توجيههم إلى الأماكن الخطأ، كما أنّنا عادة ما نغيّر مواقع تمركزنا وأماكن ملاجئ المُؤن والسّلاح غير الصالح للاستعمال عند اعتقال أفراد منا خاصة إذا كانوا من القادة والمسؤولين، لأنّه ليس من السهولة بمكان احتمال التعذيب الوحشي للفرنسيين.

وكان عجول يطلب من النّاس بعد تسليم نفسه للجيش الفرنسي أن يوصلوه إلى لجنة التنسيق والتنفيذ لتحاسبه على أن يدافع عن نفسه، فقد كان مقتنعا في داخله بأنه لم يخن الثورة وأن تسليم نفسه للعدو له أسباب وخلفيات موضوعية حسب نظره، ولكنّه كان مترددا، ومنذ نهاية سنة 1956 إلى غاية 1962 لم يتمكن من الاتصال بأي من قادة الثورة.

وعند استقلال الجزائر رفض عجول الهروب إلى فرنسا كما فعل الكثير من الحركى، وبقي في الأرض التي كافح يوما ليرى شمس الحرية تُشرق على أبنائها رغم أنه كان معرضا للقتل أوالاعتقال، ورمى به الرئيس أحمد بن بله في السجن بعد الاستقلال بتُهمة الخيانة لكني عندما أصبحت قائدا لأركان الجيش الوطني الشعبي، كلّمت الرئيس أحمد بن بله والعقيد هواري بومدين وزير الدفاع وتشفّعت لعجول الذي كان في وقت ما قائدي، وطلبت منهما إطلاق سراحه نظرا لكبر سنه من جهة، كما أن قضية خيانته للثورة أمر يحتاج إلى بحث وتحقيق للوصول إلى الحقيقة من جهة أخرى. فقبل بن بله شفاعتي وأطلق سراح عجّول رفقة القايد السبتي، وعاش عجول بقية عمره حارسا لمدرسة ابتدائية في ولاية باتنة، ومات وحيدا في

منطقة نائية في الأوراس، وظلت قضيته يلفها الكثير من الغموض. ولحسن الحظ تم تسجيل شهادته في أحد المجلدات التي تحكي عن البطل الشهيد مصطفى بن بولعيد.

فرنسا تختطف طائرة قادة الخارج

نظرا لتزايد نشاط الثورة وتحقيقها لمزيد من الانتصارات العسكرية والسياسية على العدو رغم المشاكل والعقبات التي واجهتها داخليا، طلب "أحمد بن بله" مندوب الثورة في الخارج من القيادة المصرية تزويد جيش التحرير الوطني بدفعة أخرى من الأسلحة والذخيرة لمواجهة احتياجات التزايد المتضاعف لأعداد المتطوعين الجدد الذين ينظمون يوميا لجيش التحرير، ووافق "جمال عبد الناصر" على تزويد الثورة الجزائرية بكمية من الأسلحة.

و تم شحن هذه الأسلحة والذخيرة على متن "السفينة آتوس" التي أبحرت يوم 4 أكتوبر 1956 من مصر باتجاه خليج "كاب داجوا" بإسبانيا على أن تفرغ السفينة شحنتها بالجبهة الغربية (الولاية الخامسة)، غير أن وكالات الأنباء العالمية أعلنت عن استيلاء فرنسا عليها في 17 أكتوبر 1956، ولم تكتف فرنسا بذلك بل شنّت حملة دعائية مسعورة اتجاه مصر متهمة إياها بدعم الثورة الجزائرية وأنّ ما يقع في الجزائر هو إيعاز من الخارج وخصوصا من مصر وأنّ جمال عبد الناصر هو الذي يسبب لها كل هذه المشاكل في الجزائر.

وفي 22 أكتوبر 1956 قامت السلطات الاستعمارية بعملية قرصنة جوية استهدفت الطائرة التي كانت تقل الزعماء الجزائريين في الخارج: أحمد بن بله، محمد بوضياف، حسين آيت أحمد، ومحمد خيضر بالإضافة إلى الصحفي مصطفى الأشرف، والتي كانت متوجهة من المغرب إلى تونس قصد تنظيم ما كان سيعرف بمؤتمر تونس لربط اتصالات مع الفرنسيين عبر وساطة تونسية مغربية، حيث كان مقررا مشاركة الملك المغربي محمد الخامس والرئيس التونسي لحبيب بورقيبة

في هذا المؤتمر، ورغم أنّ اختطاف زُعماء الثورة كان له أثر سلبي في نفوس المجاهدين إلاّ أنه أكسب الثورة الجزائرية مزيدا من التعاطف والدعم الأجنبي في وقت كانت في أمسّ الحاجة إلى هذا الدعم للضغط على فرنسا وإضعاف موقفها دوليا، حيث اجتمع ممثلو 25 دولة من الكتلة الإفريقية والأسيوية في الأمم المتحدة ووافقوا بالإجماع على إصدار بيان يعبر عن استيائهم من اعتقال الزعماء الجزائريين والطريقة التي تمّ بها إجبار طائرتهم على الانحراف عن طريقها، وطالبوا بعرض مشكلة الجزائر على الجمعية العامة للأمم المتحدة للمرة الثانية خلال نفس العام 1956.

مؤتمر القاهرة 1957

بعد الانتقادات التي وجهت إلى بعض قرارات مؤتمر الصومام وإلى مهندسه عبان رمضان خاصة ما تعلق بأولوية السياسي على العسكري وأولوية الداخل على الخارج، وعدم الإشارة إلى الانتماء العربي الإسلامي للجزائر، فضلا عن عدم مشاركة العديد من قيادات الثورة في هذا المؤتمر، تقرر عقد أول اجتماع للمجلس الوطني للثورة الجزائرية في القاهرة، وأخبرني عمارة بوقلاز أن القيادات العسكرية اتفقت على استعادة زمام قيادة الثورة من القادة السياسين، وكان المقصود بالقادة السياسيين عبان رمضان الذي اتهم بمحاولة الاستحواذ على قيادة الثورة بمفرده رغم أن القادة المفجرين للثورة أكدوا على القيادة الجماعية ورفض القيادة الفردية، ولكن عبان رمضان بفضل ثقافته وقوة شخصيته استطاع فرض تصوراته على قادة الثورة في مؤتمر الصومام وهذا ما جعل البطل زيغود يوسف يعلق بعد انتهاء المؤتمر "الجزائر ستستقل لكن الثورة ستضيع".

غير أن عبان رمضان بدأ يفقد الكثير من نفوذه وسطوته بعد اضطراره وبقية أعضاء لجنة التنسيق والتنفيذ إلى مغادرة الجزائر والاستقرار في الخارج وبالتالي أصبح مبدأ أولوية الداخل على الخارج الذي أقره مؤتمر الصومام سلاحا مسلطا ضده، لأنه لم يعد من قادة الداخل الذين يحظون بالأولوية في اتخاذ القرارات.

وخلال مؤتمر المجلس الوطني للثورة بالقاهرة هيمن القادة العسكريون على أشغاله وتمت زحزحة عبان رمضان عن صناعة القرار وكلف بالإعلام في لجنة التنسيق والتنفيذ، كما تم التأكيد على الانتماء العربي الإسلامي للجزائر، وبرز في هذا المؤتمر قائدين عسكريين جديدين هما لخضر بن طوبال قائد الولاية الثانية الشمال القسنطيني والذي خلف الشهيد زيغود يوسف، وعبد الحفيظ بوصوف قائد الولاية الخامسة وهران الذي خلف الشهيد الرمز العربي بن مهيدي، بالإضافة إلى كريم بلقاسم الذي أصبح يرى بأنه أولى بقيادة الثورة بعد استشهاد أو اعتقال القادة الستة المفجرين للثورة والذين لم يبق منهم سواه.

رغم تهميش عبان رمضان عن اتخاذ القرارات المصيرية إلا أنه ظل يناور ويتصرف على أنه القائد الفعلي للثورة وهو ما أثار حفيظة كل من كريم بلقاسم ولخضر بن طوبال وعبد الحفيظ بوصوف الذين اتهموه بالاتصال سرا بالعدو قصد التفاوض معه دون الرجوع إلى قيادة الثورة، وهذا كان كافيا بالنسبة لهم لتدبير مؤامرة اغتياله في المغرب.

محمود شريف قائدا للولاية الأولى
(ديسمبر 1956 ـ ديسمبر 1957)

بعد رجوع العقيد عميروش إلى تونس عقب حادثة عجول عيّنت لجنة التنسيق والتنفيذ محمود شريف قائدا للولاية الأولى في ديسمبر 1956 نظرا لكفاءته وخبرته العسكرية، غير أن ذلك لم يوقف الصراع الداخلي بين إطارات الولاية، إذ أنّ العديد منهم لم يكونوا راضين عن تعيين محمود شريف قائدا عليهم بما فيهم عرش النمامشة الذي ينتمي إليه، حيث دخل في صراع حاد مع لزهر شرايطي بعد تعيينه قائدا للمنطقة السادسة في الوقت الذي كان شرايطي يرى بأنّه أولى منه بقيادة المنطقة السادسة، معتبرين بأنه ليس من المجاهدين الأوائل الملتحقين بالثورة، بل كان ضابطا في الجيش الفرنسي ولم يمر على التحاقه بالثورة سوى أقل من عام، لذلك بقي محمود شريف يقود الولاية الأولى من تونس إلى غاية ديسمبر 1957 عندما التحق بلجنة التنسيق والتنفيذ.

أما قصة التحاق محمود الشريف بالثورة فقد روى لي بعض من عرفوه عن قرب أنه كان ضابطا مرموقا في الجيش الفرنسي وله اعتباره الذي اكتسبه من إقدامه وشجاعته في المعارك خلال الحرب العالمية الثانية. وفي أوائل 1956 تقاعد من الجيش الفرنسي ومكث في بيته المتواضع في ضواحي مدينة الشريعة (تبسة) وكان يستقبل من حين لآخر بعض القياد والضباط الفرنسيين ويخرج للصيد معهم أحيانا بحكم مكانته كضابط متقاعد في الجيش الفرنسي.

وبلغ المجاهدين خبر يؤكد امتلاكه قطعتي سلاح: الأولى من نوع "كارابينا" أمريكية الصنع، والثانية عبارة عن بندقية صيد. فأرسل سي البشير (سيدي حني نائب التيجاني) دورية من المجاهدين إليه وأمرهم باستدعائه، لكنّه لم يستجب لهم في المرة الأولى، فأمر سيدي حنّي المجاهدين باعتقاله حتى ولو تطلب ذلك استخدام القوة، فقصدوا بيته لكنّهم رؤوا ضباطا من الدرك الفرنسي يدخلون داره فرجعوا إلى سيدي حنّي وظنّوا أنّ محمود شريف قد نصب لهم كمينا، وفي المرة الثالثة هجموا عليه في بيته واعتقلوه واتهموه بالعمالة لفرنسا بدليل أنّهم رأوه يستقبل ضباطا من الدرك الفرنسي في بيته، لكنه أنكر هذه التهمة الخطيرة التي قد تطيح برأسه.

وعندما رأى نفسه هالكا لا محالة طلب منهم أن يُعطوه سلاحا وفرقة كموندوس للقيام بعملية فدائية وسط مدينة تبسة ضد قوات الاحتلال لإثبات حسن نيته تجاه الثورة، وألّح عليهم في هذا الشأن، واستطاع أن يُقنع المجاهدين بصدق نواياه وكان رجلا فصيحا وذكيا، وأكدّ لهم أنّه حتى وإن لم يكن في مستوى الثقة التي قد تُوضع فيه فإنّ الثورة يدها طويلة ويمكنها أن تطاله أينما ذهب، قرّر المجاهدون تجريبه ومنحه فرصة أخيرة، ووضعوا تحت قيادته مجموعة من رجال الكموندوس.

فقام هذا الكموندوس بعمليّة جريئة هي الأولى من نوعها في قلب مدينة تبسة ودوّى الرصاص في أزقة المدينة الهادئة التي لم يسبق وأن اهتزت أركان القوات الفرنسية بها بهذا الشكل من قبل، وأحدثت هذه

العملية صدا واسعا في نواحي "النمامشة"، فلم يكن هناك من يجرؤ على اقتحام المُدن الكُبرى والمعززة بقوات الشرطة والدرك والجيش والشنابط ويخرج سالما، وجُرح محمود في هذه العملية، وبعدها نُقل إلى تونس للعلاج بعد أن كسب سمعة طيبة وسط المجاهدين.

وبعد فشل مهمة العقيد عميروش في تعيين قيادة شرعية للولاية الأولى تحظى بإجماع إطارات وعروش المنطقة، قرّرت لجنة التنسيق والتنفيذ - التي اضطرتها الظروف للخروج إلى تونس والمغرب - تعيين محمود شريف قائدا للولاية الأولى، والعموري ونواورة وعبد الله بلهوشات كنواب له في مجلس الولاية.

الفصل العاشر

بطولات ومعارك بالقاعدة الشرقية

تشكيل القاعدة الشرقية

اجتمع قادة منطقة سوق اهراس في "زاوية سيدي قدور" بولاية الكاف التونسية وذلك بعد مقتل جبار عمر ورحيل الوردي قتّال وجماعته فاتفقوا على تعيين "عمارة العسكري" (بوقلاز) قائدا على الناحية فسعى لتكوين منطقة جديدة على غرار بقية الولايات كالأوراس والشمال القسنطيني والقبائل، وعندما اقترب موعد انعقاد مؤتمر الصومام أرسل عمارة بوقلاز وفدا مشكّلا من الحفناوي رماضنية عن ناحية سوق اهراس، وعمّار بن زودة عن ناحية القالة، وحملا التقرير المكتوب بالفرنسية وبالعربية، وعند مرورهما بمنطقة الشمال القسنطيني مستفسرين عن مكان انعقاد المؤتمر الذي أُحيط بسرية تامة، وجدا المجاهد الطاهر بودربالة ومعه شخص آخر لم يحدّده بوقلاز في روايته لنا، فأحالهما إلى عمار بن عودة فأجابهما هذا الأخير بأن "المؤتمر قد انعقد وانقضى ونحن ننتظر وصولكما لتسليم التقرير الذي جئتما به ومنطقة سوق اهراس ستنتظم مجددا للولاية الثانية". فسلما التقرير وعادا أدراجهما. وحسبما رواه لي بوقلاز فقد سبق وأن اتصل عمار بن عودة بالوردي قتال قصد ضم منطقة سوق اهراس لكن الوردي قتال قال له "لا يهمني هذا الأمر وعليك بالاتصال بالنظام".

وأراد عبد الله بلهوشات تشكيل ولاية جديدة في أمّ البواقي وعين مليلة ومسكانة وعين البيضاء وسدراته على غرار ما كان يريد عمله عمارة بوقلاز في سوق اهراس، ونصّب بلهوشات نفسه قائدا على الولاية الجديدة برتبة عقيد، والحاج علي حمدي نائبا له برتبة رائد، رفقة بوجمعة عوادي ومجاهد آخر، وأرسل بلهوشات مبعوثا إلي لكي ألتحق به لأنني ابن الجهة (كلانا من عرش الحراكتة)، فرددت عليه ساخرا "هل تريدون تشكيل الولايات المتحدة!" وأضفت بنبرة حادة: "أنا لا أعترف إلا بالتقسيم الأول الذي وضعته القيادة التاريخية للثورة".

تسوية مشكل الحدود بين منطقتي بوقلاز وبلهوشات

عدت في نهاية سبتمبر 1956 من تونس والتحقت بعمارة بوقلاز الذي كان يُحضّر لإنشاء ولاية جديدة، وخلال لقائنا انتقدت بعض التعيينات في الولاية التي كانت في طور التشكل، فقال لي بوقلاز "سي الطاهر...سامي، سامي لا طيح" بمعنى لا تنتقد كثيرا حتى لا يتهاوى البناء، وكلّفني بالاتصال بجماعة "بلهوشات" لتسوية مشكل الحدود بيننا في منطقة سدراته التي يوجد على رأسها صالح السّوفي، حيث كاد الأمر أن يصل إلى مواجهات مسلّحة بين القاعدة الشرقية ومنطقة سدراته.

وشكّل بوقلاز لجنة برئاستي، وتضم يوسف بن الصيد، عبد الرحمان بوراوي ومحمد عبادة، وقابلت هذه اللجنة ممثلين عن بلهوشات وصالح السّوفي في مكان يسمى "الكاف لعكس"، ورسمت الحدود بين المنطقتين وطلبت من جماعة بلهوشات عدم الدخول إلى مناطق القاعدة الشرقية والتوقف عن جمع الاشتراكات من السكان القاطنين في هذه المناطق، مشيرا إلى أن المناطق المتنازع عليها كانت تابعة لقيادة باجي مختار، فيما اعتبرت جماعة بلهوشات أنّ هذه المنطقة تابعة للبلدية المختلطة لسدراته، وانتهى الاجتماع بإزالة الخلاف بين الطرفين، بعد تحديد الحدود حسب الدواوير وحتى البيوت.

قيادة الثورة تقر بتشكيل القاعدة الشرقية

وجدت لجنة التنسيق والتنفيذ وهي القيادة العليا للثورة المنبثقة عن مؤتمر الصومام نفسها أمام الأمر الواقع، خاصة بعد أن أصر قادة هذه الجهات على تشكيل ولايتين غير تابعتين لا للولاية الأولى ولا للثانية بسبب انقطاع الاتصال مع الولاية الثانية التي كان يمثلها في المنطقة عمار بن عودة، والولاية الأولى بعد رحيل الوردي قتال، فأرسلت اللجنة اعمر أوعمران الذي اجتمع مع قادة سوق اهراس في باجة بتونس حضره إلى جانب عمارة بوقلاز كل من شقيقي بلقاسم، السبتي بومعراف، الحاج لخضر السوقهراسي، والعيساني وأنا، وأرسل أوعمران تقريره إلى لجنة

التنسيق والتنفيذ مقترحا جعل منطقة سوق اهراس منطقة لتموين الثورة بالسّلاح خاصة وأنها تقع على الحدود الشرقية مع تونس.

وكانت الثورة في تلك الفترة بحاجة ماسة للأسلحة وهو ما شجّع قيادة لجنة التنسيق والتنفيذ على قبول هذا المقترح، وتشكّلت حينها ما أصبح يُعرف بالقاعدة الشرقية بقيادة عمارة بوقلاز في ديسمبر 1956، وضمّت منطقتي سوق اهراس والقالة وأجزاء من عنابة، في حين عيّنت محمود شريف كما سبق وأن ذكرنا قائدا للولاية الأولى، وبالتالي عادت تبسة إلى الولاية الأولى. أمّا عبد الله بلهوشات فقد عُيّن رائدا في مجلس قيادة الولاية الأولى ولم يُعترف به كقائد لولاية سدراته وعين البيضاء برتبة عقيد، ورفضت لجنة التنسيق والتنفيذ زيادة عدد الولايات بشكل نهائي حتى لا تفتتح المجال لكل عرش بالمطالبة بولاية خاصة به وهذا ما قد يؤدي إلى تفتيت وتمييع الثورة، والتزم الجميع بقرارات لجنة التنسيق والتنفيذ التي بدأت تتحكم في زمام الأمور مع حلول شهر ديسمبر 1956.

من اليسار إلى اليمين :1ـ الطاهر الزبيري، 2ـ عبد الرحمان بن سالم، 3ـ محمد عواشرية، 4ـ عمارة العسكري (بوقلاز)، 5ـ الطيب جبار.

الفيلق الثالث

بعد أن أقرّت لجنة التنسيق والتنفيذ جعل منطقة سوق اهراس قاعدة شرقية لتموين الولايات الداخلية بالسلاح في ديسمبر 1956 وأعطيت إطار ولاية (عقيد ومعه ثلاثة رواد)، وأصبح عمارة بوقلاز على رأسها برتبة عقيد ومعه مجلس القاعدة مشكل من:

1 ـ الرائد محمد عواشرية.

2 ـ الرائد الطاهر غروطة.

3 ـ الرائد سليمان بلعشاري.

وقُسّمت القاعدة الشرقية إلى ثلاث مناطق :

1 ـ **المنطقة الأولى**: بقيادة شويشي العيساني وتشمل القالة ونواحيها.

2 ـ **المنطقة الثانية**: بقيادة عبد الرحمان بن سالم وتقع شمال سوق اهراس.

3 ـ **المنطقة الثالثة**: بقيادة الطاهر زبيري وتقع جنوب سوق اهراس من الكاف لعكس بالقرب من سدراته إلى الحدود التونسية.

ولكلّ منطقة فيلقها الخاص، ويتشكل كل فيلق من ثلاث إلى أربع كتائب ويضم نحو 600 جندي، بينما تنقسم الكتيبة (نحو 120 جندي) إلى ثلاث فصائل، وكل فصيلة (نحو 35 جندي) تنقسم إلى ثلاث أفواج وكل فوج يتشكل من نحو 12 جندي، وتملك كل منطقة فيلقا يحمل اسمها ويقوده قائد المنطقة نفسه.

قيادة الفيالق

1 ـ **الفيلق الأول**: بقيادة النقيب شويشي العيساني.

أ ـ الملازم الأول علاوة بشايرية نائب أول مكلف بالشؤون العسكرية.

ب ـ الملازم الأول مازوز رصاع نائب ثاني مكلف بالشؤون السياسية.

ج ـ الملازم الأول الحاج خمار نائب ثالث مكلف بالأخبار والمواصلات.

2 . **الفيلق الثاني**: بقيادة النقيب عبد الرحمان بن سالم.

أ . الملازم الأول لخضر ورتي نائب أول مكلف بالشؤون العسكرية.

ب . الملازم الأول رماضنية الحفناوي نائب ثاني مكلف بالشؤون السياسية.

ج. الملازم الأول جبار الطيّب نائب ثالث مكلف بالأخبار والمواصلات.

3 . **الفيلق الثالث** : بقيادة النقيب الطاهر زبيري.

أ . الملازم الأول سبتي بومعراف نائب أول مكلف بالشؤون العسكرية.

ب . الملازم الأول موسى حواسنية نائب ثاني مكلف بالشؤون السياسية.

ج. الملازم الأول محمد لخضر سيرين نائب ثالث مكلف بالأخبار والمواصلات.

ويتشكل الفيلق الثالث من ثلاث كتائب وهي:

الكتيبة الأولى: بقيادة الملازم الثاني محمد بن ضحوة الذي خلف السبتي بومعراف.

الكتيبة الثامنة: بقيادة الملازم الثاني الحاج لخضر المراهني.

الكتيبة التاسعة: بقيادة حمه غليس الذي خلف "محمد لخضر سرين".

أما الكاتب العام للفيلق الثالث فهو المرشح " عبد الرحمان بوراوي".

هيكلة القاعدة الشرقية

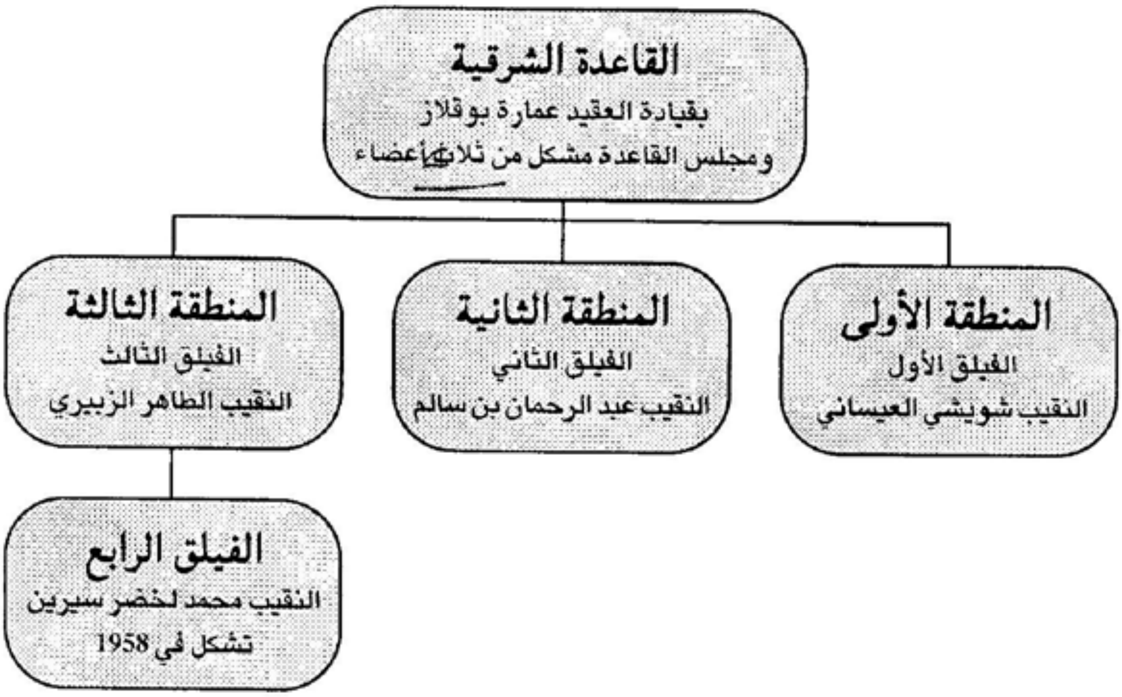

إنقاذ نواورية من الموت

عندما أعدم جبار عمر في 1956، خشي عبد الله نواورية الذي كان أحد رفقائه أن يتم اغتياله هو الآخر، فهرب إلى الولاية الثانية (الشمال القسنطيني) واحتمى بها، لكنّ جنود الولاية الثانية ألقوا القبض عليه واتهموه بأنه من المتسببين في انفصال منطقة سوق اهراس عن الولاية الثانية، فجردوه من سلاحه وأبقوه عندهم بضعة أشهر ثم أخلوا سبيله، فعاد إلى القاعدة الشرقية والتحق بمركز عبد الرحمان بن سالم قائد الفيلق الثاني الذي أبقاه في منطقته ثم أرسل إلى قيادة القاعدة الشرقية يخبرهم بأمر عبد الله نواورية، واتُّهم نواورية بأنه مبعوث الولاية الثانية للعمل على إعادة ضم القاعدة الشرقية إلى الولاية الثانية وأراد عواشرية الذهاب إلى النقيب بن سالم لتصفية نواورية.

وصادف ذلك أن حللت بمركز قيادة القاعدة الشرقية وقابلت العقيد عمارة بوقلاز الذي قص علي أمر نواورية، وشكوك عواشرية تجاهه ورغبته في تصفيته، فقال لي:

- عواشرية ساخط على نواورية ويريد قتله.

- نواورية أعرفه جيدا.. هو صاحب جبار عمر، وهو الذي تبقى من جماعة باجي مختار.

- عواشرية الآن يرتدي ملابسه العسكرية ليصعد إلى النقيب بن سالم لقتل نواورية.

ففزعت لخطورة الأمر وقلت لبوقلاز:

- سي عمارة قل له يبقى في مكانه أنا الذي سأتكلف بقضية نواورية.

وفي هذه اللحظات أقبل الرائد عواشرية بلباسه العسكري وعلامات التجهم بادية على وجهه، فطلب منه العقيد بوقلاز البقاء، وترك الأمر لي. فصعدت إلى النقيب بن سالم واستلمت منه عبد الله نواورية الذي قال لي "عندما قتل جبار عمر التجأت إلى الولاية الثانية خوفا من أن أقتل، لكن قادة الولاية الثانية اتهموني بأني وراء انفصال سوق اهراس عن ولايتهم فجردوني من سلاحي، رجعت إلى القاعدة الشرقية فوضعوني تحت المراقبة"، فقلت له "لا خوف عليك الآن.. سأرسلك إلى تونس لأنّي لا آمن على حياتك هنا".

وأخذت عبد الله نواورية إلى المنطقة الثالثة في القاعدة الشرقية ثم أرسلته إلى المجاهد ربّاح نوار (الذي عرّفني بباجي مختار) في العاصمة التونسية وطلبت منه أن يجد له مكانا يعمل فيه، فأرسله نوار بدوره إلى مركز "السلوم" على الحدود الليبية المصرية والذي اتخذه جيش التحرير مركزا لتجميع الأسلحة القادمة برا من مصر أو من الشرق الأوسط، والتي حولها فيما بعد عبد الحفيظ بوصوف إلى مركز لتدريب الإطارات الجزائرية على الاتصالات، ومن سوء حظ عبد الله نواورية أن عمار بن عودة كلف بقيادة عمليات التسليح والاتصالات على مستوى الشرق الأوسط والذي يقع تحت مسؤوليته مركز السلوم الذي هرّبت نواورية إليه حتى يبتعد عن دائرة الخطر، لكن بن عودة لم يمسسه بسوء.

الهجوم على مركز المشري (20 أكتوبر 1957)

أعطى كريم بلقاسم قائد القوات المسلحة أوامره بتنفيذ هجومات شاملة على مراكز العدو مع التركيز على المناطق الحدودية وتقرر أن تكون هذه الهجومات ليلة 20 أكتوبر 1957، وعلى هذا الأساس كلّف العقيد عمارة بوقلاز مسؤول القاعدة الشرقية قادة الفيالق الثلاثة بالتحضير لهذه الهجومات على أن يركز كل فيلق على مركز من المراكز الفرنسية الواقعة في منطقته.

ووقع اختيار الفيلق الثالث الذي أقوده على مركز "المشري" ليكون الهدف المقبل لهجومنا، فأرسلت الجنود والمخبرين للاستعلام حول هذا المركز من حيث عدد العساكر ومستوى التسليح وأماكن الحراسة والملاجئ والمخابئ والخنادق مستعينين في ذلك ببعض الأهالي، وتوخينا في ذلك السرية والحذر.

ويتميز هذا المركز غير البعيد عن الحدود التونسية بحصانته ومناعته حيث تتركز حوله خنادق وملاجئ للحراسة، أما أسواره فهي عالية يصعب تسلقها.

خطّطت جيدا لهذا الهجوم بعد أن حصلت عن معلومات وافية عن مركز المشري، وارتكزت خطتي على عنصر المباغتة وحصار المركز من ثلاث جهات بحيث لا تكون الفصائل المهاجمة متقابلة حتى لا يصيب المجاهدون بعضهم البعض، على أن يستهدف المجاهدون في البداية حراس المركز الموزعين على أبراج المراقبة المحيطة بمركز المشري، ومن ثم الهجوم على خنادق العدو، والتقدم إلى داخل المركز بعد القضاء على دفاعاته الأمامية، والعمل على احتلاله والاستيلاء على الأسلحة التي بداخله وأخذ بعض الأسرى وحرق المركز قبل مغادرته. وتنظيم كمين للعساكر الذين قد يأتون لنجدة زملائهم، فأرسلت فصيلة لشلّ أيّ رد فعل للمركز المجاور المسمى "قاجلان"، وتمركزت كتيبة بالقرب من "برج مراو (الحمري)، أمّا بقيّة الوحدات فتوجهت إلى الهدف مباشرة.

وفي حدود الساعة العاشرة ونصف ليلا هاجمت جميع القوات مركز المشري وقصفته بمدافع الهاون وأمطرت حرس المركز بالرصاص فأُصيب من أُصيب وهرب من هرب، وفيهم من اختبأ في المخابئ والخنادق والأنفاق التي تقود إلى داخل المركز وركبوا مدرعات، وتمكّن المجاهدون من القضاء على الدفاعات الأمامية للمركز بعد أن تم إسكات أصوات الرصاص المنبعثة من أبراج الحراسة ومن الخنادق المحيطة حول المركز والموصولة بأنفاق إلى داخله.

وتقدمت قوات الفيلق الثالث إلى أسوار المركز واحتلت بعض الخنادق والملاجئ المحيطة به، وأمسك أحد المجاهدين بعسكري فرنسي من سترته فقلع هذا العسكري السّترة وفرّ هاربا إلى داخل النفق بعد أن أُصيب بجراح، وتمكّن مجاهد آخر من القبض على ضابط برتبة ملازم فقضى عليه، وردت قوات العدو بقذف المجاهدين الذين تمكنوا من اختراق الحواجز الأمامية والوصول إلى أسوار المركز بالقنابل اليدوية (من نوع قروناد) وقد كانت الأسوار محاطة بالأسلاك الشائكة اللولبية، فسقط أربعة من المجاهدين، وأُصيب آخر بجروح، فأسرعت لإسعاف الجريح وإخراجه من أرض المعركة، غير أنّ عسكريّا فرنسيّا رمى بقنبلة من داخل المركز سقطت تحت الجندي الجريح فاستشهد على الفور بينما أُصبت ببعض الشظايا في وجهي ودخل التراب إلى عيني.

وتمكنا في هذه المعركة من القضاء على نحو 12 عسكريا فرنسيا، وفرّ 25 آخرون من المركز بلباسهم الداخلي إلى سوق اهراس راجلين، وأردنا احتلال المركز خاصة بعد أن تخلصنا من الحراس على الأبراج وفي الخنادق، غير أنّهم واجهوا عدة صعوبات لتحقيق ذلك، فالباب الحديدي للمركز مغلق بإحكام ومدّعم بمدرعة تسنده حتى لا نتمكن من اقتحامه، والأسوار عالية يصعب تسلقها في ظل وجود حامية بالداخل تستعمل القنابل بكثافة خاصة بعد انسحاب الحراس عبر الأنفاق إلى داخل الحامية، وإرسالهم عبر أجهزة الاتصال نداءات استغاثة للمراكز القريبة والتي شرعت في قصف مواقعنا بالمدفعية الثقيلة وفق خطة دفاعية مدروسة مسبقا.

وانسحبنا من المركز بعد أن غنمنا 12 بندقية حربية وبندقية رشاشة من نوع (24 ـ 29)، ومدفع هاون من نوع مورتي 45 وجهازي لاسلكي، في حين استشهد في هذه المعركة 6 مجاهدين وجرح 14 آخرون، وفي الغد أعلنت الإذاعة الفرنسية عن فقدان 17 جنديا من مركز المشري، دون أن تذكر عدد القتلى والجرحى في صفوف عساكرها حتى لا تؤثر على الروح المعنوية للجيش الفرنسي التي تأثرت كثيرا بعد تلقيهم لهزيمة مهينة، بعدما اضطر عساكرهم للفرار مذعورين بملابسهم الداخلية.

وأحدثت هذه العملية صداها الإيجابي في نفوس المجاهدين في القاعدة الشرقيّة، وأدهش الفيلق الثالث بفعاليته القتالية قادة الثورة. وأصبح جيش التحرير في هذه المرحلة قادرا على الأخذ بزمام المبادرة الهجومية والقيام بعمليات تضم كتائب وحتى فيالق. الأمر الذي كان متعذرا في العام الأول للثورة، فقد تضاعفت أعداد جيش التحرير وتحسّن مستوى تسليحه بشكل محسوس بفضل الأسلحة التي كانت تصله من الخارج، والأسلحة التي يغنمها من العدو في عمليات هجومية وكمائن جريئة.

معركة القوارد (1957)

جاءت القوارد من كلمة les gardes forestiers، والتي تعني حراس الغابة. وتحولت مراكز حراس الغابة بعد اشتداد عود الثورة الجزائرية إلى ثكنات محصنة لجيش الاحتلال، ويشبه مركز القوارد إلى حد كبير مركز المشري من حيث درجة التحصين، ولا يبعد عن الحدود التونسية إلاّ بنحو كيلومتر واحد فقط، ولاحظت أنّ هذا المركز الذي يقع في موقع حساس لم يتعرض ولا مرة إلى هجومات جيش التحرير فشرعت في التخطيط لضرب هذا المركز.

وأعددت ثلاث فرق وكلفتها بمحاصرة المركز، ثم هاجمنا الجيش الفرنسي المتحصن بداخله من ثلاث جهات بداية من العاشرة ليلا. وقمنا بضرب حراس المركز الواقفين في أبراج المراقبة بالرصاص، في حين قامت فرقة أخرى بمهاجمة العساكر المتمركزين في الخنادق المحاطة

بالأسلاك الشائكة وقصفهم بقذائف الهاون وأمطرناهم بالرصاص الذي أضاء بنيرانه ذلك الليل المظلم، وفُوجئ العساكر الفرنسيون بهذا الهجوم المباغت خاصة وأنّ مركز القوارد لم يسبق وأن تعرض لهجوم كهذا، وتمكّنا من القضاء على العديد من العساكر الفرنسيين وأردناهم بين قتيل وجريح، وغنمنا مدفع هاون من نوع مورتي 45 وبندقيتين حربيتين وكمية من الذخيرة، وغادرنا المركز بعدما تركنا عساكره في حالة من الخوف والرعب، ووقع في هذه المعركة 4 الشهداء و 16 جريح.

القصة الكاملة لمعركة جبل واسطة ومجزرة ساقية سيدي يوسف

شكّل انتصار جيش التحرير الوطني في معركة "جبل واسطة ضربة قوية للجيش الفرنسي الذي حاول تبرير هذه الهزيمة المذّلة التي قتل له فيها العديد من العساكر ووقع بعضهم في الأسر، باتهام الحرس الوطني التونسي بمساندة جيش التحرير في هذه المعركة وهو ما لم يحدث تماما، بل استُغل كذريعة لقصف قرية ساقية سيدي يوسف التونسية معتبرا بأنّها مركز لجيش التحرير في الأراضي التونسية، غير أنّ زيارة العديد من الوفود الدبلوماسية والإعلامية فضح كذب الادعاءات الفرنسية ومدى وحشية هذه القوات التي استهدفت المدنيين العزل.

وكسبت القضية الجزائرية تعاطف الرأي العام الدولي، في الوقت الذي توالت الهزائم الدبلوماسية الفرنسية على عدة مستويات، وتدخلت كل من بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية لتخفيف حدة الأزمة بين تونس وفرنسا، كما سعى الصليب الأحمر الدولي إلى التوسط لإطلاق سراح الأسرى الفرنسيين لدى جيش التحرير وهو ما وضع الجيش الفرنسي برمته في موقف ضعف وجعل الفرنسيين يعترفون ضمنيا بجبهة التحرير كممثل وحيد للشعب الجزائري. كما اضطروا إلى إيقاف تنفيذ أحكام الإعدام في حق المجاهدين الأسرى الذين يقعون بين أيديهم.

أ - معركة جبل واسطة (11 جانفي 1958)

كان للفرنسيين مركز عسكري متقدم يسمى 28 لا يبعد عن الحدود التونسية سوى بنحو 20 كيلومترا، واعتاد جنوده القيام بدوريات واعتقالات لأبناء الشعب واللاّجئين الجزائريين الهاربين من جحيم الحرب والذين بنوا أكواخا في الحدود الجزائرية والتونسية. ولم يكتف الجيش الفرنسي بتنغيص حياة اللاجئين الجزائريين على الحدود بل كان يسلب منهم أرزاقهم من دجاج وبيض وحتى الغنم والماشية وقوتهم اليومي الذي لا يكاد يسدّ رمقهم، وعمل الفرنسيون على دس مخبرين في أوساط الشعب لجمع المعلومات حول تحركات جيش التحرير الوطني، وعدد أفراده ونوعية تسليحهم خاصة أنّ الحدود كانت منطقة عبور للمجاهدين. وعندما يريد الجيش الفرنسي الاتصال بهم يقوم بحملة اعتقالات تضم هؤلاء المخبرين إلى جانب أبناء الشعب حتى لا يكتشف أمرهم، وازدادت شكاوي الناس من المداهمات الفرنسية والظلم والاضطهاد الممارس ضدهم وكان لابد علينا الرد على همجية الفرنسيين.

عيّنت نائبي موسى حواسنية قائدا للفيلق الثالث بعد أن رُقيت إلى رتبة رائد، وأصبحت عضوا في مجلس قيادة القاعدة الشرقية، لكنّي بقيت على اتصال دائم بالفيلق الثالث، ولم يكن موسى يُقدم على أي أمر قبل استشارتي، وعندما تزايدت شكاوي اللاّجئين من ظلم الجيش الفرنسي ومداهماته المتواصلة لهم، فبلغني موسى. ففكرت جيدا في الأمر واتخذت قرارا خطيرا بمهاجمة الجيش الفرنسي دون إعلام قيادة القاعدة الشرقية، وخططنا لنصّب كمين للكتيبة الفرنسية بالمركز المسمّى 28 وقلت لقادة الفيلق الثالث "لا بدّ من نصب كمين محكم وتوجيه ضربة قوية للفرنسيين، وهذا لا يعني ضرب الحيطان والهرب عند بورقيبة" وكنت أقصد أنه يجب توجيه ضربة نوعية إلى الوحدة الفرنسية وليس مجرد محاصرتهم في مراكزهم المحصنة وإطلاق النار على العدو المختبئ وراء الحيطان التي لا يخترقها الرصاص، ومن ثم الانسحاب إلى الحدود التونسية للاحتماء بها من الهجومات المضادة

التي تشنها القوات الفرنسية باستعمال الطيران والمدفعية، غير أن هناك من قادة الفيلق من تحفظ على هذا الأمر.

غير أن الرئيس التونسي الحبيب بورقيبة في تلك الفترة ضغط مرارا على قادة الثورة لكي لا يقوم جيش التحرير بأي عمليات عسكرية ضد الفرنسيين على الحدود أو على الأراضي التونسية خاصة وأن الفرنسيين هددوا بورقيبة بمتابعة المجاهدين إلى داخل التراب التونسي وفعلوا ذلك مرارا، كما أنّ قادة الثورة ممثلين في لجنة التنسيق والتنفيذ أعطوا أوامرهم بتجنب القيام بعمليات عسكرية على الحدود.

هيّأت ثلاث فصائل مسلحة ودعمت قياداتها بثلاثة قادة آخرين، فالفصيل الأول بقيادة العياشي حواسنية ونائبه بغدوش عبد السلام، الفصيل الثاني بقيادة حمه لولو ونائبه بن علاله، أمّا الفصيل الثالث فبقيادة صالح مسادي المدعو "نهرو" ومعه نائبه مصطفى الوهراني، وتقوم الخطة التي وضعتها على رصد تحركات الكتيبة الفرنسية التي اعتادت التنقل من المركز 28 (أصبح يسمى قرية جبار عمر) إلى المناطق الحدودية أين يتجمع اللاجئون، في حين يتمركز مجاهدو الفصائل الثلاثة في أماكن محصنة طبيعيا بجبل واسطة، وعند مرور عساكر الكتيبة الفرنسية وسط الغابة يتم إمطارهم بوابل من الرصاص وقصفهم بقذائف الهاون.

أخذت كل فصيلة موقعها المحدد حسب الخطة ولم يكونوا يتوقعون أن يقع الفرنسيون في الكمين بتلك السرعة، إذ أنهم وبمجرد أن شاهدوا قوات العدو حتى بدؤوا في إطلاق النار من ثلاث جهات وقصفهم بقذائف الهاون التي شتت صفوف العدو وأوقعت بينهم الكثير من القتلى والجرحى، وأينما حاول العساكر الفرنسيون الهرب من ميدان المعركة إلا ووجدوا نيران المجاهدين تصدهم بقوة، ولم يتركوا لهم سوى منفذ واحد للهروب منه أشبه بعنق الزجاجة وذلك وفق خطة مدروسة، وما إن خرج الفرنسيون من الحصار وفروا عبر عنق الزجاجة حتى وقعوا أمام سدادته، حيث وجدوا فصيلة أخرى من المجاهدين في انتظارهم، وكان "الاستقبال" حارا، إذ فوجئوا بوابل من الرصاص يسدد باتجاههم، ومرت بالعساكر

الفرنسيين لحظات قاتلة، وتعالت أصواتهم بالصراخ وطلب النجدة، ولولا تدخل الطيران الفرنسي وقدوم التعزيزات العسكرية من المراكز الفرنسية القريبة لتمت إبادة الكتيبة الفرنسية بكامل أفرادها، حيث قُتل في هذه المعركة نحو 11 جندي فرنسي، وأُصيب 10 منهم بجراح، ووقع 5 منهم أسرى بين أيدي المجاهدين الذين غنموا أسلحتهم، واستشهد في هذه المعركة 2مجاهدين، أمّا الصّحف الفرنسية فأعلنت عن فقدان 22 عسكري فرنسي (17 قتيلا حسب مصادر أخرى).

معركة الأسرى

انسحبنا من ساحة المعركة وأخذنا معنا الأسرى ثم ابتعدنا عن مركزنا وذهبنا إلى جبل سيدي أحمد على الحدود مع تونس وخشيت أن يعلم التونسيون بأمر الأسرى فيضغط بورقيبة على قادة الثورة لتسليمهم إلى فرنسا لذلك التزمت السرية، وخبّأتهم بعد يومين عند أخي بلقاسم زبيري الذي كان مسؤول مركز عبور أصبح يسمى "مزرعة موسى حواسنية" الواقع داخل الأراضي التونسية، وخبأهم في قبو المركز، وفي نفس الليلة أحضرت ثلاثة أطباء جزائريين تابعين لجيش التحرير من مدينة الكاف التونسية وهم: الدكتور بشير منتوري (طبيب جراح)، والدكتور بوذراع، والدكتور إبراهيم غياط، وقاموا بمعالجة الأسرى الأربعة المصابين، في حين لفظ الأسير الخامس أنفاسه.

- حاولت في البداية إخفاء حقيقة الأسرى حتى لا تتعرض قيادة الثورة لضغوطات بورقيبة، خاصة بعد الاحتجاجات شديدة اللهجة التي تقدمت بها فرنسا إلى تونس، وقد استدعتني لجنة التنسيق والتنفيذ، وكان من بين من التقيتهم عبان رمضان المكلف بالإعلام ورضا مالك وأحمد بومنجل ومحمد يزيد وسألوني عن تفاصيل معركة "القوارد" وقاموا بتسجيل هذا الحديث ثم نشروه فيما بعد في إحدى الجرائد التابعة للثورة، ولكن لجنة التنسيق والتنفيذ لم تسألني عن معركة جبل واسطة ولم يطلبوا مني تسليم الأسرى، ولكن بعد ازدياد الضغوط الفرنسية والتونسية لتحرير الأسرى

قرّرت الدخول إلى الجزائر مع فصيلين من الجنود وعبور "خط موريس حتى لا أصبح مطلوبا لدى السلطات التونسية أو لدى مسؤولي الثورة.

د ـ مجزرة ساقية سيدي يوسف (8 فيفري 1958)

بعد 28 يوم من أسر الجنود الفرنسيين وعجز المسؤولين الفرنسيين والتونسيين عن تحريرهم، قام الطّيران الفرنسي في 8 فيفري 1958 بقصف وحشي لقرية ساقية سيدي يوسف كرد فعل على معركة الواسطة القريبة جدا من ساقية سيدي يوسف والتي كان يسكنها الكثير من اللاّجئين الجزائريين ويتردد عليها أفراد من المجاهدين لاقتناء بعض الحاجيات خاصة أن القرية كان بها سوق أسبوعي والقصف كان في ساعة الذروة، لذلك كان عدد الضحايا كبيرا سواء في أوساط الجزائريين أو في أوساط التونسيين قُدّر بمئات القتلى، فكانت مجزرة مروعة بحق.

حيث قامت طائرات حربية فرنسية من نوع B26 وB27 بقَنْبَلة القرية بوحشية بداية من الساعة الحادية عشر وعشر دقائق ولمدة تفوق ساعة من الزمن، وألقت فيها بأطنان من القنابل، ثمّ أصدرت قيادة الجيش الفرنسي بلاغا تقول فيه أن الطائرات الفرنسية دمّرت مراكز الثوار الجزائريين على بعد كيلومتر ونصف عن قرية ساقية سيدي يوسف وأنّها دمرتها بنسبة 50 بالمائة. فأسرع الصحافيون ومصوروا السينما من التونسيين والفرنسيين والأجانب إلى عين المكان ووجدوا ما أذهلهم: قرية دمّرت بأكملها ودُفن أهلها ومن قصد سوقها الأسبوعي تحت الأنقاض، كما هُدّمت مدرسة القرية وتناثرت فوق أنقاضها أشلاء الأطفال وأدواتهم المدرسية، ولم يوجد أي أثر لأي مركز لجيش التحرير أو لجنوده أو سلاحه، وتأكّد حينها العالم من كذب البلاغات العسكرية الفرنسية.

ثارت ثائرة بورقيبة لهذه المجزرة وانتقد بشدة ما قامت به القوات الفرنسية، ورفعت تونس دعوى إلى مجلس الأمن الدولي في 12 فيفري 1958 تُطالبه بإدانة هذه الجريمة، ونظّم حزب الدستور الجديد مظاهرات في ربوع البلاد رافعا شعارا واحدا "الجلاء" وحاصر

المتظاهرون التونسيون الثكنات الفرنسية المتبقية على الأرض التونسية مطالبين بجلائها بشكل كامل عن بلدهم، وكانت للرئيس التونسي سُمعة دولية خاصة لدى المعسكر الغربي، لأنّه رفض تبني النمط الاشتراكي والدخول تحت نفوذ جمال عبد الناصر، وبعد وقوع المجزرة تدّخل نائب وزير الخارجية الأمريكي "ميرفي" - الذي مازال على قيد الحياة - إلى جانب المسؤول الدبلوماسي البريطاني "بيلي" للوساطة بين تونس وفرنسا، وقابلوا بورقيبة والمسؤولين الفرنسيين لتهدئة الأمور، ورافق هذه التحركات الدبلوماسية ضجّة إعلامية عالمية أربكت السلطات الفرنسية ووضعتها في قفص ضيق، وأخذت القضية أبعادا دولية، وكان ذلك في صالح الثورة الجزائرية.

إنقاذ أحمد بن شريف من الإعدام

عندما كان الرّائد أحمد بن شريف مارا على المنطقة الثانية للقاعدة الشرقية مُتوجها إلى الولاية الرابعة رفقة عدد من المجاهدين في أواخر 1958 ألقت القوات الفرنسية القبض عليهم وحكمت على أحمد بن شريف واثنين من رفقائه بالإعدام، وعندما وصلني الخبر سمحت للأسرى الفرنسيين بكتابة رسائل إلى ذويهم ونشرت بعض الصحف الفرنسية هذه الرسائل وتم التأكد بأنهم لا زالوا على قيد الحياة، وبعدها وجّهت تحذيرا للسلطات الفرنسية من مغبة تنفيذ حكم الإعدام على أحمد بن شريف ورفاقه وهدّدتهم بقتل أسراهم إن هم أعدموا أسرنا.

ورغم أنه لم يحدث تبادل للأسرى إلا أنه في المقابل لم يتم تنفيذ حكم الإعدام على بن شريف، وأُطلق سراحه بعد الاستقلال، أمّا الأسرى الفرنسيين فبعد نحو أكثر من عام من أسرهم تم تسليمهم لممثلي الهلال الأحمر الجزائري بأمر من قيادة الثورة، حيث اتصل بي كل من النقاش، بلهوان، وتومي بصفتهم ممثلين عن الهلال الأحمر الجزائري لاستلام الأسرى الفرنسيين ليتم إطلاق سراحهم فيما بعد في أوائل 1959.

معركة البطيحة (الكاف لعكس)

أرادت السّلطات الفرنسية القضاء بشكل مبرم على المجاهدين المرابطين على سفوح جبال سوق اهراس وسد ثغرات خط موريس التي ينفذ عبرها المجاهدون إلى داخل التراب التونسي، فجمعت جيشا ضخما يقدر تعداده بأربعين ألف عسكري وضابط من قوات المظليّين معزّزين بالحركى ومدّعمين بالطّائرات والمروحيات والمدّرعات العسكرية، وقامت هذه القوات بعمليّة تمشيط واسعة للمنطقة الواقعة جنوب غربي سوق اهراس لتطهيرها من عناصر جيش التحرير الوطني، ودخلت هذه القوات الضخمة في معركة حامية الوطيس مع كتائب الفيلق الثالث المتمركزة بمنطقة البطيحة لكن سرعان ما امتدت رحى المعركة على مساحة تفوق عشر كيلومترات مربعة لتشمل مناطق الكاف لعكس وادي الشحم، العوايد، سفيحلي، وامتدت المعركة على طول سبعة أيام.

بدأت هذه العملية العسكرية الواسعة بقيام الطيران الفرنسي بقصف كثيف للمناطق التي سيتم فيها الإنزال الجوي للجنود، قصد إبعاد المجاهدين عن هذه المناطق، ثم جاءت طائرات الهليكوبتر لنقل الجنود إلى ميدان المعركة، وفي نفس الوقت تقدمت الدّبابات والمدرعات وناقلات الجند إلى أقصى ما يمكنها الوصول إليه في تلك الأراضي ذات التضاريس الوعرة، وقصفت بشدة الأحراش والغابات التي كنا نختبئ فيها مستعملة القنابل الحارقة، وحاولت استدراج كتائب جيش التحرير للدخول معها في معركة كلاسيكية مباشرة، ثم دفعت بقوات اللفيف الأجنبي والحركى إلى قلب المعركة، قبل أن تُهاجم بقوات المظليين الرئيسية.

غير أنّ استراتيجية جيش التحرير اعتمدت بالدرجة الأولى على حرب العصابات والكرّ والفرّ، والهجوم المُباغت والانسحاب السريع وتجنب الدخول في مواجهة مباشرة وشاملة، مع سرعة الحركة ضمن أفواج صغيرة والتحصن بالأماكن الطبيعية الوعرة التي يصعب على الآليات العسكرية الفرنسية الوصول إليها مع الابتعاد عن مرمى نيران الدبابات

والمدافع الفرنسية التي تجد صعوبة في مُجارات الحركة السّريعة لمجاهدي جيش التحرير. وخلال هذا الحصار المضروب علينا سمعت عبر الإذاعة خبر ارتكاب الفرنسيين لمجزرة ساقية سيدي يوسف.

إلاّ أنّ القصف الجوي للطائرات الحربية أرهقنا لعدم امتلاكنا لأسلحة مضادة للطيران، ومع ذلك كنا نرد على الطّائرات الفرنسية بإطلاق النّار من أسلحتنا الخفيفة وتمكننا من إسقاط طائرة هليكوبتر بواسطة بندقية رشاشة من نوع 29.4، وسقط أحد المجاهدين القناصة ويُدعى "محمد التيرور" جريحا في هذه المعركة عندما كان يُطلق النّار على الطّائرات الحربية من بندقيته الرشاشة وهو واقف متحديا تلك الكتل الحديدية الطائرة والتي تنفث لهيبها بوحشيّة على تلك الغابات الخضراء فتُحولها إلى ركام أسود.

ورغم الخسائر الكبيرة التي تكبدتها القوات الفرنسية إلا أنّها كانت مصرّة على مُواصلة القتال إلى غاية إبادتنا في هذه المنطقة، فأحكمت حصارها عليها ودفعت بالفرق العسكرية للحركى القادمة من الجنوب إلى قلب المعركة، ووصلت حدّة القتال إلى حد الاشتباك بالأيدي وبالأسلحة البيضاء بعد أن توغل الجيش الفرنسي في سفوح الجبال والغابات، وهو ما سهّل علينا قنصهم بعد تحييد سلاحي الطيران والمدفعية، وتفاجأت من تمكن أحد الحركى من الوصول إلى مواقعنا الخلفية فعاجلته برصاصة أصابته في جنبه فأردته قتيلا.

وأثناء تلك المعركة مرّت قافلتان محملّتان بالأسلحة قادمتين من الحدود التونسية، واحدة تابعة للولاية الثانية (الشمال القسنطيني). والأخرى تابعة للولاية الثالثة، فوجدت هاتين القافلتين نفسيهما محاصرتين بطوق ناري فرضه عليهما جيش الاحتلال، واشترك جنودهما في المعركة التي كان يخوضها الفيلق الثالث بإطلاق الرصاص صوب قوات العدو والتقدم إلى الأمام، وتمكنتا عبر المناورة من الإفلات من الحصار وإكمال طريقهما، ولكن لا بد وأنّ جيش الاحتلال عرف بأمر قافلتي السّلاح هذه عبر استعلاماته الخاصة لذلك جهّز هذه العملية الواسعة النطاق.

واستشهد في هذه المعركة الكثير من المجاهدين بلغ عددهم 250 شهيدا كان من بينهم السبتي بومعراف والشريف ملاّح، والطيّب جبّار. وتمكّن المجاهدون من القضاء على نحو 160 إلى 170 عسكريا فرنسيا من بينهم ضابط سامي برتبة عقيد يُدعى "روكول" قتل بعد إسقاط طائرته العمودية التي كان يقود من خلالها مجريات المعركة.

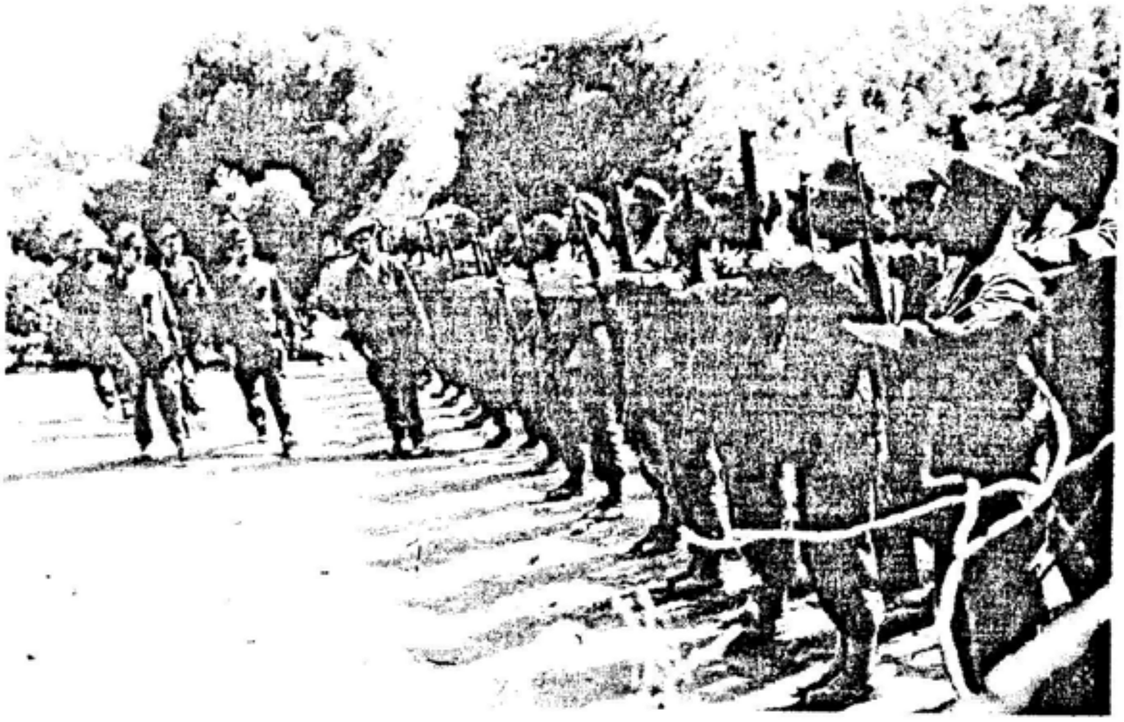

جنود من الفيلق الثالث

تشكيل الفيلق الرابع

أضحى تشكيل الفيلق الرابع للقاعدة الشرقية أمرا ضروريا نظرا لكثافة عبور وحدات الإمداد تدعيما للدفاع حول الحاجز المكهرب وأيضا حرصا على التخفيف من الضغط على الفيالق الثلاثة التي تحملت إلى غاية ذلك الوقت الجزء الأكبر من الجهد المبذول في الإمداد بفضل الاجتياز الدائم لخط موريس وحمايتها لقوافل إمداد الولايات الداخلية بالسلاح.

وكوّن مجموعة من قادة سوق اهراس فيلقا رابعا بالقاعدة الشرقية تشكّل في معظمه من جنود وقادة الفيلق الثالث وذلك في بداية 1958، وقاد محمّد لخضر سيرين هذا الفيلق ومعه ثلّة من القادة أمثال يوسف لطرش، أحمد دراية، شريف مساعدية، صالح مشنتل، وعبد الكريم حمروشي.

وخلال أحد الاجتماعات التي أشرف عليها العقيد عمارة بوقلاز وحضرها نائبه الرائد محمد عواشرية وقادة الفيالق: الرائد شويشي العيساني، الرائد عبد الرحمان بن سالم، وأنا والنقيب محمد لخضر سيرين طالب هذا الأخير أن يكون للفيلق الرابع مسؤولا برتبة رائد ممثلا في مجلس قيادة القاعدة الشرقية على غرار بقية الفيالق، فعيّنه العقيد بوقلاز رائدا، لكنّ سيرين اعتذر عن قبول هذه الرتبة لأنه لم يكن متعلما فاقترح ترقية أحمد دراية إلى رتبة رائد، بحيث يمثل الفيلق الرابع في مجلس القاعدة الشرقية بينما يظل هو نقيبا وقائدا للفيلق.

معركة وادي الشوك

ولكن الفيلق الرابع تعرض إلى هجوم قوي من الجيش الفرنسي بعد نهاية معركة البطيحة عندما أراد دخول الجزائر من الحدود التونسية، وقاد هذا الفيلق يوسف لطرش في حين بقي كل من محمد لخضر سيرين وأحمد دراية وشريف مساعدية متمركزين على الحدود، ودخل جنود الفيلق الرابع عند اجتياز "خط موريس" في معركة شرسة مع قوات العدو في منطقة وادي الشوك، وسقط الكثير من الشهداء، وبعد هذه المعركة تم توزيع ما تبقى من جنود الفيلق الرابع على بقية الفيالق الثلاث الأخرى، كما عزز الجيش الفرنسي " خط موريس" المكهرب بـ "خط شال" الأكثر فتكا وأصبحت مهمة اجتياز الحدود أمرا أكثر صعوبة.

الفصل الحادي عشر

إنقــلاب العقــداء

في أوت 1957 قرّرت لجنة التنسيق والتنفيذ في اجتماعها بالقاهرة ضمّ محمود شريف إلى صفوفها وتكليفه بالشؤون المالية وتعيين نائبه محمد العموري قائدا للولاية الأولى ومعه نوابه أحمد نواورة وعبد الله بلهوشات وصالح بن علي، وبادر كريم بلقاسم وزير القوات المسلحة في 4 آفريل 1958 بإنشاء ما يسمى بلجنة العمليات العسكرية (C.O.M.) قصد توحيد قيادة جيش التحرير الوطني، حيث كانت بمثابة هيئة أركان، وتشكلت اللجنة من:

1 ـ لجنة الشرق: بقيادة العقيد محمدي السعيد قائد الولاية الثالثة، ويساعده محمد العموري قائد الولاية الأولى (الأوراس)، وعمارة بوقلاز قائد القاعدة الشرقية، وعمّار بن عودة ممثّلا عن الولاية الثانية (الشمال القسنطيني).

2 ـ لجنة الغرب: بقيادة العقيد هواري بومدين قائد الولاية الخامسة (الغرب الجزائري)، ويُساعده الصّادق دهيلس قائد الولاية الرابعة.

لكنّ هذه اللجنة وجدت صعوبات مختلفة في عملها نظرا لوجود خط موريس المكهرب على طول الحدود والذي انتهت فرنسا من وضعه بالحدود الشرقية في 15 سبتمبر 1957 ممّا جعل الاتصال بين الدّاخل والخارج متعسّرا، ناهيك عن عدم التوافق بين أعضاء لجنة الشرق، حيث تمسك كل قائد ولاية بنفوذه وسلطته على جنوده في الولاية، ورفضوا التخلي عن جزء من هذا النفوذ لصالح سلطة مركزية قوية للجيش، وهذا عكس ما حصل في غرب الجزائر، حيث تمكن العقيد هواري بومدين (قائد اللجنة الغربية) وعبد الحفيظ بوصوف من خلق الانضباط وتوحيد الصفوف وتحقيق التعاون بين جميع المسؤولين في غرب الجزائر.

وبناء على ذلك اضطّر كريم بلقاسم في 9 سبتمبر 1958 إلى عزل قادة لجنة العمليات العسكرية بشرق البلاد، ونفي عمارة بوقلاز إلى العراق بعد تخفيض رتبته العسكرية من عقيد إلى نقيب، ونفي العقيد محمد العموري إلى السّعودية بعد تخفيض رتبته العسكريّة من عقيد

إلى نقيب، وعين عمّار بن عودة مساعدا لوزير التسليح عبد الحفيظ بوصوف، وأعيد تعيين محمدي السعيد قائدا للجنة الشرق.

خلف أحمد نواورة العقيد محمد العموري على رأس الولاية الأولى فيما تولى محمد عواشرية قيادة القاعدة الشرقية بالنيابة، في حين كان علي كافي على رأس الولاية الثانية.

قيام الحكومة المؤقتة (19 سبتمبر 1958)

بالنظر إلى الانتصارات التي حققتها الثورة الجزائرية على الأرض سواء على المستوى العسكري أو السياسي، وتطور تنظيمها داخليا وخارجيا خاصة بعد أن تمكّنت من تحرير العديد من المناطق، وحُصولها على دعم دولي متزايد من الدول العربية أو الأجنبية وعلى مستوى المحافل الدولية بدأ من المؤتمر الأفرو ـ آسيوي الذي عقد بباندونغ بأندونيسيا في 1955 وصولا إلى مناقشة القضية الجزائرية في الأمم المتحدة رغم معارضة فرنسا، أصبح قادة الثورة يتطلعون لتشكيل حكومة مؤقتة لتوحيد مواقفهم في مواجهة العدّو، وفي أوت 1957 أُثيرت الفكرة من جديد في اجتماع المجلس الوطني للثورة، وقد أجريت اتصالات مع حكومات عربية في هذا الشأن، وفي آفريل 1958 انعقد مؤتمر "طنجة" الذي جمع ثلاث أحزاب مغاربية (الدستور التونسي، الاستقلال المغربي، وجبهة التحرير الوطني)، وتمّ الاتفاق على ضرورة إنشاء حكومة جزائرية والاعتراف بها رسميا.

من جهة أخرى حاولت قيادة الثورة منذ تشكيل لجنة التنسيق والتنفيذ الثانية في أوت 1957 أن يخلق قيادة موحدّة لجيش التحرير قادرة على تمرير السلاح إلى الداخل وذات فعالية في الخارج، كما تم الاتفاق بين كريم بلقاسم وعبد الحفيظ بوصوف ولخضر بن طوبال على التسيّير الجماعي للجيش، وهكذا أصبح الباءات الثلاث يشكلون السلطة الفعلية للثورة.

وفي ظلّ هذه الظروف تمّ الإعلان عن إنشاء الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية يوم الجمعة 19 سبتمبر 1958 على الساعة الواحدة بعد الظهر في نفس الوقت بالقاهرة وتونس والرباط، وكان العراق أول دولة

عربية وأجنبية تعترف بالحكومة الجزائرية المؤقتة التي تَرَأسّها عباس فرحات الذي اخْتير لهذا المنصب نظرا لحنكته السياسية في ميدان المفاوضات ولاعتداله مقارنة ببقية قادة الثورة.

وعيّن كريم بلقاسم نائبا لرئيس الحكومة المؤقتة واحتفظ بمنصبه في لجنة التنسيق والتنفيذ كوزير مسؤول عن القوات المسلحة. أمّا وزارة الاتصالات والمخابرات فكانت من نصيب عبد الحفيظ بوصوف، فيما عادت وزارة الداخلية للخضر بن طوبال.

قيادة أركان جيش التحرير

بعد حلّ لجنة العمليات العسكرية تم خلق هيكل تنظيمي جديد في الفاتح أكتوبر 1958 يتمثل في قيادة أركان الجيش التابعة مباشرة لكريم بلقاسم وزير القوات المسلّحة في الحكومة المؤقتة، وقسمّت إلى فرعين:

- قيادة أركان الجهة الغربية التي تولى قيادتها العقيد هواري بومدين.
- قيادة أركان الجهة الشرقية بقيادة العقيد محمدي السعيد.

غير أنّ هذا التّنظيم الجديد لم يستطع أن يكسب السّلطة اللاّزمة للسيطرة على النشاط العسكري وأدّى هذا الضعف إلى ظهور أزمة داخلية مستعصية سياسيا وعسكريا.

انقلاب العقداء

لم يكن العقيد محمد العموري راضيا عن تعيين محمود شريف في لجنة التنسيق والتنفيذ بل لم يكن متحمسا حتى لتطبيق قرارات هذه اللجنة، وحتى بعد نفيه إلى السعودية وتخفيض رتبته العسكرية استقر في القاهرة وواصل انتقاداته للجنة التنسيق والتنفيذ، واّتصل بالسّلطات المصرية التي لم تكن مطمئنة لإعلان الحكومة المؤقتة برئاسة فرحات عباس الذي لا يجيد التكلم بالعربية والمتشبع بالثقافة الفرنسية، فضلا عن الصراع الخفي الذي اشتعل بين القاهرة وتونس ومحاولة كل طرف بسط نفوذه على قادة الثورة في الداخل والخارج.

اتصل العموري بقيادة الولاية الأولى التي أصبحت تحت مسؤولية نائبه أحمد نواورة وطلب منه أن يرسلوا له سيارة لنقله سراً إلى الحدود فجاءه السائق الذي يُدعى "عمار قرام" إلى ليبيا ونقله إلى الحدود الجزائرية التونسية رفقة أحد أنصاره الذي يدعى مصطفى لكحل المبعد هو الآخر إلى القاهرة، واجتمع العقيد العموري مع عدد من قيادات الولاية الأولى بالإضافة إلى قادة القاعدة الشرقية وعلى رأسهم عواشرية الذين كانوا غاضبين على قرارات كريم بلقاسم والحكومة المؤقتة، وضم هذا الاجتماع ثمانية وعشرين إطارا كان من بينهم العقيد أحمد نواورة والرائد عواشرية، والرائد بلهوشات، والرائد صالح السوفي، والرائد العيساني، والنقيب عباس غزيل، ومحمد شريف مساعدية، وصالح قوجيل، وأحمد دراية، وكان من المفترض أن أكون حاضرا في هذا الاجتماع بحكم منصبي في القاعدة الشرقية إلاّ أنّني كنت حينها مريضا أعالج لدى الطبيب فرانز فانون بتونس.

وجرى هذا الاجتماع الحسّاس دون إخطار الحكومة المؤقتة وتمخّض عنه قرارات خطيرة تمثلت في ضرورة إرسال كوموندوس إلى مقرّ الحكومة المؤقتة في تونس واعتقال بعض الوزراء وعلى رأسهم كريم بلقاسم ومحمود الشريف، وفرحات عبّاس وحتى بوصوف وبن طوبال وغلق الحدود الشرقية مع تونس، خاصة وأن الولاية الأولى والقاعدة الشرقية تمتدان على طول الحدود، ومنع عبور الأسلحة والجنود إلى داخل الجزائر قبل تسوية الأمور، وهو ما يعني أن هذا الموقف سيشكل خطورة على الثورة الجزائرية.

غير أنّ السائق الذي نقل العموري إلى الحدود (كان سائقا لبلهوشات) أبلغ كريم بلقاسم بالمؤامرة التي تدبر ضدهم، فتحدث كريم مع الرئيس التونسي لحبيب بورقيبة حول هذا الاجتماع الذي يُدبّر على الأراضي التونسية وكان يريد إعطاء أوامره لإلقاء القبض على قادة الولاية الأولى والقاعدة الشرقية المجتمعين في مدينة الكاف التونسية خاصة وأن فيلقا من جنود الولايات على الحدود كان يخضع لسلطته، لكنّ بورقيبة رفض أن يدخل الإخوة الفُرقاء في مواجهات مسلّحة على أرضه وشدّد على أن الحرس الوطني التونسي هو الذي سيقوم بهذه المهمة.

فتدخل الحرس الوطني التونسي يوم 16 نوفمبر 1958 وحاصر مكان الاجتماع واعتقل جميع المشاركين فيه باستثناء ثلاثة تمكنوا من الفرار وهم: أحمد دراية، وعبد السّلام (المكلّف بالمخابرات في القاعدة الشرقية) وصالح السوفي، لكن هذا الأخير عاد في الغد وأعلن تبرّؤه من هذا الانقلاب مؤكدا أنه لم يكن يعلم بموضوع الاجتماع الذي دعا إليه العموري، بينما عاد عبد السّلام إلى القاعدة الشرقية بعد أن أُصيب بجراح على مستوى اليد، وأبلغ عبد السّلام ودراية الرائد عبد الرحمان بن سالم بما جرى فتعاطفوا مع قائدهم عواشرية ومع العقيد العموري ونواورة.

محاكمة جماعة اجتماع الكاف

شكلّت الحكومة المؤقتة محكمة عسكرية تَرّأسها العقيد هواري بومدين وعيّن علي منجلي وكيلا للثورة، أمّا الصّادق دهيلس وقايد أحمد فعُيّنوا كمستشارين لرئيس المحكمة، وعلي مشيش، وعبد العزيز زرداني (من الولاية الأولى)، وفلوح (من الولاية الرابعة) محلفين، ووُجّهت لهذه الجماعة تُهم عدم الطاعة والتآمر على الثورة ونشر أسرار بنية مقصودة وتحطيم معنويات الجنود والعمل الانحرافي.

وطلب العقيد العموري توكيلي كمحامي للدفاع عنه، وبلّغني كريم بلقاسم رغبة العموري وقال لي "ستكون محامي وإذا لم تكن أنت فسنعين محام من عندنا"، لكني تفاجأت لهذا الطلب وسألت نفسي "كيف يمكن أن أدافع عن هذه الجماعة التي تعتبرهم الحكومة المؤقتة متمردين!"، فقد كنت أرى أنّ هذا التمرد له أسبابه، لكن أن يتسبب ذلك في الإساءة إلى الثورة ويشكّل خطرا عليها فهذا أمر لا يمكن قبوله، وطمأنني كريم بأنّ الأمر عادي ولا يدعو للقلق.

ذهبت إلى المحكمة التي نصبتها الحكومة المؤقتة في بلدة "قنبلاط" التونسية، واصطحبت معي خمس محامين آخرين وهم: محمد شبيلة، ومحمد أوشارف (طبيب أسنان)، عبد المالك (أصبح رئيس دائرة بعد الاستقلال)، يوسف الصيد (أصبح عقيد في الجيش بعد الاستقلال)،

وأحمد بودربة (أصبح سفيرا في السنيغال بعد الاستقلال) ولُقّبت حينها بعميد المحامين بحكم أقدميتي في الجهاد ورتبتي العسكرية الأعلى مقارنة ببقية المحامين.

رافعت بشدة من أجل إنقاذ العموري ومن معه من حكم الإعدام رغم علمي أن الأحكام قد اتخذت مسبقا في حق العموري بالأخص، ولكنّي مع ذلك سعيت لإقناع هيئة المحكمة لتخفيف الأحكام ضد موكلي، وأشرت إلى أن الكثير من الأخطاء والتجاوزات وقعت في العديد من مراكز المسؤولية في قيادة الثورة.

واتهم العموري كريم بلقاسم باستغلال مكانته باعتباره التحق بمجموعة الستة المفجرين للثورة الذين لم يبق منهم من ينشط في الميدان سواه، واتّهمه كذلك بتغليب النزعة الجهوية ومحاولة فرض سيطرة إطارات الولاية الثالثة على جميع الهياكل الحسّاسة في الثورة، ووصف محمدي السعيد قائد لجنة العمليات العسكرية بالضعف في القيادة وأنّ كريم هو الذي يُحاول تغطية أخطائه لأنّه من نفس الجهة، أمّا عن محمود شريف فانتقد ترقيته بسرعة إلى مسؤول منطقة ثم قائد ولاية فعضو لجنة التنسيق والتنفيذ في ظرف أقل من عام من التحاقه بالثورة.

أمّا وكيل الثورة علي منجلي فوصف هذه المواقف بالتآمر وبالخطأ الذي لا يُغتفر، وكال لهم أقذع الصّفات مضيفا أنّ المخطّط الذي دبّروه كان يهدف للقضاء على الثورة، وطالب رئاسة المحكمة بتسليط أقصى العقوبات على هؤلاء المتآمرين.

وامتدّت الجلسات والمرافعات على طول خمسة عشر يوما بحضور بعض الصحافيين، وفي آخر جلسة أعلن رئيس المحكمة العقيد هواري بومدين انتهاء المحاكمة ورفع الجلسة دون إصدار الحكم الذي كانت هيئة الدفاع والمتهمين ينتظرون سماعه، ومع ذلك اعتقدوا أنّ هناك جلسة أخرى سيعلن فيها عن الأحكام النهائية ضدّ المتهمين، غير أنّ الذي حدث أن الأحكام صدرت ولم تعلم بها هيئة الدفاع إلاّ من خلال إحدى النشريات التابعة لجبهة التحرير الوطني.

وأشرف على إعداد ملفات التحقيق النقيب أحمد بن شريف الذي كان مسؤولا عن نظام الحدود الشرقية (C.D.F.)، في حين تكفل الملازم الثاني عبد المجيد علاهم بحراسة المتهمين في سجن قنبلاط، أمّا الرائد إيدير مدير الشؤون العسكرية لدى ديوان وزير القوات المسلحة كريم بلقاسم، فقد قام بالتعاون مع ديوان عبد الحفيظ بوصوف وزير التسليح والتموين والمخابرات بتوفير مختلف الوسائل المادية والإدارية.

وقضت المحكمة الثورية بإعدام العقيد محمد العموري والعقيد أحمد نواورة والرائد محمد عواشرية والرائد مصطفى لكحل، وتم تنفيذ حكم الإعدام في اليوم التالي، أمّا بقيّة المتهمين بالمشاركة في المؤامرة على الحكومة المؤقتة أمثال: عبد الله بلهوشات وأحمد دراية ومحمد شريف مساعدية وغيرهم من الضباط فقد تم سجنهم إلى غاية 1960، ثم أطلق سراحهم وكُلّف الرائد عبد العزيز بوتفليقة المدعو عبد القادر المالي بقيادتهم في مهمّة في جنوب الصحراء الجزائرية التي دخلوها عبر مالي، وهناك أطلقوا على إحدى المناطق الخالية في أقصى الصحراء برج باجي مختار تيمنا باسم أول قائد لمنطقة سوق اهراس وأحد رجال مجموعة 22 التي فجرت الثورة.

العلاج لدى فرانز فانون

في نهاية عام 1958 أُصبت بإرهاق شديد بسبب تفاعلات حرب التحرير وتطلب الأمر نقلي إلى تونس لمعالجتي، ومكثت في المستشفى الإيطالي بتونس نحو ثلاثة أسابيع، وتولّى الطبيب الفرنسي من أصول إفريقية يُدعى "فرانز فانون" معالجتي، حيث كان يشغل رئيس مصلحة الأعصاب في ذلك المستشفى، وكان "فانون" إلى جانب تخصصّه في الطب رجلا مثقفا ومناضلا متعاطفا مع الثورة الجزائرية إلى أقصى الحدود وله كتاب مشهور بعنوان "المعذبون في الأرض"، وعمل مع عبان رمضان في مجال الإعلام المتعلق بالثورة وله مقالات منشورة في صحف تابعة لجبهة التحرير.

وبعد خروجي من المستشفى مكثت في بيتي في تونس بضعة أيام للنقاهة قبل أن يستدعيني وزير القوات المسلحة في الحكومة المؤقتة كريم بلقاسم لإنقاذ الموقف في القاعدة الشرقية بعد تمرد فيالقها الثلاث بما فيهم الفيلق الذي كنت أقوده، وذلك عقب محاكمة "المتآمرين" على الحكومة المؤقتة.

تمرد فيالق القاعدة الشرقية

بعد نفي العقيد عمارة بوقلاز إلى العراق (بقي في سوريا ولم يلتحق بالعراق) وسجن نائبه الرائد محمد عواشرية والرائد شويشي العيساني أصبحت القاعدة الشرقية بدون قائد يشرف على قيادة فيالقها التي أصبحت تابعة بشكل مباشر لقيادة الأركان وهو ما لم يستسغه معظم قادة الفيالق وجنود القاعدة الشرقية واتهموا كريم بلقاسم قائد القوات المسلحة بتصفية إطارات القاعدة الشرقية والولاية الأولى لأسباب جهوية فقرروا التمرد على قيادة الأركان وعلى وزير القوات المسلحة في الحكومة المؤقتة وأعلنوا العصيان.

أما الفيلق الثالث الذي كان على رأسه موسى حواسنية فقد أعلن جنوده وإطاراته تمردهم هم أيضا على كريم بلقاسم رغم معارضة النقيب موسى حواسنية لهذا الموقف، فقرروا عزله وعينوا مكانه الزين نوبلي كقائد للفيلق ويساعده كل من حمه لولو وحمه شوشان مستشار قائد الفيلق.

وفي النصف الثاني من عام 1959 استدعاني كريم بلقاسم وطلب مني أن أتصل بقيادات فيالق القاعدة الشرقية وتوضيح الأمور لهم والتأكيد على أن المؤامرة كانت تدبر ضد الحكومة المؤقتة وأنه يملك التسجيلات التي تدينهم وبإمكانه عرضها عليهم، فأخذت معي كلا من الرائد بلعشاري وعبد العزيز زرداني (كان في ديوان كريم بلقاسم)، وتوجهنا إلى المنطقة الثالثة أين يتمركز الفيلق الثالث، وفوجئت بحدوث انقلاب على قيادة الفيلق، حيث نُحي موسى حواسنية من قيادة الفيلق، وقُيد الملازم الثاني العياشي حواسنية قائد كتيبة، كما عزلوا شقيقي بلقاسم زبيري عن قيادة أحد المراكز على الحدود.

ولم أجد القائد الجديد للفيلق الثالث الزين نوبلي في المركز فطلبت من نائبه حمه لولو أن أنتظره قليلا ريثما يعود، لكن الوقت طال ولم يعد، فقررت مغادرة المكان والتوجه إلى الفيلق الثاني عند الرائد عبد الرحمان بن سالم ثم إلى الفيلق الأول في القالة الذي تولى قيادته بعد اعتقال شويشي العيساني النقيب محمد مازوز على أن يعودوا بعد ذلك إلى مركز قيادة الفيلق الثالث، لكن حمه لولو استوقفني قائلا "لا .. لن تخرج حتى يأتي الزين"، فاندهشت لجرأة هذا الضابط الذي تناسى أنه كان يوما ضابط صف صغير تحت قيادتي المباشرة ولم يكن حينها سوى قائد فصيلة، ومع ذلك انتظرت مع كل من بلعشاري وزرداني عودة الزين نوبلي الذي رجع وتحادث معي باحترام وإنصات وأخبرته أن كريم بلقاسم مستعد لأن يراكم ويؤكد لكم بالدليل أن انقلابا كان يُحضر له، فأخبرني الزين أن الفيلق الثالث متضامن مع بقية الفيالق الأخرى وأن ما يتم الاتفاق عليه مع الفيلقين الأول والثاني فإن الفيلق الثالث يؤيده بدون تحفظ"، وشكوت للزين سوء تصرف حمه لولو الذي منعنا من المغادرة رغم أننا أخبرناه بأننا لا بد راجعون لإتمام مهمتنا، فاستدعى الزين حمه لولو وأنبه على تصرفه ذاك، وكان حمه لولو بعد هذه الحادثة عندما يراني يتأسف لما بدر منه.

ذهبت ومرافقي إلى مركز الفيلق الثاني الذي يقوده عبد الرحمان بن سالم وتحادثنا عن "حركة العقداء"، وأبلغته رغبة كريم بلقاسم في مقابلة قادة الفيالق لتوضيح الأمورلهم، لكنه رد علي بكلمة واحدة "عواشرية وين هو؟"، فأجبته "أنه معتقل". كان عواشرية صديقه ورفيقه الذي تقاسم معه الصعاب منذ هربا من ثكنة البطيحة مع عدد من المجندين في الجيش الفرنسي، لذلك صعب عليه أن يعتقل صديقه دون أن يفعل شيئا لإنقاذ حياته، وبعد أخذ ورد قبل بن سالم مقابلة كريم بلقاسم، من أجل العمل على تسوية الأمور، والتفت حينها لأرى أحمد دراية في المركز بعد أن تمكن من الهرب من الاجتماع الذي اعتقل فيه العموري وجماعته.

وانتقلت بعدها إلى الفيلق الأول في القالة الذي اعتقل قائده شويشي العيساني في نفس القضية وأقنعت مسؤولي الفيلق بلقاء وزير القوات

المسلحة في الحكومة المؤقتة، وكما كان الحال التقى مسؤولو الفيالق الثلاثة بكريم بلقاسم في مدينة الكاف، وانتهي التمرد سياسيا بعد نحو شهرين من العصيان وتم العفو عن أحمد دراية، وكذلك حدث مع الولاية الأولى التي تمردت بها عدة كتائب احتجاجا على اعتقال قادتها وإطاراتها أمثال العموري ونواوره وبلهوشات، وقد تمكن صالح السوفي من الإفلات من الاعتقال واللجوء إلى جيش الولاية الأولى على الحدود.

معركة سيدي فرج

أراد كل من كريم بلقاسم، عبد الحفيظ بوصوف، ولخضر بن طوبال تحقيق انتصارات عسكرية على العدو الفرنسي قبل عقد المؤتمر الثالث للمجلس الوطني للثورة فقصدوا الحدود واجتمعوا ببعض القادة الميدانيين وكلفوهم بالقيام بعمليات عسكرية على الحدود وكنت من بين هؤلاء القادة فأخذت معي كتيبة مشكلة من 116 جنديا من جيش الحدود من بينهم سليم سعدي الذي كان يشرف على تدريب هذه الكتيبة في المدرسة الحربية لتدريب ضباط وجنود جيش التحرير بملاق، وحملت الكتيبة أسلحة حربية خفيفة ومتطورة وتقدمت باتجاه الحدود.

وحاولت الكتيبة اجتياز خط شال المكهرب وتركت خلفها فوج من الجنود المزودين بمدافع الهاون لحماية ظهورهم، غير أن دورية فرنسية مرت بالمنطقة واشتبكت معنا فأمطرناها بقذائف المدافع من وراء الخط المكهرب وبرصاص البنادق الرشاشة المتطورة التي أربكت عناصر الدورية، ودمر جيش التحرير ثلاث دبابات بمن فيها، وبعد مدة من الاشتباك توقف تبادل إطلاق النار ولم يعد يسمع سوى صوت جهاز الإرسال، لقد أبيدت الدورية الفرنسية بأكملها، ولم تحتمل كثافة النيران الموجهة إليها من مدافع من نوع 55 . 57 غير المرتدة والأسلحة الرشاشة. فالأسلحة والذخيرة كانت متوفرة بشكل كافي على الحدود وبنوعية جيدة غير أن قادة الثورة في الخارج وجدوا صعوبات جمة لإدخال هذه الأسلحة إلى الولايات بسبب خطي موريس وشال المنصوبين على طول الحدود الشرقية والغربية والمعززة بعشرات الآلاف من العساكر.

وتمكنت هذه الكتيبة من دخول التراب الجزائري مع حلول المغرب بعد أن تدخلت فرقة تقنية لإحداث ثغرة في الخط المكهرب عبر قص أسلاكه الشائكة وفي الوقت نفسه كانت المدافع من وراء الخط جاهزة لرد أي هجوم ثان، ولحسن حظ هذه الكتيبة لم ينفجر أي لغم على أفرادها، فانسحبت ومعي فصيلة من الجنود إلى الأراضي التونسية بعد أن تعهدت لقادة هذه الكتيبة بأنني سألحق بهم بعد رجوعي من طرابلس.

ولكن هذه الكتيبة تعرضت لعملية عسكرية واسعة في نفس الليلة ودخلت في اشتباكات مسلحة، وأظهرت هذه المعركة فعالية السلاح المتطور حتى ولو كان خفيفا في حسم المعارك مع العدو الذي بدا ضعيفا وهو يواجه هذه القوات المدربة بشكل جيد والتي تحمل أسلحة رشاشة ومعززة بالمدفعية، وهو ما جعل قيادة الثورة تلح على ضرورة إدخال هذه الأسلحة إلى الجزائر، بالإضافة إلى الكتائب التي تم تدريب جنودها في المدارس العسكرية التابعة لجيش التحرير بالحدود.

عدت لمقابلة القادة العسكريين على الحدود ونحن منتشون بهذا النصر، وقابلت حينها كلا من كريم بلقاسم ولخضر بن طوبال في "بيرانو" وقدمت لهما تقريرا حول مجريات هذه المعركة التي أُصبت فيها بجروح، وحضر هذا اللّقاء الرائد إدير مدير الديوان العسكري لكريم بلقاسم والذي تحدث فيه عن شجاعة سليم سعدي وعن إقدامه في هذه المعركة بعد أن أدخل كتيبة إلى داخل الجزائر متجاوزا "خطّ شال" ، فرد عليه بن طوبال مشيرا إليَّ "هذا مسؤول ومجروح لم يقل شيئا وأنت تتكلم عن سليم سعدي"، فصمت الرائد إدير.

القضاء على تمرد جيش الحنبلي (ديسمبر 1959)

تمرد علي الحنبلي على الولاية الأولى بعدما كان تحت قيادة عبد الله بلهوشات، الذي انضم لمجلس قيادة الولاية الأولى، في حين تحصن الحنبلي بجبل سيدي أحمد على الحدود الشرقية، ضمن المنطقة الثالثة

في القاعدة الشرقية التي كانت تحت قيادتي في وقت من الأوقات، وحاولت الاتصال بالحنبلي قصد إقناعه بالانضمام إلى صفوف القاعدة الشرقية أو العودة إلى الولاية الأولى وذكّرته بصداقتنا أيام الصغر، لكن بدون جدوى حيث استطاع الحنبلي تجميع عدد من المجاهدين المتمردين والغاضبين على قادتهم حتى كاد عددهم يبلغ فيلقا كاملا (قرابة 600 جندي)، وحاول العقيد محمدي السعيد الاتصال بعلي الحنبلي وكان يعطيهم المؤونة والألبسة وحتى منحا للجنود بغية استمالته وإعادته إلى نظام الثورة، ولكن جيش الحنبلي دخل في اشتباكات مسلحة مع جيش التحرير وحتى مع الحرس الوطني التونسي واشتكت السلطات التونسية من تجاوزات جيش الحنبلي الذي كان يبتز المواطنين التونسيين ويستولى على بعض المؤن والأموال والمواشي، فشكل العقيد محمدي السعيد المدعو "سي ناصر" وحدات مسلحة من مدارس التدريب في تونس (قرن الحلفاية، ملاق، ومدرسة التلغيم) معززة بالأسلحة الثقيلة (المدفعية) بعدما يئس من إمكانية إعادة دمج هذا الفيلق في نظام الجيش بعد عدة محاولات فاشلة، وقامت هذه الوحدات بدك معاقله، وشتت جنوده، فهرب الحنبلي إلى قوات الاستعمار رفقة عدد من جنوده فيما سلم بعضهم أنفسهم لجيش التحرير، وهذا قبيل انعقاد مؤتمر طرابلس في 16 ديسمبر 1959، والذي تقرر فيه تعيين محمدي السّعيد وزير دولة في الحكومة المؤقتة بدون حقيبة وتوحيد قيادة الأركان الشرقية والغربية تحت قيادة العقيد بومدين.

لكن علي الحنبلي لم تهن عليه نفسه فبعد أن كان مجاهدا في جيش التحرير أصبح خائنا في جيش الاحتلال فقرر التوبة والعودة مع مجموعة من الحركى ظنا منه أنه استطاع إقناعهم بالالتحاق بالمجاهدين وفي الليلة التي قرروا فيها الهرب إلى الجبال قام الحركى بقتله وإبلاغ الفرنسيين عن محاولته للرجوع مجددا للثورة قبل قتله.

اجتماع قادة الولايات بالولاية الثالثة (6 ـ 12 ديسمبر 1958)

تمكن معظم قادة الولايات من تنظيم لقاء بينهم في الفترة ما بين 6 و12 ديسمبر 1958 بالولاية الثالثة بمبادرة من العقيد عميروش بقصد دراسة الأوضاع السائدة بداخل الجزائر والتعرف على الحلول الممكنة لفك العزلة المضروبة حولهم من طرف القوات الفرنسية التي عرقلت عمليات الاتصال بالخارج.

وحضر هذا اللقاء إلى جانب العقيد عميروش كل من الرائد الحاج لخضر عبيد قائد الولاية الأولى بالنيابة وسي محمد بوقرة قائد الولاية الرابعة، وسي الحواس قائد الولاية السادسة، في حين غاب العقيد علي كافي قائد الولاية الثانية والعقيد لطفي قائد الولاية الخامسة وذلك لشكوكهما حول رغبة العقيد عميروش في تزعم الثورة من الداخل. وأثار هذا الاجتماع مشكل تقصير الحكومة المؤقتة في إيصال الأسلحة إلى الداخل وهي النقطة الجوهرية التي ركز عليها المجتمعون، كما أثار الحاج لخضر مشكل المتمردين بالولاية الأولى الذين أسماهم بالمشوشين وتقرر إرسال كتائب من الولايتين الثالثة والرابعة لتأديب المناوئين في الولاية الأولى.

وبعد انتهاء الاجتماع أرسلوا شخصا يدعى أوصديق لرفع انشغالات عقداء الداخل إلى القيادة في الخارج، وعلى إثر هذا اللقاء استدعت الحكومة المؤقتة مسؤولي الولايات لعقد اجتماع في تونس، وأثناء توجههم لحضور المؤتمر وقعت معركة كبيرة بين فرقة من جنود جيش التحرير تتكون من 40 جندي وضابط وبين 2500 عسكري من قوات العقيد الفرنسي "ديكاس"، وفيها استشهد العقيد عميروش والعقيد سي الحواس بعد استماتة في الدفاع، وذلك يوم 29 مارس 1958 بجبل ثامر بالقرب من بوسعادة، ولسوء الحظ فقد استشهد العقيد سي محمد بوقرة في 5 ماي 1958 في الولاية الرابعة وبذلك تكون الثورة قد خسرت ثلاثة عقداء بارزين من قادة الولايات في أقل من أربعين يوما.

مؤتمر طرابلس (16 ديسمبر 1959 . 18 جانفي 1960)

في الفترة الممتدة من 16 ديسمبر 1959 إلى 18 جانفي 1960 اجتمع أعضاء المجلس الوطني للثورة بمقر البرلمان الليبي بطرابلس وقاموا بدراسة عميقة للوضع السياسي بالجزائر واتخذوا إجراءات دقيقة تتعلق بالاستراتيجية العسكرية وتنظيم وتدعيم إمكانيات جيش التحرير الوطني الجزائري، وفي هذا الإطار قرر أعضاء المجلس الوطني للثورة الجزائرية إعادة تشكيل الجهاز الحكومي وأوصوا بإنشاء لجنة وزارية مشتركة للدفاع الوطني ضمن الحكومة تتشكل من الباءات الثلاث بلقاسم كريم، بن طوبال لخضر، بوصوف عبد الحفيظ وتلحق بهذه اللجنة مباشرة قيادة الأركان التي تم توحيدها تحت قيادة العقيد الهواري بومدين ويساعده كل من الرائد علي منجلي والرائد أحمد قايد والرائد عز الدين زراري، وانتقد علي منجلي في هذا الاجتماع منح الضباط الفارين من الجيش الفرنسي مسؤوليات رفيعة في جيش التحرير وطالب بأن يقتصر دورهم على التدريب والجوانب الفنية، وتقرر في هذا الاجتماع تنظيم الجنود على الحدود وإدخالهم إلى الجزائر، والتأكيد على ضرورة أن يلتحق قادة الولايات بمراكزهم في الداخل، وتدعيم الولايات بالإطارات.

تكليفي بمراقبة الحدود الشرقية

قبل انعقاد مؤتمر طرابلس استدعاني كريم بلقاسم وزير القوات المسلحة وعرض علي تنصيبي كنائب لقائد أركان القوات المسلحة في الناحية الشرقية، لكني اعتذرت عن قبول هذا المنصب وأصررت على أن يسمح لي بالرجوع إلى داخل الجزائر لمواصلة حرب التحرير ميدانيا. ووافق كريم على هذا الطلب.

وقد شاركت في اجتماع لمجلس الثورة لأول مرة بصفتي عضوا جديدا في مجلس الولاية الأولى "الأوراس" التي أصبحت تحت قيادة العقيد الحاج لخضر عبيد ولكن بعد 12 يوما من الاجتماعات المتواصلة استدعاني كل من كريم بلقاسم وعبد الحفيظ بوصوف، وطلبا مني أن أتولى مراقبة

القوات على الحدود الشرقية في مكان محمدي السعيد وبدلا من الرائد إدير - الذي تجاوزته الأمور - إلى غاية انتهاء اجتماع مجلس الثورة، وأوصياني بضرورة ضبط الأمور على الحدود خاصة بعد حدوث مناوشات بين أفراد من جيش التحرير والحرس الوطني التونسي، حيث اضطربت الأمور على الحدود ولم يتمكن الرائد إدير من التحكم في الموقف ورفضت عدة وحدات من جيش التحرير الانصياع لأوامره خاصة وأنه من الضباط الفارين من الجيش الفرنسي الذين لم يكونوا يحظون بشعبية كبيرة في أوساط المجاهدين رغم كفاءتهم وانضباطهم العسكريين، بالإضافة إلى إصرار إيدير على إجبار مجاهدي الولاية الأولى والقاعدة الشرقية على دخول المدارس الحربية والاستفادة من التدريب العسكري وهو ما رفضه معظم المجاهدين بعناد.

وقرر الرئيس التونسي لحبيب بورقيبة اتخاذ عدة إجراءات لفرض سلطته على كامل التراب التونسي كمنع عناصر جيش التحرير من التحرك في المدن التونسية بلباسهم العسكري وبأسلحتهم وبدون رخصة، والضغط على قادة الثورة لوقف تجاوزات بعض أفراد جيش التحرير الذين اعتادوا أخذ بعض المؤن من المواطنين التونسيين بغير رغبة منهم وهو ما احتج عليه بورقيبة وأدى إلى تحرك محجوب بن علي قائد الحرس الوطني التونسي وتكثيف اتصالاته مع قادة الثورة للحد من هذه التجاوزات، بل وصلت الأمور إلى حد قطع الماء والكهرباء على وحدات جيش التحرير المرابطة على الحدود.

رافقني محمد شبيلة وتوجهت إلى الحدود ثانية لإعادة النظام على الحدود، واتصلت بقادة كتائب جيش التحرير الموزعين على طول الحدود الجزائرية التونسية واستمعت لشكاويهم المتمثلة في إطلاق سراح زملائهم الذين اعتقلتهم قيادة الأركان أو الذين هم في السجون التونسية كما طالبوا بتقديم منح لهم ولعائلاتهم، وعملت على تهدئة نفوس المجاهدين، كما اتصلت بالمسؤولين التونسيين وعلى رأسهم الرائد عبد الجليل المكلف بالحدود التونسية الجزائرية وطمأنتهم بأنني سأضبط

الوزارية المشتركة للحرب وأعضاء المجلس الوطني للثورة، وبالرغم من أن هذا المطلب منطقي من الناحية النظرية إلا أنه يصعب تنفيذه عمليا، فليس من السهل إقناع قادة الولايات بالداخل أن يسيرهم ويوجههم قادة الخارج، كما أن دخول قيادة الأركان إلى الداخل يعني فقدانها لسلطاتها على جيش الحدود الذي تمكنت من بسط نفوذها عليه حتى أصبحت تنافس اللجنة الوزارية للحرب من حيث النفوذ.

وتمثلت استراتيجية قيادة الأركان الجديدة لإخماد التمردات هنا وهناك بإنشاء محاكم ثورية على الحدود الشرقية وتحويل المتمردين والمحتجين من الجنود والضباط إلى هذه المحكمة التي عادة ما كانت تقضي بإعدامهم، وهو ما أكسب قيادة الأركان سطوة ورهبة في النفوس وخضعت لها الفيالق على الحدود، واستطاعت حينها أن تسكت أصوات الفتنة على الجبهة الشرقية وتتفرغ لمقارعة العدو.

قنـــــاة الجزائـــــر
algeriachannel.net

الفصل الثاني عشر

مهمة مستحيلة

صعوبة اجتياز خطي شال وموريس

شكل خطا شال وموريس حائطا اصطناعيا قاتلا على الحدود الشرقية والغربية، وكان له نتائج سلبية على الثورة الجزائرية حيث أدى إلى عرقلة تدفق الأسلحة من الخارج إلى الداخل، وتكدسها في تونس والمغرب وليبيا ومصر في الوقت الذي كان فيه المجاهدون في أمسّ الحاجة إلى السلاح والذخيرة مع تزايد أعداد الملتحقين بالثورة، ولم يعد يصلهم إلا كميات شحيحة من السلاح مما ضاعف الضغط على المجاهدين في الداخل وجعلهم يتهمون قادة الخارج بالتقصير، والأخطر من ذلك أن آلاف المجاهدين استشهدوا وهم يحاولون عبور هذين الخطين المكهربين، إذ أن الكتيبة المشكلة من 120 مجاهد عندما تحاول عبور خطي شال وموريس لإيصال السلاح إلى الداخل فإنه لا ينجوا منها سوى ما يقارب النصف من المجاهدين فقط الذين يتمكنون من تجاوز الحاجز القاتل، في حين يستشهد النصف الآخر، وإن لم تكن هذه الأرقام دقيقة ولكنها تعطينا صورة عن حجم الصعوبات والتحديات التي واجهها المجاهدون أمام "خط ماجينو الجزائر"، الذي أدى إلى تضاعف عدد المجاهدين على الحدود التونسية المغربية حتى تجاوز عددهم مجاهدي الولايات العسكرية الستة مجتمعين، وصعب من مهمة التحاق القادة العسكريين بمراكزهم في الداخل كما حدث بعد مؤتمر طرابلس الذي انتهت أشغاله في جانفي 1960 إذ لم يتمكن أي قائد ولاية من عبور خطي شال وموريس باستثناء العقيد لطفي لكنه استشهد أثناء عملية العبور.

ونظرا لكثرة الشهداء الذي يسقطون عند محاولة اجتياز "حاجز الموت"، أصبح خطا شال وموريس يؤرقان قادة الثورة ورجالها، خاصة بعد أن تسبب ذلك في عدة تمردات كتمرد الحنبلي وجنوده الذين رفضوا اجتياز الخطين لأن فرص النجاة كانت ضئيلة، ورغم الإمكانيات الهائلة التي سخرها الجيش الفرنسي لمنع تدفق السلاح والرجال من الحدود إلى داخل الجزائر، إلا أن جيش التحرير كان له من البدائل ما أفسد على الفرنسيين خططهم، حيث

أبراج المراقبة والرادارات

تتركز أبراج المراقبة على التلال والمرتفعات قرب الخطين لمراقبة الممرات في النهار، أما المراكز العسكرية التي توجد في مواقع متقدمة أمام الخطين وبينهما وبالقرب من الحدود فمزودة بمدافع طويلة المدى ويمكن التحكم بها آليا بواسطة الرادارات المجهزة بالأشعة فوق البنفسجية وتحت الحمراء، وبمجرد أن يكشف الرادار حركة غير طبيعية تطلق المدافع قذائفها آليا تجاه النقطة التي حددها الرادار.

الإصرار على عبور خط الموت

تهيّأت لعبور الحدود والالتحاق بمركز قيادة الولاية الأولى، وشرعت في التحضير لهذه العملية المحفوفة بالمخاطر باختيار أنسب مكان للعبور، وفي هذه الفترة زارني العقيد هواري بومدين والرائد عز الدين زراري بالقرب من تاجروين وأخبرتهما عن نيتي في اجتياز الخطوط المكهربة، وكان حينها بومدين يتفقد وحدات جيش التحرير على الحدود ويجس نبض الأوضاع في الجبهة الشرقية التي عرفت عدة انفلاتات أمنية، وهي المرة الأولى التي يشرف فيها بومدين على هذه الجبهة الساخنة، لكنه تمكن بحنكته السياسية والعسكرية وصرامته التي لا تعرف التردد من ضبط الأمور على الحدود.

وبالنسبة للولاية الأولى التي أصبح على رأسها العقيد الحاج لخضر عبيد رسميا بعد اجتماع طرابلس وبعد إعدام قائديها السابقين أحمد نواورة ومحمد العموري، فقد أصبح مجلس قيادتها يتكون من: الرائد مصطفى مراردة (بقي في الأوراس وقاد الولاية الأولى بالنيابة خلال غياب الحاج لخضر أثناء انعقاد مؤتمر طرابلس)، الرائد علي سويعي (شارك في مؤتمر طرابلس وتمكن من العبورإلى مركز الولاية في فيفري 1960)، وأنا (شاركت في مؤتمر طرابلس ودخلت مركز الولاية في ماي 1960)، بالإضافة إلى الرائد عمار راجعي (شارك هو الآخر في المؤتمر الثالث لمجلس الثورة لكنه استشهد أثناء عبورنا خط موريس)، إذن فلم يكن من

قادة الولاية الأولى في الداخل سوى مصطفى مراردة الذي كان يقود الولاية بالنيابة، وكان لا بد على بقية قادة الولاية أن يلتحقوا بالداخل طبقا لتوصيات مجلس الثورة، ولكن خطي شال وموريس كانا يشكلان عائقا رئيسيا لاجتياز الحدود إلى الداخل.

المحاولة الأولى : **حراسة مكثفة بضواحي الونزة**

حاولت اجتياز الحدود ما بين الونزة وبوخضرة رفقة الرائد عمار راجعي بمرافقة جنودنا لكن المنطقة كانت خطرة نظرا لكثافة الجيش الفرنسي بها نظرا لوقوعها بين القاعدة الشرقية (سابقا) والولاية الأولى. واختبأت مع الجماعة التي اخترتها لتُشاركني هذه المخاطرة في أحد الأكواخ لتجنب أعين مخبري المخابرات الفرنسية المدنسة وسط أبناء الشعب على الحدود، ثم انطلقنا من جبل بوجابر بالحدود التونسية الجزائرية حاملين معنا الأسلحة إلى أن وصلنا إلى غاية خط شال، فتمكنا من اجتيازه بسلام وتوجهنا إلى خط موريس الذي يمتد وراء جبل بوخضرة فتفطن لنا العدو وحاول تطويقنا، فرجعنا إلى مراكزنا على الحدود في انتظار الفرصة المناسبة للعبور.

من جهة أخرى استطاع الرائد علي سويعي رفقة مجموعة من جنودد العبورإلى الجزائر من أ قصى الجنوب عند التقاء خطي شال وموريس.

كما استطاع فوج المنطقة السادسة للولاية الأولى تحت قيادة جدي مقدا د وعثمان جلالي ومحمد الهادي رزايمية اجتياز خطي شال وموريس بالعبور من المنطقة التي يلتقي فيها الخطان في نواحي "بكارية" جنوب تبسة .

المحاولة الثانية : **الدليل الذي أخطأ الطريق**

سمعت بأن الرائد سويعي تمكن ومن معه من عبور خطي شال وموريس والدخول إلى الولاية الأولى عبر نقطة التقاء الخطين في الجنوب، فقرّرت أنا الآخر اجتياز الحدود من نفس المكان، فأرسلت لي المنطقة الجنوبية

لقيادة الأركان دليلا ليرافقنا، وتكفل شخص يُدعى "سعيد بوخالفة" وهو مسؤول بالمنطقة (يشتغل محام حاليا) بتوفير ما تحتاجه جماعتنا.

وتوجهت مع جماعتي إلى منطقة "مداس" أقصى جنوب الحدود التونسية الجزائرية بعد أن ارتحنا أسبوعا كاملا عقب محاولتنا الأولى لاجتياز الخطوط المكهربة، وسألت الدليل عن أقرب مكان نجد به الماء في طريقنا عند العبور، فأخبرني أنه يوجد نبع ماء على بعد عشر كيلومترات من تلك الخطوط، ثم الرجوع للتحصن بجبل "أم علي".

سرنا مع المغرب إلى أن وصلنا إلى أحد الجبال على الحدود فصعدنا إلى قمته وتراءى لنا عن بعد خط شال ومراكز الحراسة الممتدة على طوله والتي لا يبعد فيها كل مركز عن الآخر إلا بنحو ثلاث كيلومترات تزيد أو تنقص حسب طبيعة الأرض، ونزلنا من أعلى الجبل للعبور من المنطقة الواقعة بين مركزي الحراسة، ولسوء الحظ أخطأ الدليل الطريق بعد أن غربت الشمس وبدأت ظلمة الليل تزحف بهدوء لتغطي المكان. ومشينا بين خط شال والحدود التونسية في الوقت الذي كان علينا اجتياز الخط. ولم أكتشف هذا الخطأ غير أن الرائد عمار راجعي الذي كان يعرف المنطقة أحس بأننا ضللنا الطريق فقال للدليل "لقد أخطأت الطريق..أنظر فذلك هو جبل أم علي وهناك بلدة نقرين"، فرد عليه بنرفزة "أنت الدليل أم أنا!"، فمشت الجماعة ردحا من الزمن باتجاه الشمال في حين كان الخط جهة الغرب لكن راجعي عاد وقال للدليل "أنت مخطئ"، فقلت له "يا سي عمار هذا دليل، وهو الذي يدلنا وإن كنت تعرف الطريق جيدا تفضل ودلنا عليها" فسكت عمار راجعي ثم قال للدليل متهكما "تقدم..تقدم، في الصباح سنلتقي العساكر الفرنسيين ونسألهم عن الطريق".

بعد مسيرة طويلة في الليل اكتشف الدليل أنه أخطأ الطريق فعلا، فأعلمني بذلك، ولم يكن الوقت كافيا للعودة ومواصلة الطريق باتجاه الخط فقد اقترب بزوغ الفجر في حين ابتعدنا عن الطريق، فاتخذت قراري بالرجوع إلى المركز الذي انطلقنا منه.

المحاولة الثالثة : **العقيد دهيلس لم يتمكن من مواصلة السير**

بقينا عشرة أيام في مركز مداس بالجنوب التونسي للراحة بعد أن أُصيب بعض الجنود بالإحباط النفسي وفيهم من تفسخت رجلاه من طول المشي، فقمت باستبدال الرجال المتعبين والمرضى بآخرين لديهم الاستعداد النفسي والجسدي للمغامرة باختراق "خط الموت"، وفي هذه الأثناء قرّر العقيد الصادق دهيلس القائد السابق للولاية الرابعة وعضو لجنة العمليات الحربية (المحلة) الدخول هو الآخر إلى الولاية الرابعة. فأخبروه بأني أحضر نفسي مع مجموعة من الجنود لاجتياز خطي شال وموريس ويمكنه مرافقتنا.

قصدني العقيد دهيلس وأعلمني أنه سيدخل معنا إلى الجزائر، فسألته "هل ستأتي معنا وحدك بلا جنود؟" فرد دهيلس بالإيجاب، وبعد ثلاثة أيام أخذ كل جندي وضابط معه سلاحه وذخيرته وبعض الزاد وأدوات لقطع الأسلاك الشائكة، وانطلقنا وكلنا استعداد لاجتياز الخطين مهما كان الثمن، وسرنا جنوبا باتجاه الصحراء، ومشينا على أرض رملية مليئة بجحور الجرذان والأفاعي، ومن حين لآخر كانت أرجلنا تغوص في أحد الجحور فيخرج الجرذ أو الثعبان مذعورا ولحسن حظنا أن أحذيتنا الجلدية المتينة لا تُؤثر فيها عضات هذه الحيوانات السامة.

بعد مدة طويلة من المشي أُرهقنا ونفذ منا الماء في هذه الصحراء القاحلة، فسمحت للجنود والضباط بالاستراحة خمس دقائق فقط، ثم أمرتهم بمواصلة المسير، لكن العقيد دهيلس ناله الإعياء بشكل لم يستطع بعده مواصلة الطريق معنا فقال لي: "ماقدرتش.. أنا نرجع"، وفُوجئت لهذا القول خاصة وأنه جاء من ضابط هو الأعلى رتبة بيننا فرددت عليه "هل تعي ما تقول؟ أنت بهذه الطريقة ستُضعف معنويات الجيش"، لكن دهيلس أصرّ على العودة من حيث أتى ملمّحا لي بأنه أعلى رتبة عسكرية مني وبالتالي فلا يمكنني منعه من الرجوع، فقلت له "إذن إرجع"، فطلب مني أن أرسل معه جنديا لمرافقته في طريق العودة، فالتفت إلى جندي من سدراته يُقال له "اسماعيل" يحمل معه بندقية آلية، فقلت له "إرجع مع العقيد"، فرد

علي "لو التفتَ إلى الشرق لوصل إلى تونس" فأصررت عليه بالرجوع مع العقيد، لكنه اشترط أن لا يسلم سلاحه لنا، فقبلت ذلك، ورافق العقيد دهيلس إلى أن أوصله إلى التراب التونسي.

قرابة ساعة من الأخذ والرد بيني وبين العقيد دهيلس والجندي ضاعت من وقتنا الثمين، وواصلنا طريقنا إلى أن بلغنا خط "شال" وكانت حينها الساعة الثانية والنصف ليلا، بحثت عن شعبة أو مكان مناسب لحفر حفرة تحت الخط لاجتيازه بأمان، لكنني وجدت أن الوقت الذي يستغرقه السير من الخط المكهرب إلى نبع الماء البعيد بعشر كيلومترات، ثم العودة للتحصن بجبل أم علي البعيد بعشر كيلومترات أخرى وقت طويل، ويكون النهار حينها قد طلع وبالتالي فإنه سيسهّل على جيش العدو اكتشافنا وحصارنا وأنا بذلك أُعرّض حياة المجاهدين للخطر الأكيد، خاصة وأن هذه العملية أصبحت انتحارية وبدون أدنى أمل للنجاح، فقررت الرجوع من حيث انطلقنا.

نعم.. شربنا بولنا حتى لا نموت عطشا

في هذه المرة وصلنا إلى درجة شديدة من العطش والإعياء بسبب الحرارة الشديدة في تلك الصحراء القاحلة، وكان لا بد علينا أن نجد مكانا نختبئ فيه، فالحدود التونسية مازالت بعيدة ونحن في أرض مكشوفة بلا جبال ولا غابات، ممّا قد يجعلنا صيدا سهلا للأعداء، ووجدنا بعض الشعاب الصغيرة اختبأنا فيها، وبينما جلست لأستريح من التعب بعد أن نال مني العطش ما نال اقترب مني المجاهد عبيد راجعي (ابن عم الرائد عمار راجعي وصهره) وقال لي بصوت خافت "الجماعة راهم شربوا من بولهم"، فقلت في نفسي وقد اشتد بي العطش "ولِما لا، والله أنا ثاني نجرب"، فاستدرت جانبا وبلت في فنجان من الألمنيوم، ثم شربت منه قليلا، فوجدته مالحا ورائحته نتنة وعافته نفسي فلم أقدر على شربه.

واستشهد أحد المجاهدين يُدعى "عمار" في الطريق بسبب الإعياء والعطش، وتخلف ثلاثة مجاهدين عن المجموعة ولم يقدروا على مواصلة

السير، فوقع أحدهم أسيرا لدى الأعداء، في حين تمكن اثنان من الإفلات واللحاق بنا بعد أن خف لهيب الشمس مع المساء، وبقي معي عشرون جنديا يلهثون ويأكلون الثرى من شدة العطش والإجهاد، ومن حين لآخر يسقط أحدهم على الرمال الحارقة بعد أن خارت قواهم. فأصبح عليهم للتحرك ومواصلة الطريق حتى لا يقعوا أسرى في أيدي العدو، وفي بعض الأحيان أضطر لتعنيفهم لإرغامهم على عدم الاستسلام لقساوة الطبيعة ولنفاذ الزاد، وبقينا على هذه الحال نجري مع الشعاب بحثا عن الماء إلى أن وصلنا إلى مكان مبلول فتأكدنا من وجود الماء وبدأنا نحفر بالخناجر التي توضع في مقدمة البندقية (البايونات) حتى وجدنا الماء فملأت قنينة ماء وابتلعت الماء برمله وطينه بلعا من شدة العطش، ومع ذلك لم يطفئ لهيب ظمئي فشربت ست قنينات ماء أخرى، وكنت أشرب وأتقيأ لأن المياه كانت مختلطة بالرمل وساخنة لشدة الحرارة وكذلك فعل بقية الجنود، في حين واصل البقية طريقهم إلى الجبل للاحتماء به.

حملنا معنا بعض الماء وقصدنا الجبل لكن الطائرات الحربية للعدو لحقت بنا وبدأت تقصفنا بضراوة، وأخذت أدفع الجنود المرهقين وأطالبهم بالإسراع للاحتماء بالجبل، وما إن وصلنا إليه حتى اختبأنا بين أشجاره وشعابه، فلم تتمكن طائرات العدو من النيل منا. فقد كانت الجبال والغابات الحصن المنيع الذي تتكسر على صخورة هجومات الطائرات الحربية الفرنسية.

المحاولة الرابعة : **العقيد الحاج لخضر يخفق في إدخال ثلاث كتائب إلى الجزائر**

استرحنا عشرة أيام أخرى بعد هذه الرحلة المهلكة، ثم توجهت إلى مزرعة موسى حواسنية الذي خلف شقيقي بلقاسم هذا الأخير أصبح نائبا سياسيا لقائد الكتيبة السابعة التابعة لقيادة الأركان، وكانت المزرعة مركزا لجيش التحرير بالقرب من الحدود التونسية الجزائرية، لاختيار بعض المتطوعين من الجنود الذين كانوا يستريحون في هذا المركز الذي يأوي

الجنود المرضى والجرحى والمتعبين، وبعد أن اخترت عددا من المتطوعين لاستبدال ما نقص من فوجي وأخذت معي المؤن عدت إلى مركزي السابق للتخطيط مجددا في كيفية اجتياز الحدود.

وفي هذه الأثناء لحق العقيد الحاج لخضر عبيد بنا في الجنوب التونسي، بعد أن سمع هو الآخر بتمكن الرائد علي سويعي من اجتياز الحدود والوصول إلى مركز الولاية الأولى، وقرر عبور الحدود من نفس النقطة. وقاد معه نحو 380 جنديا وضابطا مدججين بالأسلحة الخفيفة والمتوسطة، وحملوا معهم أربع مدافع غير مرتدة وبازوكات، وكل جندي يحمل معه قطعتي سلاح و250 خرطوشة وقنينة ماء وجراب محمل بالأكل بالإضافة إلى القنابل والقذائف، فقد خرج الحاج لخضر من الأوراس جائعا مع نقص السلاح والذخيرة. فإذا به يجد أسلحة آلية ورشاشة لدى جنود جيش التحرير على الحدود وبشكل كافي، فخاطبهم ساخطا "كل هذه الأسلحة عندكم يا خونة، وإخوتكم يموتون بأيديهم هناك".

وتفاجأت للعدد الكبير من الجنود المحملين "بالأثقال" والذين يريد الحاج لخضر إدخالهم دفعة واحدة إلى الجزائر، فقلت للعقيد ناصحا "يا الحاج بهذه الطريقة لن نمر، لابد من تقسيمهم إلى وحدات صغيرة" فرد علي الحاج لخضر بتحد:

"إما أن أدخل بهذا الجيش أو لا أدخل".

فقد عزَّ على الحاج لخضر أن يترك كل هذه الأسلحة على الحدود في الوقت الذي يوجد المجاهدون في الداخل في أمسِّ الحاجة لهذه الأسلحة، ولم يكن أمامي سوى الخضوع لتعليمات قائدنا، ولكنّه في قرارة نفسه كان يحس بأن معركة كبيرة ستقع عند عبور الخط وأن الكثير من الشهداء سيسقطون فيها.

وتحدثت مع العقيد الحاج لخضر حول محاولاتنا السابقة لاجتياز الخط والصعوبات التي واجهناها في هذه المنطقة بالذات ونصحته بالتحرك مع المغرب حتى لا يتمكن العدو من رصدنا، فقام الحاج لخضر بنفسه باستطلاع منطقة العبور بعد أن تسلل من الغابة وصعد

إلى أعلى الجبل المطل على خط شال واطلع على مراكز المراقبة التابعة للعدو ثم رجع إلى مركز تجمع قواته لرسم خطة للعبور.

وقبل إعطاء أوامره للجيش بالتحرك قال الحاج لخضر لنا "سأقود الصفوف الأولى والرائد زبيري يكون في الصفوف الوسطى والرائد عمار راجعي يكون في الصفوف الخلفية"، ومشى الجيش في سلسلة متقطعة تمتد على طول أكثر من كيلومتر، وتخلص العديد من الجنود من بعض الأسلحة والذخيرة لتخفيف الحمل الذي أثقل كاهلهم، وعندما وصل الجيش إلى قمة الجبل أعطى العقيد الحاج لخضر أوامره للجنود بالنزول من الجبل والمشي عشر كيلومترات في الصحراء وصولا إلى خطي شال وموريس المتجمعين على شكل خط واحد في تلك المنطقة، لكن شبكة المخابرات الفرنسية في تونس تمكنت من معرفة تحركات جيش الحاج لخضر وأعلمت قيادتها في الجزائر بذلك، وتمكن العدو من رصدنا، وشرع في قصفنا بالمدافع بغزارة، فتفرق الجنود واستشهد البعض وأُصيب البعض الآخر بجروح، فأعطى الحاج لخضر أوامره بالرجوع، وعلم حينها صعوبة اجتياز الخطوط المكهربة بأعداد كبيرة من الجنود المحملين بـ"الأثقال"، واكتشف جيش الاحتلال أن تلك النقطة هي منطقة عبور لجيش التحرير إلى الداخل فعزز من إجراءات المراقبة عليها، أما الحاج لخضر فبعث إلى قيادة الأركان التي أرسلت إليه الشاحنات التي نقلت الجنود إلى شمال تونس.

المحاولة الخامسة والأخيرة : ليلة العبور التاريخية

رغم فشل أربع محاولات لاجتياز الحدود إلا أنني كنت مُصرا على دخول الجزائر مهما تطلب ذلك من تضحيات، خاصة وأنني التزمت أمام كريم بلقاسم قائد القوات المسلحة بدخول الجزائر، ولم يكن هذا الأمر بالنسبة لي قابلا للمناقشة رغم علمي بالصعوبات والمخاطر التي تحيط بهذه العملية، لكني أردت أن أستشهد إما على خط شال أو في داخل الجزائر إن تمكنت من دخولها، وعزّ علي أن أموت بعيدا عن الأرض التي

استشهد فيها الكثير من المجاهدين والأبطال، فالحياة لم تعد تعني لي الكثير، والموت كان بجنبي في كل لحظة خاصة وأن إخواني أمثال: مصطفى بن بولعيد وجبار عمر وإبراهيم طايبي والسبتي جبار وبومعراف زُفت أرواحهم إلى بارئها فتاقت نفسي إلى الشهادة وهان أمامي كل شيء.

أردت اقتحام خطي شال وموريس منفردا، ولكني وجدت أن من مصلحة الثورة أن آخذ معي بعض الجنود ومعهم بعض الأسلحة لدعم إخواننا في الداخل بالسلاح والرجال ولو بالشيء القليل، فتحدثت مع الرائد عمّار راجعي في الأمر وقلت له "سنعبر من المكان الأصعب على الحدود والذي لا يمكن للجيش الفرنسي أن يتوقعه، فليس أمامنا ما نخسره"، لم تكن الحياة وهي أغلى ما نملكه تعني لنا شيئا، وماذا يعني الموت لمن جاء يطلب الشهادة ؟! وكما قال الشاعر: "أنا إن مت فلتَحيَا الجزائر".

قمت بتغيير جنديين من الكوموندوس الذي كان تحت قيادتي وهما؛ موسى قروم ولخضر مصابحية اللذان أُرهقا بشكل كبير خلال مغامرة الصحراء التي كادوا يهلكون فيها عطشا وإرهاقا إلى درجة أنهم كانوا يمسحون بطونهم على الرمل، واستقدمت أربعة جنود آخرين لتعويضهما، وتعويض الجندي الذي استُشهد والرابع الذي أسر، ثم أرسلت في طلب شاحنة إلى بلدة مداس التونسية أين كنا مختبئين وأخذنا معنا رجال الكموندوس إلى المنطقة الشمالية من الحدود وبالضبط إلى جبل بوجابر ما بين قلعة سنان (جبل مشكل من ثلاث رؤوس على شكل أسنان) وجبل بوخضرة، واختبأنا في هذا الجبل حتى لا يرانا الناس ويصل خبرنا إلى عُملاء الاستعمار، وارتحنا في ذلك الجبل يوما أو يومين، وكان معي رجال كموندوس أشداء لا يهابون الموت ويستسهلون الصعاب أمثال الرائد عمّار راجعي، والمجاهد زيدان الكواشي (من عرش الكواوشة) الذي عبر خطي شال وموريس مرارا، والمجاهد رابح ماجرالو والمجاهد معوش، وهؤلاء الرجال الأربعة هم الذين كُلّفوا بقطع الأسلاك الشائكة والقيام بالأعمال الفنية، وبعثت إلى صالح السوفي أطلب منه أن يرسل لي ثلاثةّجنود من أبناء المنطقة التي كان يقودها لمعرفتهم الجيدة بطبيعة الأرض التي سنعبر منها

إلى داخل الجزائر، وأرسل لي صالح السوفي ما طلبته ولكنه قال لي "إن ما تريد القيام به هو المستحيل بعينه، فمن الصعب اجتياز الخطين المكرهبين من هذه المنطقة بالذات".

جلست ومعي رجال الكموندوس لدراسة خطة اختراق خطي شال وموريس، المشكلين من حقول ألغام مربوطة بخيوط سلكية رفيعة بمجرد أن تدوس عليها ينفجر لغم قافز أو مضيء يدعى "الفوشيكا"، ويبقى معلقا في السماء نحو نصف ساعة عبر مظلة ومن خلاله يستطيع العدو تحديد مكان الاختراق فيرسل بقواته إلى المكان، كما تُوجد أجهزة رادار خاصة لتحديد التحركات البشرية ومدفعية مصوبة تلقائيا بمجرد أن تشير أجهزة الرادار الإلكترومغناطيسية إلى وجود محاولة عبور حتى تبدأ في إطلاق القذائف، ومن طرائف هذه الحرب أنّ بعض الحيوانات البرية كالذئاب والأرانب عندما تدوس على هذا الخيط تنفجر هذه القنابل المضيئة فيستنفر الجيش الفرنسي قواته البرية والجوية ويقصف المنطقة بالمدافع الموجهة إلكترونيا، وفي نهاية المطاف يكتشف أن العدو مجرد حيوان بري استنفذ منهم الكثير من الأعصاب والذخائر.

وبالإضافة إلى الأ لغام المضيئة هناك حقول من الأ لغام المضادة للأفراد وأخرى مضادة للجماعات المزروعة إلى جانب الأ لغام المضيئة والتي أوقعت الكثير من الخسائر في صفوف المجاهدين وأُصيب العديد منهم بجراح وإعاقات حركية، علاوة على الأضواء الكاشفة.

احتطت لأمر الكمائن التي يُنصّبُها العدو وراء الخط فأرسلت بعض رجال الكموندوس لتحسس الوضع والتأكد من عدم وجود العساكر الفرنسيين في الخنادق، فاقتربوا من خط شال وشرعوا في مراقبة الخنادق بواسطة منظار وتأكدوا من خلو المكان من الكمائن وذلك لعدم وجود الشاحنات العسكرية التي تأتي مساء لحمل العساكر إلى موقع الكمين الذي يتغير من مكان إلى آخر على طول كل خمسة كيلومترات.

انطلقنا في مهمة مستحيلة لاجتياز خط شال وكان علي إيجاد الخيط الرفيع للإنذار أولا لتفادي انفجار القنابل المضيئة، غير أن كثافة

الحشائش في المنطقة وظلمة الليل صعّبت علينا مهمة إيجاد هذا الخيطَ المعدني، ولكن تجربة بعض المجاهدين وخبرتهم في اجتياز خطي شال وموريس مكّنتنا من اكتشافه وقطعه بهدوء بمقص، ثم واصلنا مشينا بهدوء الواحد خلف الآخر بعد تجاوزنا حقل الألغام بسلام إلى حائط الأسلاك الشائكة، ولم يكن مربوطا بالتيار الكهربائي فبدأنا بقطعه بمقص كبير "سزاي" ولاقينا عدة صعوبات في قصه، وبعد تجاوزنا للحاجز الثاني وصلنا إلى الحاجز الثالث وهو عبارة عن أسلاك شائكة لولبية لا يمكن قصها ولكنها غير مكهربة، فقمنا برمي قشابياتنا فوق هذه الأسلاك التي يتجاوز علوها 5,1 م، ثم مررنا عليها، ووصلنا إلى الحاجز الرابع المتمثل في الخطوط الشائكة المكهربة والمشكلة من ثماني أسلاك فوق بعضها. فقام المجاهدون بقص خمس منها بـ"سزاي" وبسرعة لأن العدو وبمجرد لمس هذه الأسلاك تصله إشارة بوجود محاولة تسلل إلى الأراضي الجزائرية، وبمجرد قصّها تُصدر وميضا أخضر؟ وتصبح غير مكهربة، واجتاز المجاهدون هذا الخط بسهولة رغم خطورته.

ووصلنا إلى الطريق المعبد الذي تمر عبره دوريات العدو المكلفة بحراسة الأسلاك الشائكة وعلى بعد نحو 30 مترا كانت هناك خنادق مكشوفة يتحصن بها العساكر الفرنسيون خاصة عندما تقع محاولة لاجتياز الخط، فيتركون المجاهدين يتجاوزون حواجزه إلى أن يصلوا إلى مرمى نيرانهم ثم يطبقون عليهم بالرصاص، وقطعنا هذا الطريق بهدوء وحذر وكانت الساعة حينها تشير إلى الواحدة والنصف بعد منتصف الليل، ومررنا على إحدى السبخات ذات الأرضية الزلقة قاصدين جبل بوخضرة للاحتماء به بعد اجتياز خط موريس.

واكتشف الجيش الفرنسي وجود محاولة اختراق لخط شال من المنطقة الواقعة بين عين زرقة والمريج القريبتين من مدينة الونزة، فأرسل وحداته العسكرية لملاحقتنا قبل اجتيازنا لخط موريس، ولاحظت على بعد نحو أربع كيلومترات ثلاثةأرتال عسكرية قادمة من الونزة ومدينة الكاف التونسية التي بقيت فيها قاعدة عسكرية، مُتجهة

صوب جبل بوخضرة الذي كنا سنقصده، حيث توقع الجيش الفرنسي أن نلجأ إلى هذا الجبل بعد اجتيازنا الخط المكهرب، فغيرت تكتيكنا لأنني توقعت أن يكون الجيش الفرنسي الذي سيُرسَل إلى جبل بوخضرة للقيام بعملية عسكرية تمشيطية أكثر كثافة منه في المناطق القريبة من الخط، كما أنّ الجيش الفرنسي لم يقم بعملية تمشيطية لمكان الاختراق كما اعتاد القيام بذلك، بل على العكس سحب القوات الزائدة عن مراكز حراسة الخط لزجها في عملية التمشيط الواسعة لجبل بوخضرة، وكان ذلك في صالح الخطة التي رسمتها.

سألت الجنود عن المسافة التي تفصلنا عن برج المراقبة فقيل لي أنه لا يبعد سوى كيلومتر واحد، فأمرتهم بالذهاب بالقرب من برج مراقبة العدو والاختباء في وادي هناك، فاقتربنا من البرج الذي كان به عساكر فرنسيون، واختبأنا غير بعيدين عنهم دون أن يشعروا بنا، وكنا نستمع إلى شتائم الحراس الفرنسيين وهم يلعنون هؤلاء "الفلاقة" الذين أقضوا مضاجعهم بالليل والنهار، ولم يشعروا بأننا على بعد أمتار قليلة عنهم.

ولما طلع الفجر سرنا بخفة إلى أن وصلنا إلى "وادي هريهير" فنزلنا إليه واختبأنا تحت أشجار الطرفة الكبيرة حتى لا تكتشفنا الطائرات الحربية الفرنسية، وشربنا ماء المزن (الأمطار) المتجمعة في شكل بقع مائية، ومن هذا المكان شاهدنا القوات الفرنسية وهي تقصف جبل بوخضرة بالمدافع والطائرات وتزج بعساكرها في خضم معركة وهمية، وأشعل الفرنسيون النار في الجبل وتصاعد الدخان إلى السماء وسمعنا أصوات البارود والمدافع رغم أننا كنا خارج نطاق عمليتهم العسكرية.

بعد حلول الليل أنهى جيش الاحتلال عمليته التمشيطية في جبل بوخضرة وتقدم إلى الأمام لتمشيط الجبل القريب منه معتقدا بأننا قد تمكنا من الإفلات ثانية وأننا واصلنا طريقنا إلى الجبل الآخر، في حين تحركنا وسرنا باتجاه جبل بوخضرة الذي غادره جيش الاحتلال، وبذلك استغفلنا الفرنسيين مجددا، حيث تقدموا إلى الأمام وتركونا خلفهم، وقبل الوصول إلى الجبل قصدنا دوار "أولاد سيدي عبيد" الذي كنت أزوره كل عام عندما

كنت صغيرا لحضور زردة سيدي عبيد، ومشينا نحو عشر كيلومترات للوصول إلى هناك، واجتازنا خطا سلكيا شائكا مهملا يمتد من العوينات إلى بلدة بكارية على طول أحد الجبال (حوالي 40 كيلومترا)، ولم نلق صعوبات كبيرة في اجتيازه إذ مررنا تحت هذا السلك المكهرب عبر إحدى الشعاب التي حفرت مياه الأمطار مجرى تحته سهل علينا عملية عبوره.

وواصلنا السير إلى أن وجدنا أكواخا مهجورة وبالقرب منها شجرتي "عين بقرة" مثمرتين لكن ثمارهما لم تنضج بعد فأكلنا منها رغم حموضتها، واسترحنا في هذا المكان خمسة أيام نتقوت من بعض الزاد الذي حملناه معنا في مهمتنا المستحيلة هذه على أمل أن ييأس الجيش الفرنسي من البحث عنا أو يبتعد بعملياته التمشيطية عن أماكن تحركنا، في حين كان جيش الاحتلال يقوم بعمليات عسكرية واسعة في الجبال القريبة، ثم انتقلنا إلى ما وراء خط موريس الذي يبعد عن خط شال بنحو عشرة كيلومترات، وفتش الجيش الفرنسي عنا في المروج و الشعاب بواسطة الطائرات الحربية والشاحنات العسكرية التي كانت تنقل الجنود إلى مكان العمليات للبحث عنا، وجن جنون الضباط الفرنسيين عندما لم يجدوا لنا أي أثر رغم عمليات التمشيط الواسعة والمخبرين المزروعين في كل مكان ولكن بدون جدوى.

بعد ابتعاد الجيش الفرنسي عن خط موريس تقدمنا باتجاه "جبل القلب" القريب من خط موريس وخط السكة الحديدية الذي يمر عبر العوينات وذلك في أول الليل، وسرنا نحو ثمانية كيلومترات إلى أن وصلنا إلى خط موريس، وشرعنا في الحفر تحت الخط باستعمال خناجر البنادق بمقدار ما يمكن لرجل أن يمر تحته زحفا وتجنبنا قص الأسلاك المكهربة حتى لا يكتشف العدو اختراقنا لهذا الخط، وكان ضوء الليل خافتا لا يسمح بالرؤية الجيدة ومع ذلك استطاع زيدان ورابح ماجرالو اجتياز الخط المكهرب بسلام، وجاء دور الرائد عمار راجعي الذي كان قوي البنية ممتلئ الجسم فمرر بندقيته إلى إخوانه الذين اجتازوا الخط ثم زحف على بطنه لاجتيازه، و قد كنت واقفا أمرر الرجال الواحد تلو الآخر وبنظام البندقية

أولا ثم يلحق بها صاحبها، ولكن جسم راجعي المتصبب عرقا لامس السلك فأُصيب بصعقة كهربائية، فصحت على أصحابي "إسحبوه" وقفزت إليه وجذبته بنفسي مخاطرا بحياتي وتذكرت بأن أحد المجاهدين (موسى قروم) نجا من الموت بعد أن أصيب بصعقة كهربائية بفضل قيام رفاقه بتحريكه، وأخذت أحرّك جسد راجعي وجسمه شبه متجمد، لكن الأقدار كانت أقرب إليه فأسلم روحه إلى بارئها، واستشهد شهادة الأبطال وحزنا عليه أيما حزن. رحم الله الشهداء.

اجتزنا خط موريس وتوجهنا إلى أكواخ "عرش المراونة" التي لمحناها عن بعد، ونبحت علينا الكلاب بشراسة، ومع ذلك رفض أصحاب الدار الخروج إلينا، فطرقنا عليهم الباب لأننا كنا جياعا ومرهقين، ولم يُفتح لنا الباب إلا بصعوبة، فقد كانوا خائفين وترجونا أن نغادر بسرعة قبل أن يأتي العساكر الفرنسيون ويقتحموا عليهم البيت، وقالوا لنا "عندما يسمع عملاء الاستعمار نباح الكلاب فسيبلغون عنا"، لكننا طمأناهم بأننا لن نمكث عندهم طويلا، فقط نريد منهم أن يطهوا لنا بعض أرغفة الكسرة بما يكفينا إلى غاية ليلة الغد.

لكن أهل الدار اعتذروا عن طهي الكسرة ليتجنبوا إيقاد النار حتى لا يشعر بهم القومية ويعلموا أن هناك زوارا غير مرغوب فيهم مروا من هنا. ولكنهم أعدوا بالمقابل لنا طبق "الطمينة" اللذيذ، وأعطونا قربة ماء نصف مملوءة، وقبل أن نغادر أخبرناهم أن لنا شهيدا في "وادي ملاق" غير بعيد عن خط السكة الحديدية وهو مغطى بالنباتات وطلبنا منهم أن يدفنوه إذا لم يعثر عليه الفرنسيون في صبيحة الغد.

اتجهنا شمالا أين يوجد منجم بجبل المسلولة، ومنه كنا نراقب قوات العدو التي كانت تبعد عنا بنحو عشرة كيلومترات، وقضينا ليلتنا تلك هناك، وفي الليلة الثانية توجهنا إلى منطقة "السوابع" شرق دوار "أم العظايم" مسقط رأسي، قصد ربط الاتصال مع نظام الثورة في الداخل، وقابلنا رجال الدوار الذين استقبلونا بحرارة، ووجدنا هناك المحافظ السياسي لجبهة التحرير الوطني مع مسؤول القسمة، وبينما نحن كذلك

في حديث وسمر إذا بنا نسمع أصوات الشاحنات العسكرية الفرنسية قادمة من نواحي سدراتة ومداوروش للقيام بدوريات تمشيطية في "أم العظايم" وكأنها علمت بوجودنا في هذه النواحي، فخرجنا وأخذنا معنا المحافظ السياسي وغادرنا المنطقة حتى لا نكون سببا في أي أذى قد يحصل لأبناء الدوار، وتوقف العساكر الفرنسيون في هذا الدوار واعتدوا بالضرب على سكانه خاصة أبناء عمومتي، فقد علموا بأمر اختراقنا لخط موريس أيضا وتوقعوا أن أمر مع المجاهدين الذين معي بمسقط رأسي في أم العظايم، لكن أهل الدوار لم يكشفوا سرنا رغم التهديد والوعيد.

وقادنا المحافظ السياسي باتجاه جبال الأوراس، وعندما غسق الليل وانتصف، استرحنا في أحد الأكواخ المهجورة، وفي الغد أخبرنا السكان أن الجيش الفرنسي مشط المناطق الواقعة ضواحي "متوسة" شمال خنشلة، فتجنبنا الاحتماء في الجبال القريبة والتي كانت محل تمشيط واسع خلال تلك الفترة، والتجأنا بالمقابل إلى الشعاب والأكواخ المهجورة، ولم يبق أمامنا للوصول إلى جبال الأوراس سوى قطع الطريق الرابط بين خنشلة وباتنة، ولكننا كنا حذرين خشية أن يكون هناك كمين منصوب لنا على هذه الطريق فأرسلنا دورية لاستطلاع الوضع، ثم عبرنا الطريق بحذر في المنطقة الواقعة ما بين مدينتي الحمام وخنشلة، وصعدنا في الليل إلى سفح "جبل طامزة" الذي لم يكن كثيف الأشجار، ولكن كان به واد كبير لا تجري فيه المياه، فجلسنا بالقرب منه وارتحنا بعدما أرهقنا كثيرا من شدة المشي.

ورغم أن التدخين كان ممنوعا خلال الثورة، إلاّ أن بعض من المجاهدين سمحوا لأنفسهم بالتدخين خلسة عني وذلك بوضع السجارة في داخل ماسورة البندقية حتى لا يشم الآخرون رائحة الدخان، فالتوتر والقلق أثر عليهم بشكل بالغ، ورغم أني اكتشفت الأمر إلا أنني تجاهلته، لأن الوضع كان أخطر وأصعب من معاقبة جندي على التدخين خاصة وأن العديد منهم أصيب بالرشح.

وفي صباح الغد مرت طائرة استطلاعية بالقرب منا، وشاهدنا عساكر فرنسيين ليسوا بعيدين عنا سوى بنحو كيلومتر واحد فقط، يفرشون رداء

على الأرض عليه صليب أحمر لتقوم بعدها الطائرة بإسقاط أكياس وعلب اعتقدنا أنها بريد ولكن دون أن نعلم ما فيها فقد تكون مؤن وأدوية.

كان المحافظ السياسي الذي رافقنا يرتدي قشابية زرقاء اللون مثيرة للانتباه فطلبت منه إخفاءها حتى لا تجلب انتباه طائرات العدو، ثم غادرنا المكان عبر ذلك الوادي الأجدب، وبالصدفة تحرك العساكر الفرنسيون باتجاه المكان الذي كنا فيه وجاؤوا خلفنا، فتحركنا بسرعة عبر مجرى الوادي المتعرج ولكن صادفتنا مرة أخرى مفاجأة غير سارة، إذ وجدنا فرقة أخرى من العساكر الفرنسيين أمامنا، فاكتشفنا أن الجيش الفرنسي أطبق علينا من الأمام والخلف، غير أن العدو لم يتمكن إلى حد هذه اللحظة من رصدنا، فانحرفنا إلى جهة أخرى مختفين بين حشائش الديس والحلفاء الكثيفة وأخذنا نزحف باتجاه الغابة القريبة منا، ولحقت بنا فرقة العساكر التي كانت خلفنا حتى أصبحت أصوات رجالها مسموعة، بينما ابتعدت الفرقة التي أمامهم.

أخذنا مواقعنا استعدادا للدخول في مواجهة وشيكة مع قوات العدو. وأكدت على المجاهدين بعدم إطلاق أي رصاصة إلا إذا وقعت عين أحدهم في عين عدوه أو تلقوا الأمر بإطلاق النار، فاختبأت وراء شجرة كبيرة في مقابلة العساكر الفرنسيين واتخذت وضعية قتالية، ومروا غير بعيدين عنا. ونحن نسمع وقع أقدامهم على الصخور وصياحهم بالفرنسية "كابورال.. قدم إلى الأمام.. قدم إلى الوراء..."، وحبسنا أنفاسنا في انتظار الفرصة المناسبة للانقضاض عليهم، غير أنهم انحرفوا مبتعدين عن الموقع الذي تمركزنا فيه، ثم قاموا بوقفة عسكرية وأشعلوا النار لطهي القهوة وتناول الطعام، وبعد نحو ساعة من ذلك جاءت الشاحنات ونقلتهم إلى الثكنة، ومع ذلك لم نغادر مواقعنا وأخذنا كل احتياطاتنا لتفادي أي مفاجآت غير سارة. فمجرد وقوع اشتباك بسيط يعني اكتشاف قوات العدو لأماكننا وبالتالي حشد قوات كبيرة لإبادتنا، في حين أن هدفنا هو الوصول إلى مركز الولاية الأولى وتزويد مجاهدي الداخل بالأسلحة والذخيرة التي حملناها إليهم. وإعادة تنظيم العمليات القتالية بالولاية الأولى.

عند حلول الساعة الخامسة مساءا شرعنا في التحرك ببطء واستكشاف المكان والتأكد من مغادرة كل العساكر الفرنسيين للمنطقة، ووجدنا بعض ما تركوه من جبن وبقايا سجائر، ثم واصلنا طريقنا مباشرة إلى مركز الولاية الأولى، بعد أن نجحنا في مهمتنا، فعبور خطي شال وموريس تطلب منا أسابيع عديدة من المحاولات لاجتيازه، (من آفريل إلى غاية جويلية 1960)، وكان هذا في حدّ ذاته إنجازا لا يستهان به، إذ أن العديد من قادة الولايات الذين شاركوا في مؤتمر طرابلس لم يتمكنوا من العودة إليها بسبب إصرار فرنسا على عزل الثورة عن الخارج ومنع قادتها من الالتحاق بولاياتهم، على غرار العقيد الحاج لخضر قائد الولاية الأولى، العقيد علي كافي قائد الولاية الثانية، العقيد إيزوران قائد الولاية الثالثة، الصادق دهيلس قائد الولاية الرابعة، أما العقيد لطفي فاستشهد يوم 28 مارس في جبل بشار بعد أن عرج على الخط المكهرب من الجنوب الغربي.

أخيرا وعلى الساعة الحادية عشر من ليلة 11 جويلية 1960 تمكنت مع 19 مجاهدا من الوصول إلى مركز الولاية الأولى في "جبل كيمل" بقلب الأوراس بعد أن كنا 25 مجاهدا عند الانطلاق، حيث استشهد الرائد عمار راجعي في الطريق، وتركت مجاهدين في المنطقة الرابعة للولاية الأولى وثلاث جنود في المنطقة الخامسة.

الفصل الثالث عشر

آخـــر قـــادة الأوراس

الوصول إلى قلب الأوراس

استقبلنا مجاهدو الأوراس بحرارة وحفاوة، وفرحوا أيما فرح بقدومي إلى مركز الولاية، وتناقلوا بينهم خبر عودة قيادة الولاية الأولى، وانتشر هذا الخبر حتى بين صفوف الشعب فارتفعت معنوياتهم، وحتى المجاهدين الغاضبين من القيادة أبدوا فرحهم لعودتي وعودة الرائد سويعي من قبلي، فالكل كان متعطشا للجهاد لإخراج الاستعمار من الجزائر.

في مركز الولاية بجبل كيمل التقيت بالرائد علي سويعي بعد تجميده لمهام الرائد مصطفى مراردة الذي أبقاه العقيد الحاج لخضر في مركز القيادة عند دخوله لتونس لحضور اجتماع العقداء في آفريل 1959 ومؤتمر طرابلس الذي انتهت أشغاله في جانفي 1960، ووجدت بأن سويعي أجرى عدة تغييرات على مستوى هياكل الولاية، فعيّن محمد الصالح يحياوي مسؤولا عن المنطقة الثانية بعدما أرسل إلى المنطقة السادسة، وعيّن عبد المجيد بن عبد الصمد المشهود له بالشجاعة والبطولة نائبا له في المنطقة الثانية، أمّا عثمان جلاّلي فتولى قيادة المنطقة السادسة بعد إلقاء القبض على مقداد، أما إسماعيل رابحي فتولى القضاء في الولاية، وعين عمار ملاح مسؤول ناحية "بوحمار" في المنطقة الثانية، بالإضافة إلى هؤلاء هناك حسين بن عبد الباقي الذي كان يسير المنطقة الثانية، ومعظم هذه الإطارات المعينة حديثا لم تكن على وفاق تام مع العقيد الحاج لخضر، حيث قام بن عبد الصمد بنقل

رسالة الإطارات الغاضبة من الحاج لخضر إلى القيادة في تونس متجاوزا خطي شال وموريس ذهابا وإيابا وقدم التقارير إلى ممثلي الحكومة المؤقتة.

الولاية الأولى تسترجع قوتها

انطلقت الثورة بقوة في الأوراس في الفاتح نوفمبر 1954 وبها تركزت معظم قوات العدو لإخمادها في مهدها، فاندلعت عدة معارك كبيرة بالولاية كمعركة الجرف ومعركة آرغو وكمين خيران الذي قتل فيه الرائد الفرنسي المدعو "بولحية" الذي اشتهر بكلماته الجارحة للشعب الجزائري، لكن وبعد اعتقال مصطفى بن بولعيد قائد الأوراس واغتيال نائبه بشير شيهاني في سبتمبر 1955 دخلت الولاية في نزاعات داخلية بين بعض قياداتها، أثرت على الفعالية القتالية لجيش التحرير في الولاية الأولى، غير أن نجاح مصطفى بن بولعيد في الهرب من سجن الكدية في 10 نوفمبر 1955 سمح بإعادة لحمة الولاية الأولى من جديد وتوحدها تحت لواء قائدها التاريخي رغم المؤامرات التي كانت تحاك ضده والتي أدت لاستشهاده في 22 مارس 1956 في ظروف غامضة، فدخلت الولاية الأولى مجددا في دوامة من الصراعات.

تدخلت قيادة الثورة ممثلة في لجنة التنسيق والتنفيذ بعد مؤتمر الصومام لإنهاء النزاع في الولاية الأولى التي أصبحت بدون قائد شرعي منذ استشهاد مصطفى بن بولعيد، فرفضت منح شرعية قيادة الولاية إلى عمر بن بولعيد الشقيق الأكبر للقائد التاريخي للأوراس، كما لم تمنح الشرعية لعجول نائب سي مصطفى والذي انتهى به المطاف إلى تسليم نفسه إلى العدو الفرنسي في ظروف سبق وأن أشرنا إليها، وبقي الصراع متأججا بين عباس لغرور عضو قيادة مجلس الولاية الأولى ومجاهدي النمامشة بقيادة لزهر شرايطي، وحاول لغرور بالتنسيق مع عبد الحي مسؤول الثورة في تونس القضاء على جميع قادة النمامشة في مؤامرة تونس، لكن العملية لم تنجح وألقت قيادة الثورة القبض على عباس لغرور وحاكمته ثم أعدمته.

وعينت لجنة التنسيق والتنفيذ محمود شريف قائدا للولاية الأولى في ديسمبر 1956، لكن ذلك لم ينه النزاع داخل الولاية الأولى خاصة وأن أغلب قادة الولاية كانوا يعارضون قرارات مؤتمر الصومام التي غابت ولايتهم عن حضور أشغاله، وأصبح محمود شريف ذراع لجنة التنسيق والتنفيذ في الولاية الأولى ولاحق بدون هوادة المعارضين لقرارات الصومام ومن بينهم لزهر شرايطي أحد قادة النمامشة الذي ألقي عليه القبض وأعدم هو الآخر في 1957، ومع ذلك لم يحظ محمود شريف بالإجماع لدى قيادات الولاية الأولى.

مشاكل الولاية الأولى لم تنته بغياب معظم قياداتها وزعاماتها عن ساحة الصراع وترقية محمود شريف إلى عضو في لجنة التنسيق والتنفيذ، وتعيين محمد العموري قائدا للولاية الأولى إذ أن هذا الأخير دخل في صراع مع العقيد محمدي السعيد قائد لجنة العمليات العسكرية للناحية الشرقية واتهم كريم بلقاسم بالجهوية، فتم عزله وتخفيض رتبته من عقيد إلى نقيب ونفيه إلى السعودية وتعيين نائبه أحمد نواورة قائدا على الولاية الأولى لكنه هو الآخر لم يتفق مع العقيد محمدي السعيد فحاول الترتيب مع مسؤوله السابق العقيد العموري وبالتنسيق مع مسؤولي القاعدة الشرقية معارضة منظمة ضد قرارات الحكومة المؤقتة، انتهت بإعدامهما وسجن العديد من إطارات الولاية الأولى كالرائد عبد الله بلهوشات.

بعد تمكّن الحكومة المؤقتة من فرض سلطتها على الولاية الأولى بدأت الأوضاع تستقر وقلت التمردات مع نهاية 1959 وبداية 1960، وفي هذه الفترة تولى محمد الطاهر عبيد المدعو الحاج لخضر قيادة الولاية الأولى بالنيابة بعد استشهاد الرائد علي النمر الذي تولى قيادة الأوراس بالنيابة لأشهر قليلة، وشارك الحاج لخضر في اجتماع مسؤولي الولايات بالولاية الثالثة (ديسمبر 1958)، وفي اجتماع العقداء بتونس (1959) وفي مؤتمر طرابلس (1959 ـ 1960) الذي عين فيه رسميا قائدا للولاية الأولى برتبة عقيد، لكنه لم يتمكن من الدخول إلى الجزائر إلى غاية الاستقلال، إلا أن مسؤولي الولاية الذين جاؤوا من بعده وعلى

رأسهم كل من مصطفى مراردة وعلي سويعي وأنا تمكنا من جمع كلمة الولاية الأولى تدريجيا رغم المشاكل والصعوبات التي واجهتنا.

ورغم صرامة قيادة الثورة في مواجهة التمردات والخارجين عن النظام، إلا أن بعض العروش في الولاية الأولى لم تكن راضية عن القيادة، وكانت هذه العروش "المتمردة" تتوحد تلقائيا ضد العدو المشترك عندما تقوم فرنسا بعمليات عسكرية على المنطقة فيهاجم كل فريق العدو من جهته، ولم تصل هذه التمردات إلى حد المواجهة الشاملة إلاّ في حالات نادرة مثل قضية "الحنبلي" الذي اضطرت قيادة أركان الناحية الشرقية إلى سحق تمرده في ديسمبر 1959، بل كانت هذه "التمردات" أشبه بحالة عصيان لأوامر القيادة أو إبداء غضب علني على قراراتها وبمجرد دخول نائبي قائد الولاية (سويعي وأنا) استطعنا اكتساب ثقة الجميع وكلفناهم بمهام جديدة كمحمد الدراجي الذي كلف بالإشراف على حراسة مركز الولاية ومعه نائبه أحمد بكرون والنائب الثاني شريف جلالي، وبهذه الطريقة الحكيمة والذكية تمكنا من توحيد الولاية الأولى لأول مرة منذ استشهاد مصطفى بن بولعيد.

العدو يفشل في القضاء على قيادة الأوراس

كما جاء في شهادة المجاهد منصور رحال كاتب الولاية الأولى في كتابه "Les Maquisards" فإنه "منذ اعتقال مصطفى بن بولعيد في 11 فيفري 1955 وإعدام شيهاني بشير في أكتوبر 1955 فإن الأوراس لم تكن تملك أبدا قيادة أركان كاملة للولاية تشرف على الميدان العملياتي، لكن بمجيء الرائد الطاهر زبيري في 11 جويلية 1960 وصلت الولاية الأولى إلى مستوى تأطير فريد من نوعه ممثلة في ثلاث رواد".

ويبدو أن استخبارات العدو وصلت إلى نفس النتيجة خاصة بعد أن تأكدت من أنني تمكنت من الوصول إلى مركز الولاية بعد اختراقنا خطي شال وموريس وأفلتنا من عدة كمائن نصبت لنا، ومع ذلك لم ييأس العدو من إمكانية القضاء على قيادة الأوراس الجديدة، فبعد أقل من أسبوعين

على وصولي إلى مركز الولاية شنت القوات الفرنسية عملية عسكرية واسعة النطاق على المنطقة يوم 24 جويلية 1960 استمرت لثلاثة أيام.

حيث حامت طائرات فرنسية كشافة حول مركز الولاية في غابة فورار (جبل كيمل) والذي كان مقررا أن يعقد فيه اجتماع لكامل إطارات الولاية، وبعدها هاجمت ثلاثون طائرة حربية مقاتلة المركز وقنبلت بوحشية مكان الاجتماع بالذات، وأمطرتنا بوابل من الرصاص عبر مدافعها الرشاشة، فتحصن إطارات الولاية بهضبة عالية في الغابة وراقبنا من خلالها تحركات العدو، الذي لم يكتف بذلك بل كثف من قنبلت إحدى الهضاب القريبة من مركز الولاية، ثم جاءت الطائرات العمودية الكبيرة وأنزلت المظليين في قلب الأوراس بغية أسر أو قتل قادة الولاية والقضاء على أي محاولة لتنظيم المقاومة في الولاية، ودخلت هذه القوات في اشتباكات حامية الوطيس مع المجاهدين الذين لم يقعوا في شراك المواجهة المباشرة مع قوات تفوقهم عددا وعدة، بل لجؤوا مجددا إلى حرب العصابات التي دوخت العساكر الفرنسيين، واعتمد جيش التحرير في تكتيكه على تجنب إطلاق الرصاص في العمليات الكبرى إلا في حالات الخطر المباشر حتى لا يستنفذوا ذخيرتهم.

غادر العساكر الفرنسيون "غابة فورار" ذلك اليوم لكنهم عادوا بقوة في اليوم الموالي حيث وصلت تعزيزات عسكرية وبأكثر كثافة، وتقدمت الدبابات والشاحنات العسكرية المكدسة بالعساكر، فقررت قيادة الولاية تغيير مركز الولاية حتى لا نقع في دائرة التطويق.

اجتماع الإطارات

عقدت الولاية الأولى بقيادة الرائد علي سويعي اجتماعا لإطارات الولاية في إيفري بجبل كيمل ضم مسؤولي المناطق ومسؤولي النواحي لعرض التقارير ومناقشة المشاكل التي تواجههم، وجرى الاجتماع وقوفا لأن العدو كان حينها يقوم بعملية عسكرية واسعة في جبال الأوراس غير بعيد عن مركز الاجتماع وأبدى العديد من إطارات الولاية تحفظات على

طريقة تسيير العقيد الحاج لخضر والرائد مصطفى مراردة للولاية. وهذا رغم أن الحاج لخضر رُقي حينها من رائد إلى عقيد ورسمته قيادة الثورة قائدا للولاية الأولى في انتظار دخوله إلى الجزائر. وتحول هذا الاجتماع إلى شبه محاكمة للعقيد الحاج لخضر متهمين إياه بالصرامة والشدة المبالغ فيهما، ولم يعجبني الانتقاد اللاذع لقائد الولاية في غيابه، في حين ساير الرائد سويعي انتقادات الغاضبين، وأجرى تعديلات في المسؤوليات أرضت هؤلاء الغاضبين ولكنها بالمقابل أغضبت جماعة الحاج لخضر وعلى رأسهم الرائد مصطفى مراردة الذي جرد من جميع المسؤوليات.

وتدخلت بعد الاجتماع وقلت لسويعي "سي علي بودنا أن نسمع أيضا من جماعة الحاج لخضر ونرد بعدها حقوق المظلومين ونعينهم في المسؤوليات التي هم أهل لها، أما الذين ارتكبوا بعض التجاوزات فلا بد لنا من وضع حد لهذه التجاوزات" وأضفت "أنت متحامل على جماعة الحاج لخضر.. والحاج لخضر سيدخل بصفته عقيد الولاية" فرد علي الرائد السويعي: "عندما يعود سأقدم تقريري للقيادة (قيادة الأركان) وليكن بعدها ما يكون"، فقلت "ليس بهذا الشكل، من الأفضل أن نقلب الصفحة، وأن نرجع الجماعة المتمردة ونقرب جماعة الحاج لخضر وننهي الخلاف".

تعييني قائدا للولاية الأولى (أكتوبر 1960)

أحسست بنوع من القلق إزاء الأسلوب الذي يتعامل به الرائد سويعي في اتخاذ القرارات بدون استشارتي كما يقضي بذلك نظام الثورة باعتبارنا عضوين في مجلس الولاية الأولى وكلانا برتبة رائد. وأثار تجميد سويعي مهام الرائد مصطفى مراردة حفيظتي، فماذا لو عاد العقيد الحاج لخضر قائد الولاية ووجد أن الموالين له قد أبعدوا عن القيادة فيما تم إعادة الاعتبار لمن سبق وأن عاقبهم وخشيت أن يؤدي كل هذا إلى عدم اتفاق بيني وبين سويعي.

وبعد شهور من مكوثي في مركز الولاية الأولى بجبل كيمل لم يرجع العقيد الحاج لخضر كما كان منتظرا، أما الرائد مصطفى مراردة بقي

مجمد المهام وهذا الأمر لم يكن مقبولا. فأرسلت برقية إلى كل من قيادة الأركان العامة بقيادة العقيد هواري بومدين، واللجنة الوزارية للحرب الممثلة في الباءات الثلاث (كريم بلقاسم، لخضر بن طوبال وعبد الحفيظ بوصوف) وطالبتهم فيها بضرورة "دخول العقيد الحاج لخضر إلى الولاية الأولى حالا، وإلا عليهم تعيين قائد للولاية بالنيابة".

ولم يطل رد قيادة الثورة على طلبي، فأرسلت قيادة الأركان لي في بداية أكتوبر 1960 رسالة تخبرني فيها بأن العقيد الحاج لخضر لا يمكنه دخول تراب الولاية الأولى ولذلك تقرر تنصيبي قائدا للأوراس، وتم إعلام الرائدين علي سويعي ومصطفى مراردة بهذا القرار الجديد.

مخطط شال العسكري

وضع الجنرال "شال" مخططا عسكريا لتفكيك نظام جيش التحرير في الجبال وشرع في تطبيقه بداية من مارس 1959، حيث قسم التراب الجزائري إلى مناطق تتجانس نوعا ما مع الولايات الستة للثورة، وتتم العمليات العسكرية منطقة بمنطقة مع حشد قوات ضخمة تصل أحيانا إلى 40 ألف عسكري في كل منطقة مدعمين بالطائرات المقنبلة وخاصة طائرات الهيليكوبتر من نوع "بانان" وص"H34" المدرعة التي يتم بواسطتها نقل الجنود بسرعة من مكانهم إلى مكان العمليات، ويوزع عساكر الكموندوس الفرنسيون إلى مجموعات صغيرة تتمركز في الجبال والأودية والغابات وتتنقل بحثا عن الاشتباك بالمجاهدين وإذا وقع الاشتباك يتم الاتصال بالفرق الأخرى عبر جهاز اتصال لاسلكي فتتجمع الفرق العسكرية لتحاصر المجاهدين وتتدخل الطائرات وهو ما يجعل وضع المجاهدين في خطر، وتستمر العملية في المنطقة المعينة شهرين أو أكثر، إلى غاية تصفية المجاهدين في تلك المنطقة نهائيا وضمان عدم عودتهم إليها لمواصلة عملياتهم العسكرية مجددا، قبل الانتقال إلى منطقة أخرى.

وقد بدأ تطبيق المخطط بالولاية الخامسة (وهران) في أواخر مارس 1959، ثم انتقل إلى الولاية الرابعة (وسط الجزائر) في شهر ماي، ثم الولاية

السادسة فالولاية الثالثة في شهر جويلية، وبعدها الولاية الثانية في شهر سبتمبر، وأخيرا الولاية الأولى في شهر نوفمبر 1959، وأعطي لكل عملية خاصة بمنطقة معينة اسما متميزا مثل: الشرارة بالولاية الأولى في جوان 1960، التاج في فيفري 1959، المنظار في الولاية الثالثة، واللؤلؤة، والجوهرة، واللكمة.

وتعاملت قيادة الثورة مع هذا المخطط بحل الفيالق والكتائب وتحويلها إلى فرق صغيرة تجتمع وتتفرق بسرعة، وشددت المراقبة على تحركات العدو واتصالاته، ولعبت وزارة التسليح والمخابرات دورا مهما في إبلاغ قادة الولايات بأي عملية عسكرية موجهة ضدهم عبر التنصت على مكالمات العدو، وأعطت القيادة أوامرها للمجاهدين بتفادي الاشتباكات والكمائن والقيام بالهجومات السريعة على مراكز العدو المعزولة، وبما أن الجيش الفرنسي أصبح متمركزا في الجبال والغابات فإن جيش التحرير قرر أن يركز عملياته على مصالح الشرطة والدرك والجيش وأملاك المعمرين في القرى الصغيرة والمدن المتوسطة.

عملية "أرياج ARIEGE" الجهنمية

في آفريل 1960 خلف الجنرال "كريبان" الجنرال "شال" على رأس القوات الفرنسية لكن دون تغيير استراتيجية الحرب المعتمدة على مخطط شال الذي حقق بعض النتائج، رغم أن الجنرال ديغول الذي وصل إلى السلطة في ماي 1958 اقترح على قادة الولايات سلم الشجعان، ولكنه أراد من وراء مواصلة مخطط شال أن يكون في موقع قوة في حالة دخوله في مفاوضات حاسمة مع الحكومة المؤقتة.

وشرع جنرالات فرنسا في التحضير لعملية ضخمة لإضعاف الثوار في الأوراس، وتمكنت وزارة التسليح والمخابرات من الحصول على معلومات خطيرة حول هذه العملية، وأرسلت إلى قيادة الولاية الأولى وثيقة سرية في سبتمبر 1960، تتضمن الخطوط العريضة لهذه العملية المقسمة إلى ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: جمع المعلومات الاستخباراتية حول جيش التحرير من حيث قدراته العسكرية وتحديد أماكن تواجد قيادة الولاية الأولى، وتوزيع قواته، ومجال التدخل وتضاريس المنطقة.

المرحلة الثانية: تدخل عسكري واسع يهدف إلى الاقتلاع الكلي "للتمرد"، ويعتمد على إنزال جوي في الأماكن المرتفعة عن طريق طائرات الهليكوبتر، ومن جهة أخرى تتحرك قوافل عسكرية لتطويق القطاع بحيث تتلاقى كل من القوتين وتطبق على المجاهدين كفكي كماشة.

المرحلة الثالثة: صيانة السلم بالإبقاء على وجود عسكري فرنسي في الجبال والغابات لمدة قد تصل إلى ثلأثة أشهر لمنع كل "تمرد"، وبالتالي محاولة منع المجاهدين من تجميع صفوفهم وإعادة تنظيم قواتهم، لمواصلة القتال.

ويرافق هذه المراحل الثلاث العمل على شق الطرق في الغابات والجبال لتسهيل عملية توغل الآليات العسكرية إلى أقصى منطقة ممكنة، وكذا القيام بعمل اجتماعي لكسب تعاون الأهالي مع الجيش الفرنسي.

وقبيل انطلاق عملية "أرياج" قال الجنرال "ديكارنو" في حوار لأحد الصحفيين في نهاية سبتمبر 1960 بباتنة "الأوراس هي مهد التمرد وسوف تكون قبره"، وكانت القيادة العسكرية الفرنسية مصرة هذه المرة على استئصال الثورة من الأوراس، بعدما فشلت في ذلك في عملية 1959.

معركة التنصت

شرعت القوات الفرنسية في تطبيق المرحلة الأولى من هذا المخطط ومحاولة اكتشاف مركز الولاية الأولى ومكان جهاز الاتصال عبر طائرات خاصة للجوسسة والتنصت تحوم على "جبال الأوراس" لعلها تلتقط ذبذبات جهاز إرسال الولاية ومن خلالها يتم تحديد مركز الولاية، أمّا نحن فكنا نتجنب الاتصال بقيادة الثورة في الخارج في النهار، بل نتعمد الاتصال ليلا وباستعمال شيفرة خاصة، لكن يتم تغييرها في كل مرة حتى لا يتمكن العدو من تفكيكها، وعند سماع صوت محركات طائرات التجسس الفرنسية

يوقف الاتصال، وكانت الولايتان الثانية والثالثة ترسل بعض تقاريرها إلى الولاية الأولى قصد إرسالها عبر جهاز الإرسال إلى القيادة في الخارج.

وفي إحدى المرات وصلت إلى العدو معلومات تفيد أن مركز قيادة الولاية الأولى يضم بصفة عامة أعضاء قيادة الولاية، وأنهم ينشطون في محيط جغرافي محدد بشكل تقريبي، وخصصت طائرة شحن من نوع "Nord 2501" وحُمّلت بأجهزة تنصت جد متطورة ومن آخر جيل. وانطلقت من مطار عسكري للقيام بمهمة ليلية خاصة جدا تتمثل في العمل على اكتشاف مكان محطة راديو الولاية الأولى. وعند اقتراب طائرة التجسس هذه من مركز الولاية، استغرب المجاهدون طيران هذه الطائرة على علو منخفض في هذا الليل المظلم، فتم توقيف الإرسال، واقتربت الطائرة فجأة من حاجز من الصخور وحاولت يائسة تصحيح مسارها تجنبا لهذا الحاجز، لكن الوقت قد فات فارتطمت بالجبل وانفجرت بمن فيها، وبعد أيام نشرت الصحف الفرنسية خبرا يفيد بمقتل 11 ضابطا في سلاح الجو الفرنسي.

تضحيات بلا حدود

أخذت المعلومات تصل تباعا ومن عدة جهات إلى قيادة الولاية الأولى تؤكد توافد حشود عسكرية ضخمة إلى المدن والقرى المحيطة بالأوراس. ولم يكن بإمكاننا تغيير المركز إلا بعد تحرك قوات العدو باتجاه معاقلنا. فأعطتينا أوامر بتشديد الحراسة. في حين وصلت التحضيرات لإطلاق عملية ضخمة لإبادة مجاهدي الأوراس أطلق عليها اسم "الحربة".

وفي الرابع من أكتوبر 1960 شرعت القوات الفرنسية الضخمة بالزحف على الأوراس من عدة جهات، وأنزلت قوات المظليين المحمولة جوا على الأماكن المرتفعة وفق الخطة المرسومة مسبقا، وهاجمت هذه القوات المنطقة الثانية في الولاية التي يقودها النقيب محمد الصالح يحياوي والتي يوجد بها مركز قيادة الولاية، فأعطيت أوامري بالتحرك فورا، وكلفت المجاهد "علي بعو" الذي يعرف المنطقة جيدا بإخراج الكتائب السبعة للولاية

ومعهم جهاز الاتصال من التطويق، أما المكلف بمستشفى الولاية فأخفى الجرحى في كازمات وأغلقها عليهم حتى لا يكتشفهم العدو حتى ولو مر بالقرب منها، فقد كان هذا المستشفى يعتمد على نظام تهوية خاص، ونقل مركز الولاية من جبل كيمل باتجاه مكان يسمى "إيسبذ".

واشتبك الجيش الفرنسي مع جيش التحرير في جبل شيلية بعد أن قصف أطراف مركز الولاية واستشهد في هذه المعركة البطل عبد المجيد بن عبد الصمد، ثم توغل الجيش الفرنسي في غابات الأوراس الكثيفة الأشجار يتقدمهم فرق الحركى لدلهم على الطريق حتى لا يتوهوا بين الأدغال، ومن جانب آخر انسحبت ومعي كل من الرائدين علي سويعي ومصطفى مراردة وبعض الإطارات وتتقدمنا دورية من الجنود لاستكشاف الطريق حتى لا تقع قيادة الولاية في كمين، ولم يكن واضحا سر العمليات العسكرية الضخمة والمتتالية التي يطلقها الجيش الفرنسي على الأوراس في فترات متقاربة والتي تدوم أسابيع عديدة بشكل لم يسبق وأن شهدناه طوال حرب التحرير.

بعد يومين من انطلاق عملية "الحربة"، وبينما نحن نتحرك بسرعة للخروج من التطويق إذا بنا نفاجأ بوجود قوات العدو أمامنا ولم ندري مصير الدورية التي كانت تسبقنا لاستكشاف الطريق، وأطلق العساكر الفرنسيون النار علينا، فأصابت الرصاصة الأولى ركبة الرائد علي سويعي، وتبادلنا معهم إطلاق النار وسحبنا الرائد سويعي وأخفيناه في إحدى الشعاب بعد أن أصبح غير قادر على مواصلة المسير، فأعطى سويعي بندقيته لأحد رفاقه يدعى "إبراهيم غقالي".

اشتدت رحى المعركة بين جيش التحرير في المنطقة الثانية بالولاية الأولى والجيش الفرنسي، وسقط العشرات من القتلى في صفوف الطرفين في مكان يسمى "بني ملكم الكباش"، واستعملت القوات الفرنسية قنابل النابالم المحرمة دوليا في القصف الجوي والمدفعي وبكثافة، وهرب اللاجئون المدنيون القاطنون بالغابة من جحيم النيران، ولهول الواقعة وضعت امرأة حملها قبل الأوان وحملت مولودها في حجرها دون قطع الحبل السري وهي تجري بحثا عن أي مكان تنقذ نفسها ومولودها من هذا الجحيم، ولم تنج من هذا القصف حتى الحيوانات التي خرجت من

جحورها وأوكارها مذعورة تجري في كل الاتجاهات، حيث اشتعلت الغابة بالنيران وأصبحت كالقدر الملتهب، وصمدنا في هذه المعركة التي امتدت لعدة أيام بشكل بطولي، وانقسمنا في شكل فرق صغيرة وسريعة بحيث أصبحنا أكثر مرونة في التحرك والقيام بهجومات خاطفة والانسحاب لتجنب التطويق وتفادي سقوط أعداد كبيرة من الشهداء.

ولعبت طائرات الهيلوكبتر ذات الرشاشات الثقيلة دورا مؤثرا في المعركة، خاصة في نقل المظليين إلى مواقع متقدمة من المعركة، وسحب القتلى والجرحى من ميدان القتال، حيث قدّر سكان المناطق المجاورة عدد القتلى الذين سحبتهم القوات الفرنسية في هذه المعركة بنحو 70 قتيلا، في حين استشهد 85 مجاهدا في هذه المعركة الجهنمية التي سخرت لها قوات هائلة.

وفي خضم هذه المواجهات الشرسة، وجدت أننا والحراسة التي معنا وإلى جانبنا فرقة من جنود المنطقة الثانية مطوقين جميعا، ودخلنا في اشتباك دام مع القوات الفرنسية الكثيفة العدد والمدعمة بالطائرات الحربية والمروحيات المزودة برشاشات ثقيلة، ولحسن حظنا هبت في تلك اللحظة رياح قوية، مما جعل الطائرات تقصف المنطقة بشكل عشوائي فأصابت بعض العساكر الفرنسيين المشتبكين معنا، مما حذا بالقيادة الفرنسية إلى سحب القوات الجوية وترك المهمة للقوات البرية.

وتمكن جنود المنطقة الثانية ومعهم الرائد مصطفى مراردة ونور الدين محمد وعبيد راجعي والبكرون من الخروج من التطويق، وبقيت ومعي 26 مجاهدا في مواجهة كتيبة من القوات الفرنسية التي أحكمت تطويقها للمكان، ورفضت الانسحاب ومن معي حتى لا نترك الرائد سويعي وحيدا، لكن القتال كان عنيفا وقوات العدو أكثر منا عددا بأضعاف مضاعفة، ومع ذلك استبسلنا في القتال، فاستشهد جميع الجنود الذين بقوا معي ولم يبق معي سوى أحد الممرضين يدعى "عبد القادر" لا يحمل معه أي سلاح باستثناء خنجر "بايونات"، كما وصل العساكر الفرنسيون إلى الرائد سويعي المجروح وقتلوه بدناءة - رحم الله الشهداء - ولم يكتفوا بذلك بل نقلوا جثته

إلى تبسة مسقط رأسه ليتعرف عليه الحركى، وظنوا أنهم قتلوا قائد الولاية الأولى كما ذكرت بعض الصحف الفرنسية آنذاك، وللأسف فبعض الكتاب الجزائريين وقعوا في الخطأ نفسه.

تموقعت في ربوة وراء صخرة بجنبها شجيرة صغيرة تظللني وتخفيني عن الأنظار لكي أستطيع أن أرى من خلالها جيدا، وساعدتني أشعة الشمس المائلة إلى الغروب (حوالي الثالثة بعد الزوال) التي كانت تسطع في أعين العساكر الذين يواجهونني بشكل يصعب عليهم رؤيتي وتحديد مكاني، وهجم الفرنسيون علي من عدة جوانب بعد أن أصبحت معزولا مع الممرض عبد القادر الذي كان ملتصقا بظهري للاحتماء بي من رصاصات العدو، لكن موقعي الحصين وسلاحي وكمية الذخيرة الكبيرة (نحو 300 رصاصة) التي حملتها معي سهلوا علي عملية اصطياد عساكر العدو الواحد تلو الآخر، فكنت أطلق النار على الأعداء بثبات، وكلما أصبت أحدهم سقط أرضا وتدحرج أسفل المنحدر حتى بلغ عدد الذين أرديتهم بين قتيل وجريح حوالي الأربعين عسكريا فرنسيا.

اكتشفت أن خزنات الرصاص التي تحمل كل واحدة منها ثماني رصاصات (ثموني) بدأت تنفد، وبمجرد نفاذ الرصاص منها يقفز الخزان من البندقية ويقع على الأرض المنحدرة دون أن أتمكن من استرجاعه لإعادة ملئه بالرصاص مجددا، وكان معي 12 خزانا، فأصبحت أطلق خمس إلى ست رصاصات وأنزع الخزان وأعطيه للممرض لإعادة ملئه.

وبعد أن أصيب عدد كبير من العساكر الفرنسيين في هذه المواجهة وانتقلت القوة الرئيسية للعدو إلى جهة أخرى بالقرب من مكان مقتل سويعي ثم جنحوا إلى يميني لتفادي انعكاس ضوء الشمس على أعينهم وشرعوا في إطلاق الرصاص علي بضراوة بعد أن تمكنوا من تحديد مكاني، وأطلقوا علي قنابل يدوية ببندقيات من نوع "فيبي" فتقع القنبلة بالقرب مني، وقبل أن تنفجر أدفعها باليد وأخفض رأسي محتميا بالصخرة فتتدحرج إلى الأسفل وتنفجر وتتساقط شظاياها أمام الصخور الصماء مخلفة سحابة من الغبار، فأرفع رأسي مجددا والرؤية أمامي شبه

معدومة وأطلق النار باتجاه عساكر العدو بشكل تقديري لمنعهم من التقدم.

وحاول العساكر التقدم باتجاهي عبر ممرات صخرية ضيقة يسميها سكان المنطقة "الردمة"، وكانوا يمرون الواحد تلو الآخر، لكنني كنت أراهم جيدا فأطلق عليهم النار بكثافة، فأحصد في كل مرة اثنين أو ثلاثة دفعة واحدة. وأصبحت مهمة اقتناصهم أكثر سهولة، وغربت الشمس ومع ذلك لم يتمكن العساكر الفرنسيون من إنجاز مهمتهم بإلقاء القبض علي حيا أو ميتا.

قفز قائد الكتيبة الفرنسية بين الصخور واقترب قليلا من الموقع الذي أتحصن به، واختبأ بين شجيرتين وجلس على إحدى ركبتيه وأخذ ينظر إلى مصدر إطلاق الرصاص لتحديد المكان بدقة، وكان يبدو عليه التصميم للقبض علي فقلت في نفسي "هذا الرجل إن لم أقتله قتلني". وسددت البندقية باتجاهه ويدي ترتعد قليلا، ثم ثبت البندقية جيدا وحبست أنفاسي وأعدت التركيز على الهدف ثم أطلقت النار عليه بين عينيه فأرديته قتيلا وانقلب على رأسه وتدحرج إلى الأسفل.

أيقنت أنني مقتول في هذه المعركة لا محالة. لكنني لم أكن أخشى الموت قدر خشيتي الوقوع أسيرا ثانية في يد الفرنسيين، ولم أكن أنتظر من هؤلاء لا الرحمة ولا الشفقة خاصة وأنهم سبق وأن حكموا علي بالإعدام، فقررت بيني وبين نفسي أن أبقي على آخر رصاصة لنفسي حتى لا يلقى القبض علي حيا، غير أنني تذكرت بأن الإسلام يحرم الانتحار، ولم يبق لي حينها سوى رصاصتين فقط. فقلت للممرض الذي معي "دعهم يقتلوننا هم أفضل". فأطلقت الرصاصتين باتجاه العساكر الفرنسيين وفي اتجاهين مختلفين حتى لا يتحركوا، فخفض العساكر رؤوسهم وفي نفس اللحظة قفزنا من وراء الصخور وانطلقنا نجري بأقصى ما أوتينا من قوة رغم حالة التعب والعطش التي زادها لهيبا رائحة البارود، وتمكن هذه المرة العساكر من رؤيتنا جيدا فأمطرونا بالرصاص فأصابوني برصاصة اخترقت يدي وأخرى لامست فخذي بعد أن اخترقت قشابيتي، ولحرارة الظرف لم أشعر بألم في جسدي كما لم أدر لحظتها كم رصاصة اخترقت جسمي، أما عبد القادر الممرض

فأصابته رصاصة في ذراعه فكسرته، وثُقبت قشابيتي في عدة أمكن.
ولحسن حظنا كان بالقرب منا شعبة فقفزنا إلى أسفلها وركضنا على طولها أسفل الجبل، والعساكر الفرنسيون في أثرنا يلاحقوننا ويطلقون علينا الرصاص بكثافة في حين كان الليل يلقي بظلاله على المكان، ولم نكن نتصور بأننا سننجو؟ من الموت وسط هذه الحشود الكثيفة من العساكر الفرنسيين الذين يحاصرون المنطقة في الأرض ومن السماء، وكل ما كنا نأمله ساعتها أن نستشهد ولا نقع أسيرين بيد الأعداء.

ركضنا نحو كيلومتر في تلك الشعاب ونحن مشدودي الأعصاب، ولما سكت صوت البارود وبدأ السكون يغزو المكان، توقفنا عن الجري بعد أن وجدنا أن لا أحد يلاحقنا، وأخذنا نتنفس بعمق من شدة الإرهاق والخوف. ولم نصدق بأننا أفلتنا من بين أنياب ومخالب العدو، وجلسنا تحت إحدى الأشجار للراحة. ولما أردنا مواصلة السير للابتعاد عن أماكن انتشار قوات العدو، لم نقدر على ذلك فقد استنفذنا كل الطاقة بجسدينا، وفقدنا حتى القدرة على الكلام، ولا تسل عن حالنا تلك ومشاعر الخوف والفرح والحذر تتجاذبنا من كل جانب.

واشتد علينا العطش والجوع، ووجدنا بالقرب منا شجرة عرعار فأكلنا من ثمرها، وتحت جذعها تجمعت بعض أكوام الثلج فملأت قنينة ماء فارغة بالثلج - ويدي تنزف دما - حتى يذوب الثلج ونرتوي من مائه لكن الجو كان باردا فبقي الثلج متجمدا ولم نجد من سبيل لإذابته، فأكلنا منه لعلنا نطفئ بعض لهيب الضمأ الذي ألمَّ بنا، وبعد أن زال خطر العساكر الفرنسيين خشينا أن تهاجمنا ذئاب الغابة الجائعة والساخطة على بني البشر الذين أفسدوا عليها معيشتها، ولم يكن معنا أي سلاح ندافع به عن أنفسنا، فالبندقية التي معي صارت كالعصا بعد أن نفذ منها الرصاص، وسبق لبعض الذئاب أن افترست أحد المجاهدين ليلا، لذلك كنا حذرين، وفضّلنا مواصلة المشي بدل البقاء في ذلك المكان الموحش.

لم يبق في جسدينا المنهكين من طاقة نتحرك بها ومع ذلك جاهدنا نفسينا للمسير فالحياة تستحق كل هذه التضحية، فكنا نمشي ونتعثر

ونسقط أحيانا لكننا ننهض مجددا ونستجمع جهدنا لمواصلة الطريق، وبقينا على هذه الحالة ليلة ونهارا، إلى أن تمكنا من الخروج من تلك الغابة والوصول إلى أحد الجبال به دشرة تدعى "تيزوقاقين"، وقصدنا أكواخ اللاجئين إذ كنا على سابق معرفة بتواجدهم في ذلك المكان.

ووجدنا في طريقنا كوخا مهجورة في ذلك الجبل وبالقرب منها رجل يحرث الأرض، فانتظرنا حتى غادر الرجل ذلك الكوخ واختبأنا فيه إلى أن غربت الشمس، فتسللنا من ذلك الكوخ وخرجنا بحذر وسرنا في الجبال والشعاب ونحن نتحدث بعدما ابتعد الخطر وزال بعض ما كان علينا من التعب والإرهاق، ووصلنا إلى بيت أحد مناضلي جبهة التحرير الوطني يدعى "سي المكي" وهو ممون مركز الولاية بالمؤن فقصدناه.

فوجدنا عنده بعض جنود جيش التحرير كمنصور رحال مسؤول الإرسال في مركز الولاية الأولى ولحبيب خطاف مسؤول مركز الاتصال في الولاية (حاليا هو عقيد متقاعد من الجيش الوطني الشعبي) وبومدين رحالي. وصويلح والذين تمكنوا من الإفلات من التطويق هم أيضا، وأحضرت إحدى العجائز العارفات بفنون التطبيب الشعبي دباغا (لحاء الشجر) وبعض الدهان وعالجت جراحنا وربطت الجراح بشريط من الكتان.

سألت الجنود عما جرى لهم وتحادثنا عن الوضع في الأوراس بعد هذه العملية الواسعة، وبقينا ثلاثة أيام مختبئين في نواحي جبل شيلية، ثم أرسلنا بعض المدنيين لاستقصاء الأمر وما إذا كان الجيش الفرنسي قد غادر المكان أم أن عمليته العسكرية ما زالت متواصلة، وبعد التحقق من خروج العساكر من المنطقة وخاصة من مركز الولاية رغم تمركز بعض قواته على الأطراف، عدت إلى مركز الولاية وشرعت في تجميع الإطارات والجنود، ثم قصدنا مكان الاشتباك فلم نجد جثة الرائد سويعي، وسمعنا بأن الجيش الفرنسي قد أخذ الجثة إلى مسقط رأسه بتبسة، في حين كانت جثث بعض المجاهدين متناثرة هنا وهناك حيث استشهد في هذه العملية العسكرية العديد من مسؤولي مركز الولاية كالبطلين محمد الدراجي والشريف جلالي اللذين أخذ العساكر الفرنسيون جثتيهما.

وخلال هذه العملية ارتكبت قوات الاحتلال مجزرة تقشعر لها الأبدان، إذ قامت بتجميع اللاجئين والأسرى من المجاهدين في مركز "بوحمامة" وأوثقت أيديهم ورمتهم من أعلى جرف يدعى "كاف برقة".

إعادة تنظيم الولاية الأولى

بعد انتهاء عملية "آرياج" عقدت اجتماعا لمسؤولي المنطقة الثانية في 15 فيفري 1961، وشارك في هذا الاجتماع كل من الضابط الثاني عضو مجلس المنطقة الثانية (سياسي)، الضابط الأول محمد حابة عضو مجلس المنطقة (عسكري)، الملازم الثاني الطاهر معاليم مسؤول الناحية الأولى - أريس، الملازم الثاني محمد العسكري مسؤول الناحية الثانية، الملازم الثاني عبد الله غبروري مسؤول الناحية الثالثة، الملازم الثاني محمد الطّاهر صدراتي مسؤول الناحية الرابعة - جبل كيمل، والملازم الأول محمد جرموني مسؤول عسكري للناحية الرابعة، والملازم الأول محمد زايدة كاتب الولاية واثنان من مرافقي مسؤول الولاية وهما العايش حصروري وأحمد بكرون مسؤول الحراسة على مركز الولاية، بالإضافة إلى المجاهد محمد الصغير هلايلي.

وناقشنا في هذا الاجتماع نتائج المعارك التي خاضها جيش التحرير الوطني مع الجيش الفرنسي، حيث استشهد في هذه المعارك ألف مجاهد ومدني من بينهم الرائد علي سويعي، والضابط الثاني عبد المجيد بن عبد الصمد، والملازم الثاني عبد الحميد شعباني مسؤول الناحية الرابعة، أما من جانب الجيش الفرنسي فقد تم إسقاط 10 طائرات حربية وإحراق العشرات من الدبابات وقتل ما يتراوح بين 700 و800 جندي فرنسي، وتقرر في هذا الاجتماع تجنيد الشباب وترقية المجاهدين في المناطق والنواحي والقسمات، كما درسنا مخطط ديغول للقضاء على الثورة، من خلال تسليط العمليات العسكرية بشكل متتابع على مركز الولاية.

وبعد استشهاد الرائد علي سويعي أعدت الاعتبار للرائد مصطفى مراردة وكلفته بالاتصال بالولايتين الثانية والثالثة وتسوية مشكل الحدود

معهما، حيث كان جنود من الولاية الثالثة يجمعون الاشتراكات من سطيف التابعة للولاية الأولى ونفس الشيء بالنسبة لولاية الشمال القسنطيني، وقد كانت مدينة سطيف تابعة للولاية الثالثة في التقسيم الأول للثورة ولكن خلال مؤتمر الصومام قرر قادة الثورة ضمها إلى الولاية الأولى نظرا لأن المناطق التابعة إليها كانت فقيرة ولا تضم مدنا كبيرة من حيث عدد السكان، مقارنة بمدن مثل قسنطينة وبجاية والجزائر العاصمة ووهران، وهذا ما جعل حجم الاشتراكات التي نجمعها من أبناء الشعب، ليس بالحجم المطلوب، فاتصل الرائد مصطفى مراردة بالولاية الثالثة وسوّى المشكل مع قائدها محند أولحاج ثم عرج إلى الولاية الثانية وقابل قائدها بالنيابة الرائد الصالح بوبنيدر الذي خلف علي كافي، وشرح له الموقف وتم تحديد الحدود بين الولايتين، وعكف مراردة راجعا إلى الولاية الأولى بعد نجاحه في مهمته رغم الصعوبات التي واجهته طوال الطريق من وإلى الأوراس، وبعد هذه الرحلة طلب الرائد مراردة مني أن أسمح له بالذهاب إلى تونس للعلاج فأذنت له، ولم يعد مراردة من رحلته تلك إلا بعد الاستقلال فلم يكن من السهل اجتياز خطي موريس وشال عند العودة وإن كان أسهل عند الخروج.

رسالتي إلى عجول

اجتمعت بالنقيب محمد الصالح يحياوي وبحثنا أمر عجول أحد قادة الأوراس ومن المناضلين القدامى في الحركة الوطنية والذي سلم نفسه للعدو بعد المحاولة الفاشلة لاغتياله من طرف رفاق السلاح، وأردت استمالته وامتصاص حنقه تجاه المجاهدين حتى لا يُساعد الجيش الفرنسي في عملياته العسكرية في الولاية الأولى، كما أنه بلغني محاولات عجول الاتصال بقيادة الثورة قصد الدفاع عن نفسه من تهمة الخيانة التي ألصقت به وتبرير إعدام شيهاني بشير قائد الأوراس بالنيابة، الذي اعترف عباس لغرور بأنه هو الذي قتله وليس عجول "لأنه كان يعاني من مرض لا يداويه إلا القتل".

وكتبت مع النقيب يحياوي قائد المنطقة الثانية حيث يوجد مركز الولاية في الرسالة التي بعثنا بها إلى عجول الذي كان مقيما في مركز من مراكز العدو في بلدة تكوت "... كنتَ من الأوائل الذين رفعوا لواء الجهاد في هذه الولاية... فكر قليلا في بلدك وفي شعبك..."، وتحرك يحياوي مع بعض المجاهدين إلى أطراف مدينة تكوت بالقرب من أريس لإرسال هذه الرسالة إلى عجول عبر أحد مناضلي جبهة التحرير، غير أنه وقع في الطريق في كمين للجيش الفرنسي فأصيب بجراح خطيرة في عظم فخذه، وسقطت من يده المحفظة التي بداخلها الرسالة، فحمله مصطفى لجنف ومحمد جلالي وانسحبوا به إلى داخل الغابة، وأنقذوه من الموت المحقق، وعولج فيما بعد لكنه بقي يعاني من هذه الإصابة حتى بعد الاستقلال.

أما ما كان من أمر عجول فقد جاءه الضباط الفرنسيون حاملين معهم الرسالة التي كتبتها له بعد أن وقعت في أيدهم المحفظة التي كان النقيب يحياوي يحملها معه، واستفسروه عن أمرها بعد أن شكوا في نيته في الالتحاق بالثوار وقتال فرنسا مجددا، فأراد عجول تبديد شكوكهم فقال لهم "لقد حاولوا معي كثيرا لكنهم لم ينالوا مني مرادهم".

الجيش الفرنسي يغزو جبال الأوراس

في ماي 1961 عاودت القوات الفرنسية تمشيط الأوراس من جديد وإستهدفت مركز الولاية الأولى، فانسحبنا وقصدنا وادي "آذما" في غابة البراجة ونمنا هناك بعد أن وضعنا الحراسة حول المكان، ومر العملاء والقومية ومعهم عساكر الجيش الفرنسي في تلك الليلة غير بعيد عن الموقع الذي نمنا فيه لكننا لم نكتشفهم كما أن الحراس لم يلحظو أي حركة، غير أننا في الصباح وجدنا أثار أقدام الأعداء فاندهشنا للأمر وحمدنا الله على أن الأعداء لم يكتشفونا وإلا لأخذونا على حين غرة، فقد كان القومية يعرفون المنطقة جيدا ولم يكن بإمكان الفرنسيين اقتحام الغابة خاصة في الليل إلا ومعهم العملاء الذين يتقدمون الصفوف.

وفي الليلة التالية وبينما أحد المجاهدين يمشي في الغابة اصطدم بشخص نائم فظنه مجاهد ولكنه عندما تحقق منه وجده أحد عساكر اللفيف الأجنبي (المرتزقة) فقضى عليه وغنم سلاحه وذخيرته، وتكررت عمليات القضاء على العساكر الذين يتيهون في الغابة أو يتخلفون عن زملاءهم خلال العمليات العسكرية الواسعة، إذ كنا نهاجم مؤخرة الجيش الفرنسي عند انسحابه، وننظم الكمائن للشاحنات العسكرية عند مرورها بالقرب من المنحدرات الجبلية السحيقة فنمطر سائقي هذه الشاحنات بالرصاص مما يؤدي إلى فقدانهم لتوازن مركباتهم فتسقط في أسفل المنحدر ويقتل معظم العساكر الذين على متنها.

بقي العساكر الفرنسيون في غابات الأوراس ثلاثة أشهر متواصلة بغية القضاء على أي أثر لجنود جيش التحرير الذين كانوا يتحركون من غابة إلى غابة ومن جبل إلى جبل لتفادي الاشتباك مع العدو إلا في حالات خاصة حتى لا يستنفذوا كامل ذخيرتهم في مقارعة جيش عساكره كالجراد، فما إن تقضي على عشرة عساكر أو مئة حتى يظهر لك ألف آخرون. فجيش التحرير في الولاية الأولى كان يقدر مجموعه بما يفوق خمسة آلاف مقاتل في مواجهة ما يربو عن ثلاثين ألف عسكري فرنسي كانوا يهاجمون دفعة واحدة بضعة مئات من المجاهدين الذين تمكنوا من الصمود ومقاومة هذه القوات الضخمة.

لقد كان الجيش الفرنسي يضع فرقا للمراقبة والاستطلاع في الغابة ويتسلق العساكر الأشجار العالية لمراقبة أي حركة غير عادية أو دخان صاعد من الغابة فيرسل إلى القيادة ولا يطول الأمر حتى تأتي الطائرات الفرنسية لقصف المكان، لقد عشنا فترات عصيبة بعد أن أصبح عساكر العدو يقاسموننا "العيش" في الغابة والجبال وأصبح الحصول على المؤونة أمرا في غاية الصعوبة في ظل الحصار المطبق علينا من كل جانب واضطرنا إلى أكل القمح المسلوق (المغلى في الماء) حتى لا نموت جوعا.

أعطيت أوامري لقادة الوحدات بشراء المؤن والأغذية بأكبر قدر ممكن وبأي ثمن يطلب منهم، فالحصار المضروب على الأوراس اشتد

وسياسة عزل الشعب في المحتشدات عن جيش التحرير ضيقت من مصادر تمويل المجاهدين بالمؤن فعانينا كثيرا من نقص الغذاء إلى جانب نقص السلاح والذخيرة.

جيش التحرير يبادر بالهجوم

في سبتمبر 1961 وبعد تراجع حدة العمليات العسكرية الموسعة. أمرت مسؤولي المناطق النواحي والقسمات بالقيام بهجوم واحد على الأقل كل أسبوع سواء لقنص العساكر الفرنسيين أو هدم القناطر أو قطع وتخريب أعمدة الكهرباء والهاتف، والهجوم على المراكز العسكرية الواقعة على أطراف القرى والمداشر القريبة من الغابة. إذ كان المجاهدون (ما بين واحد إلى ثلاثة مجاهدين) يختبئون بالقرب من الثكنات وفي أماكن تقابل الحراس وقبل وقت المغرب بنحو ساعة يقومون بقنص حارس الثكنة، ثم يختفون بين أحراش الغابة، وفي الحين تستنفر القوات الفرنسية فيالقها وتقوم بتمشيط المنطقة القريبة من الثكنة شمالا وجنوبا شرقا وغربا ولكن بدون أن تجد أثرا لهؤلاء المجاهدين الذين تجرؤوا على قنص جنودها وهم داخل الثكنة، وأحيانا كانت تقع اشتباكات خفيفة لكن جيش التحرير سعى دوما لتفادي الدخول في اشتباك واسع حتى لا يعطي فرصة للطيران الفرنسي للتدخل أو للمدافع الثقيلة لقصف مواقع تحصننا والتي كانت ترمي قذائفها كل ليلة بشكل عشوائي.

وصلت أخبار إلى قيادة الولاية الأولى تفيد بأن الجيش الفرنسي عاود الزحف إلى جبال الأوراس، فتحركنا من مركزنا للخروج من التطويق قبل أن يشتد، وتوجهنا إلى مكان في الغابة نستطيع من خلاله مراقبة تحركات العدو والتحصن به إذا ما تعرضنا لهجمات الطائرات الحربية أو اشتبكنا مع القوات البرية. وحملنا معنا 18 كيلوغرام من الدقيق، ومشينا إلى أن وصلنا إلى مكان فيه بركة ماء، فقام الجنود بجمع الدقيق في كيس كبير من الخيشة (الجوت)، وأغطسوه في البركة حتى أصبح عجينا، وكان معهم

غطاء يوضع على ظهر البغل فوضعوا العجين على الغطاء وخبزوه على شكل رغيف عملاق، ولم يبق سوى طهي هذا الرغيف لكن إشعال النار قد يؤدي إلى اكتشاف قوات العدو لمكان تواجد جيش التحرير من خلال الدخان المنبعث في السماء، فأخذ الجنود الرغيف إلى وادي جاف واقع بين جبلين، وأحضر آخرون حطبا انتقوه انتقاء وحرصوا أن يكون من النوع الجاف الذي لا يصدر دخانا.

وأشعل جنود جيش التحرير النار مع غروب الشمس وبزوغ الشفق الأحمر عندما يختلط الليل بالنهار ويصعب على العساكر الفرنسيين تمييز الدخان الخفيف خلال مرحلة تزاوج النهار بالظلام، وعندما تحول الحطب الجاف إلى جمر ملتهب، وضعوا الجمر والرماد فوق قرص العجين، إلى أن أصبح هذا الرغيف العملاق الذي يدعى "الملّه" أو "اركون" بالشاوية جاهزا للأكل، ويشتهر البدو الرحل بهذا النوع من الرغيف ويعدونه في تنقلاتهم من مكان إلى آخر للرعي.

ونظرا للحجم الكبير لهذا الرغيف اضطر المجاهدون إلى تقسيمه بالشاقور ووزعوه على نحو 35 فردا منهم، على أن يكون نصيب كل واحد منا زادنا طيلة فترة هذه العملية العسكرية التي قد تدوم ثلاثة أيام وربما أكثر إلى غاية أن تصلنا المؤن من المجاهدين المكلفين بجمع المؤن من القرى القريبة وعادة ما كانوا يأتوننا بالتمر، ولم يحدث في اليوم الأول من هذه العملية اشتباك بيننا وبين قوات العدو إذ لم يتمكن الفرنسيون من العثور علينا، وفي اليوم الموالي، ولما لم نر أثرا للعساكر الفرنسيين عكفنا راجعين إلى مركز الولاية واعتقدنا أن قوات العدو قد انسحبت، لكننا فوجئنا في الطريق بفرقة من العساكر فاشتبكنا معهم وانسحبنا بسرعة إلى اتجاه آخر لكننا اصطدمنا بفرقة عسكرية أخرى فاشتبكنا معها بشكل خاطف وتوارينا في وسط الغابة، ولم يتمكن العدو من اللحاق بنا في تلك الغابات الكثيفة والجبال الوعرة، ولحسن الحظ لم يصب أي من المجاهدين بجراح، وكانت هذه آخر عملية عسكرية تشنها القوات الفرنسية على الولاية الأولى بعد الاتفاق على توقيف القتال.

وقد كان الفرنسيون يقومون بتسميم منابع المياه في الغابات والجبال التي يمشطونها، حيث مرض أحد المجاهدين بسبب هذه المياه، واستعمل الفرنسيون كل الأساليب القذرة لإطفاء لهيب الثورة.

سلم الشجعان

قام الجيش الفرنسي في إطار الترويج لسلم الشجعان برمي منشورات في المناطق التي تتركز فيها قيادة الولاية الأولى يدعونا فيها إلى ما أسماه بـ "سلم الشجعان" وطالب بمقابلة ضباط في جيش التحرير للحوار حول كيفية توقيف الحرب، وجاء ضباط من الجيش الفرنسي في طائرات مروحية وألحوا علينا أن نخرج لمقابلتهم، لكنني رفضت حتى مجرد لقائهم، لأنه لم تكن لدينا أي ثقة فيهم.

ووصلت رسالة من الولاية الرابعة من توقيع الصالح زعموم إلى الولاية الأولى يطلب فيها لقائي، ثم وصلت رسالة ثانية من الرائد محمد بونعامة عضو قيادة الولاية الرابعة الذي طلب من قيادة الولاية الأولى عدم مقابلة جماعة "الإليزيه" ويعني بهم العقيد الصالح زعموم والرائدين بوشمع وحليم وحذرنا من الثقة بهم، لذلك رفضت مقابلة سي الصالح وتجاهلته تماما، بعدما سمح هذا الأخير لنفسه بالتفاوض مع الجنرال ديغول في قصر الإليزيه بباريس دون موافقة الحكومة الجزائرية المؤقتة التي أمرت بإلقاء القبض عليه هو ومن رافقوه إلى باريس، وقاد الرائد محمد بونعامة الانقلاب على العقيد سي الصالح بتأييد من لخضر بورقعة، ولم يبد سي الصالح أي مقاومة ورفض أن يلطخ شرف جهاده بتسليم نفسه إلى الفرنسيين للنجاة من الموت على أيدي إخوانه، وقتل سي الصالح وهو يؤمن أن لقاء الإليزيه لم يكن خيانة للثورة، بل كانت له أسبابه التي دفعته للإقدام على هذه المخاطرة.

تشكيل مجلس جديد للولاية الأولى

بعد استشهاد الرائد عمار راجعي وبعده الرائد علي سويعي وسفر الرائد مصطفى مراردة لتونس، أصبحت وحيدا في مجلس قيادة الولاية وفي حال استشهادي فسيخلق ذلك فراغا على مستوى القيادة. لذلك قرّرت في جانفي 1962 تعيين إطارات جديدة في مجلس الولاية خاصة أن قيادة الأركان العامة عندما عينتني قائدا للأوراس في أكتوبر 1960 طلبت مني أن أرسل لها قائمة أعضاء مجلس الولاية. وترددت في اختيار أعضاء المجلس خاصة بعد خروج جدي مقداد القائد السابق للمنطقة السادسة من السجن الذي جاءني إلى مركز الولاية. ففكّرت في تعيينه في مجلس الولاية ولكن بعد جس نبض المجاهدين وجدت أن معظمهم يشكك في الطريقة التي ألقت بها فرنسا القبض عليه فاستبعدته من ذهني. ففكرت في محمد الصغير هلايلي لكني تحفظت بشأنه. وفي النهاية وقع اختياري على محمد الصالح يحياوي الذي عينته مسؤولا سياسيا، وعمّار ملاح مسؤولا عسكريا، وإسماعيل محفوظ طبيب الولاية الذي تعرفت عليه في 1956 بالأوراس عندما كنت محتجزا عند عجول، ورقيته لمنصب رائد في مجلس الولاية مكلفا بالشؤون الاجتماعية وهي صفة لم تكن معهودة في تنظيم الثورة، وذلك نظرا لإخلاصه الشديد للثورة وتضحياته الكثيرة لإنقاذ حياة العديد من المجاهدين الجرحى، بل وقام بعمليات جراحية في ظروف جد صعبة استعمل فيها حتى شفرة الحلاقة نظرا لنقص التجهيزات الطبية.

الفصل الرابع عشر

الانتصـــار الضائـــع

جنرالات فرنسا يفشلون في الإطاحة بديغول

في 13 ماي 1958 قام جنرالات فرنسا بالجزائر بالإطاحة بالجمهورية الفرنسية الرابعة وعينوا الجنرال "شارل ديغول" على رأس الجمهورية الخامسة، لكن هؤلاء الجنرالات قاموا بمحاولة انقلابية فاشلة بقيادة "سالان" ضد ديغول في فيفري 1960 لأنه قال في إحدى خطاباته في 1959 "الجزائر جزائرية"، وكان ديغول قد أقال الجنرال "سالان" الذي التجأ إلى إسبانيا وعارض طروحات الجنرال ديغول علانية، كما أقال الجنرال شال قائد الجيش الفرنسي و"زيلار"، وقد قام الأوربيون بتنظيم مظاهرات شعبية رفعوا فيها شعار الجزائر فرنسية، واستولوا على قصر الحكومة وقصر الشعب الذي يقيم فيه الحاكم العام الفرنسي، وفي الغد ظهر الجنرال ديغول في التلفزة الفرنسية وتحدث عن انقلاب الجنرالات المتقاعدين واستيلائهم على الجزائر وأعطى أمرا بالإطاحة بهؤلاء الجنرالات، وقال "أربع جنرالات متقاعدين يحاولون الاستيلاء على السلطة وأطلب من كل مدني أو عسكري، ضابط صف أو ضابط أن يقفوا إلى جانب موقف الجمهورية الفرنسية في انتظار الإطاحة بهم" ورجع الضباط والجنود إلى الثكنات فانهار الانقلاب، وقد حاولت منظمة الجيش السري من قبل قتله بقنبلة انفجرت عند عودته إلى بيته لكنها لم تصبه بأذى، وكان "جوكس" المفاوض الفرنسي هو الذي أعلن عن اتفاق توقيف إطلاق النار.

توقيف القتال 19 مارس 1962

تابع قادة الولاية الأولى باهتمام المفاوضات الجارية بين الحكومة الجزائرية المؤقتة والحكومة الفرنسية في مدينة "إيفيان" السويسرية وذلك عبر الراديو، ولكم كانت المفاجأة كبيرة عندما أعلن يوسف بن خدة رئيس الحكومة الجزائرية المؤقتة ليلة 18 مارس 1962 توقيف القتال في كامل القطر الجزائري بداية من منتصف نهار 19 مارس 1962، على أن

يتم استفتاء الشعب الجزائري حول تقرير مصيره بعد ثلاثة أشهر من هذا التاريخ، وقبلت الحكومة المؤقتة الاستفتاء على تقرير المصير وهذا بعد إصرار ديغول كحل وسط لحفظ ماء وجهه أمام الشعب الفرنسي وأمام العالم حتى لا تظهر فرنسا وكأنها انهزمت أمام الثورة الجزائرية ومما قال:

"باسم الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية وبوكالة من المجلس الوطني للثورة، أعلن عن وقف القتال فوق التراب الجزائري كله ابتداء من 19 مارس 1962 على الساعة الثانية عشرة زوالا، باسم الحكومة فإنني أعطي الأمر لجميع وحدات جيش التحرير بوقف جميع العمليات العسكرية"

وتناقل جنود جيش التحرير الخبر الذي لم يكن متوقعا لحظتها، وسادت ساعتها حالة من الدهشة ممزوجة بالفرحة الغامرة اكتسحت نفوس مجاهدي جيش التحرير الذين أخذوا يطلقون البارود في السماء وصرخات الفرحة بهذا النصر المؤزر، فقد آن لهذا الاستعمار الغاشم أن يرحل عن أرضنا الطاهرة إلى الأبد، وأن يرفع الشعب الجزائري هامته في السماء بعد 132 سنة من الذل والهوان تحت نير الاحتلال.. سبع سنوات من الجهاد المتواصل، جوع وعطش وحرمان وعذاب وجراح وقتل ودماء.. يوميات كفاح شعب لم يرض يوما بديلا عن الحرية.

وفي نفس اليوم أفرجت فرنسا عن المختطفين الخمسة لديها (أحمد بن بله، محمد بوضياف، حسين آيت أحمد، محمد خيضر، ورابح بيطاط) والذين توجهوا إلى المغرب من سويسرا وذلك في طائرة أمريكية مؤجرة من طرف ملك المغرب، ومن هناك توجهوا إلى مصر واستقبلوا حينها استقبال الأبطال.

500 حركي يستسلمون لقيادة الولاية الأولى

تلقى الحركى وعملاء الاستعمار نبأ توقيف القتال والاستفتاء على تقرير المصير بنوع من الصدمة فمصيرهم أصبح مهددا، ورهانهم على فرنسا قد انهار والجيش الفرنسي تخلى عنهم وفصلهم عن صفوفه، وكان أحد ضباط الجيش الفرنسي الذين ينشطون مع المنظمة السرية "أواس" يدعى

"لاغاردار" أمر الحركى بالصعود إلى الجبال لقتال الثوار فيما يسيطر إرهابيو منظمة الجيش السري على المدن التي ارتكبوا فيها عدة مجازر ومذابح جماعية خاصة في العاصمة وعين مليلة، لكن جيش التحرير رد على هذه المنظمة السرية حتى بعد توقيف القتال كما حصل في وهران.

وكان لبعض هؤلاء الحركى أبناء عمومة في جيش التحرير فاتصلوا بهم وأبلغوهم رغبتهم في الاتصال بقيادة الولاية الأولى، وجاءني أحد المجاهدين إلى وأخبرني أن الحركى وبأمر من الضابط "لاغاردار" عسكروا في الجبال بعد أن سلحتهم منظمة الجيش السري جيدا، بغية إجهاض الاستفتاء على تقرير المصير، لكن هؤلاء القومية يرغبون في الاتصال بقائد الولاية. وهم مترددون بين مواصلة قتال جيش التحرير أو الاستسلام بعد أن أصبح استقلال الجزائر مؤكدا.

تفاجأت لهذا الأمر وخشيت أن تكون هذه مكيدة من القومية وغلاة المستعمرين لإفشال اتفاقية إيفيان، لكن واجبي كان يتطلب مواصلة الدور السياسي الذي تقوم به الحكومة المؤقتة لتحقيق الاستقلال، وكان الحركى متمركزين في عدة نقاط في جبال الأوراس، وعددهم كان كبيرا (ما يقرب عن 500 حركي)، ولم يكن الوقت يسمح لي بجمع عدد كبير من الجنود من المناطق العسكرية للولاية، فاكتفيت بجمع الجنود المكلفين بحراسة مركز الولاية، وجنود مركز الاتصال، وحراس مستشفى الولاية وبلغ مجموعهم حوالي 90 جنديا وتوجهت بهم إلى "منطقة لمصارة" أين تجمع القومية على بعد أربع كيلومترات عن مركز الولاية.

توقفت ومن معي على بعد 60 مترا من مركز تجمع الحركي على أطراف أحد الجبال، وصعدت فوق إحدى الصخور، وجاءني عشر رجال من القومية لمقابلتي في حين بقي الآخرون ينظرون من بعيد في قلق ولهفة لمعرفة ردة فعل جيش التحرير تجاههم، ولم ننتظر كثيرا إذ لحق آخرون برفاقهم العشرة، فأصبحوا عشرين ثم ثلاثين فمئة فثلاث مئة ليلتحق جميع الحركى دفعة واحدة بمكان اللقاء وكان معي أقل من كتيبة من الجنود لكني تعاملت بحكمة مع هذا الوضع، وخطبت عليهم قائلا:

"اليوم توقيف القتال وقع، وتحرير الجزائر تم بشكل ليس بعده كلام، ونحن رفعنا السلاح من أجل تحرير بلدنا، أنظروا إلى تونس، انظروا إلى المغرب وإلى الهند الصينية (فيتنام)... وأنتم فيكم من غلطوه، وفيكم من حمل البندقية مع فرنسا من أجل 30 ألف كمرتب آخر الشهر، وعلى كل حال أنتم جزائريون وإخوتنا ونعرف أن الكثير منكم ساعدونا بالمعلومات والخرطوش وحافظتم لنا على الشعب، والدولة الجزائرية سترحم أولادها مهما كانت غلطاتهم ولن تحاسب أبناءها لأن المهم هو تحقيق الاستقلال، ونحن قتالنا مع فرنسا وليس معكم أنتم، وأنا أعاهدكم بدم الشهداء وعهد النبي محمد عليه الصلاة والسلام أن لا يمسكم منا شيء، فبعد توقيف القتال وانتهاء الحرب سيصدر عفو عام...".

وطلب الحركى مني ضمهم إلى جيش التحرير الوطني، وقبلت هذا الأمر بدون تردد، حتى نستوعبهم ولا يكونوا شوكة في حلق جيش التحرير بعد الاستقلال لأنهم إن تحصنوا بالجبال فقد يرهقون الجيش حتى ولو رحل الفرنسيون، وسيكونون في هذه الحالة سندا قويا لمنظمة الجيش السري التي واصلت عمليات القتل والتخريب وحرق المؤسسات الاقتصادية والثقافية.

أخذت الحركى إلى مركز الولاية لكني قمت بتفريقهم وتوزيعهم على بعض المراكز العسكرية في المنطقتين الثانية والسادسة لأنهما كانتا الأقرب إلى مركز الولاية، وفي كل الأحوال كنا حذرين منهم، فضاعفت عدد الحراس أربعة إلى خمسة مرات ومع ذلك لم يشعر الحركى بأننا لا نثق بهم أو أننا ننوي بهم سوء، بل ونام ثلاثة من قادة الحركى الكبار معي في نفس الكازمة.

وبعد أيام أراد بعض الحركى أن يزوروا أهاليهم في القرى والمدن، فأعطيت تعليمات سرية إلى قادة الوحدات بإلزام أي حركي بترك سلاحه ولباسه العسكري قبل مغادرة مراكز جيش التحرير ومن ثم عدم السماح لهم بالالتحاق بالجيش مجددا، وبهذه الطريقة تم تجريد الحركى من أسلحتهم وألبستهم العسكرية تدريجيا، فردا فردا وفي هدوء وبلا عنف ولا دماء.

أما صالح عبد اللاوي نائب قائد المنطقة الثانية والذي أرسلت له 100 حركي فكان يُدخل الحركى واحدا تلو الآخر إلى بيت فيه بابان خارجيان فيدخل الحركي البيت من الباب الأول ويضع سلاحه ولباسه ثم يخرج من الباب الثاني أعزلا ويتم تسريحه مباشرة من جيش التحرير. ولم يمر شهر حتى تم تسريح جميع الحركى من جيش التحرير في الولاية الأولى مع الاحتفاظ بأسلحتهم وألبسة القوات الخاصة التي كانوا يرتدونها، إذ كان كل حركي يحمل معه من قطعتين إلى ثلاث قطع سلاح (بندقية آلية من نوع ماس36 ورشاش ومسدس بالإضافة إلى قنبلة يدوية من نوع غروناد).

الهيئة التنفيذية المؤقتة

نصت اتفاقية إيفيان في أحد بنودها على تشكيل هيئة تنفيذية مؤقتة من 9 مسلمين و3 أوربيين وتبقى في السلطة إلى غاية يوم إجراء الانتخابات الخاصة بتقرير المصير، واتخذت من بومرداس مقرا لها، واختار كل من الطرف الجزائري والفرنسي ست أعضاء يمثلونهم في هذه الهيئة .

وقدم إلى مركز الولاية الأولى كل من عبد السلام بلعيد ممثل عن الهيئة التنفيذية المؤقتة ونور الدين خلادي ممثل لجنة وقف إطلاق النار وقابلوني فبادرت بلعيد عبد السلام بالسؤال عن أحوال البلاد، فلمح لي إلى وجود خلافات بين قادة الثورة بدأت تطفو على السطح ثم قال لي "كلفت لأتصل بمسؤولي الولايات لحضور الاجتماع الأخير للمجلس الوطني للثورة في الخارج ثم الدخول إلى الجزائر بعد الإعلان عن نتائج الاستفتاء على تقرير المصير واستلام جبهة التحرير الوطني للسلطة من الهيئة التنفيذية المؤقتة، وسيكون هناك اجتماع آخر في الجزائر" .

فقلت له:

– سأعبر خطي شال وموريس وآتيكم إلى تونس.

– لا .. بل تأتي عندنا في الروشي نوار (بومرداس)، فقد وضعت فرنسا تحت تصرفنا طائرة عسكرية من الجزائر إلى مطار بنزرت العسكري بتونس للاتصال بالحكومة المؤقتة.

أما نور الدين خلادي فقال لي "جئت لآخذ ضباطا لتشكيل لجنة لتوقيف القتال على مستوى الولاية". فاخترت كلا من منصور رحال، ومحمد الصالح الصفاقسي، والسعيد بن عبيد، وقمت بترقيتهم إلى رتب أعلى للرفع من شأنهم أمام ضباط فرنسا الأعضاء في اللجنة المشتركة لتوقيف القتال، كما تم تشكيل لجان محلية لتوقيف القتال على مستوى باقي الولايات العسكرية.

كلفت لجنة توقيف القتال بوقف أي صدام بين جيش التحرير والجيش الفرنسي ومنع المجاهدين من دخول المدن وفي نفس الوقت يمنع العساكر الفرنسيون من دخول الجبال، ومع ذلك وقعت بعض المناوشات في "بوحمامة" التي كانت توجد بها ثكنة كبيرة للجيش الفرنسي تنطلق منها العمليات الكبرى ضد جيش التحرير في الجبال ولكن تم إخلاؤها فقمنا بنقل مركز الولاية إليها، ولكن كتيبة من الجيش الفرنسي عادت وتحججت برغبتهم في إجراء تدريبات في المنطقة، لكن جنود جيش التحرير أوقفوا العساكر الفرنسيين ومنعوهم من التقدم، معتبرين ذلك استفزازا لهم، ولما أصر الفرنسيون على موقفهم أطلق عليهم المجاهدون النار ورد الفرنسيون لكن سرعان ما تدخلت لجنة توقيف إطلاق النار وتم إنهاء هذه المناوشات.

لكن حدثت مناوشات أخرى في الولاية السادسة بين المجاهدين والعساكر الفرنسيين، حيث انسحب الجيش الفرنسي من إحدى الثكنات، فاستولى عليها مجاهدو الولاية السادسة، فاحتج الفرنسيون على ذلك ووقعت مناوشات بين الطرفين وتدخلت مجددا لجنة توقيف القتال وكان فيها منصور رحال من الولاية الأولى وتم فض الاشتباك.

كان الجيش الفرنسي يتعمد استفزاز جيش التحرير بالتنسيق مع المخابرات الفرنسية لجس نبضه والتعرف على قدرات المجاهدين وإمكانياتهم، وكان ضباط جيش التحرير يعلمون أن هذه التصرفات معزولة وليست بأوامر من قادة الجيش الفرنسي أو من الحكومة الفرنسية فقد كان ديغول يبحث عن مخرج من حرب الجزائر ولكن بشكل مشرف حتى لا يمرغ أنف فرنسا في التراب.

اجتماع قادة الولايات الأولى والثانية والثالثة

قبل يومين أو ثلاثة من هذا اللقاء اتصلت بمسؤولي الولايتين الثانية والثالثة القريبتين جغرافيا من الولاية الأولى لجس نبض قادة الولايتين إزاء المشاركة في مؤتمر المجلس الوطني للثورة الجزائرية خاصة بعد أن طفت الصراعات بين الحكومة المؤقتة وقيادة الأركان، وتقرر عقد اجتماع في جبل بوهنداس في ضواحي سطيف بين العقداء الثلاثة :

- العقيد الطاهر زبيري قائد الولاية الأولى (الأوراس)
- العقيد الصالح بوبنيدر قائد الولاية الثانية (الشمال القسنطيني)
- العقيد محند أولحاج قائد الولاية الثالثة (القبائل)

وحضر مع العقيد أولحاج الشيخ يوسف يعلاوي، والرائد حسن محيوز، كما حضر مع العقيد بوبنيدر عناصر من قيادة الولاية الثانية، وابتدرت المجتمعين بالسؤال "هل وجهت لكم دعوات لحضور اجتماع في الخارج؟". فزمجر العقيد بوبنيدر وعربد وانتقد بشدة قيادة الأركان العامة معتبرا إياها "أكبر المخاطر بما تسببت فيه من فوضى في الخارج والتغرير بوحدات جيش التحرير الوطني المجمدة على الحدود الجزائرية التونسية معتبرا أن مسؤوليها لم يبذلوا أي جهد ـ حسبه ـ لإيصال السلاح إلى الداخل ورفض العقيد بوبنيدر أن يكون أحمد بن بله ضمن قيادة الدولة الجزائرية المستقلة إطلاقا، واقترح على رفيقيه إدانة هيئة الأركان العامة والإلحاح عليها بإطلاق "سراح" جنود الحدود لديها وتمكينهم أخيرا من الالتحاق بولاياتهم الأصلية"، فقلت له "يا صالح إن القيادة في تونس وبالأخص بعد خروج القادة الخمسة من السجن تعرف بعض الخلافات، فلنذهب إلى عين المكان ولنرى ماذا سيحدث"، فرد علي العقيد بوبنيدر "سأستشير أصحابي ثم أقرر"، أما العقيد محند أولحاج قائد الولاية الثالثة فأكد عدم مشاركته في الاجتماع الرابع للمجلس الوطني للثورة وأضاف "عندي من أوكله نيابة عن أعضاء مجلس الولاية".

عدت إلى مركز الولاية الأولى في نفس اليوم على متن سيارة، وعقدت اجتماعا لمجلس الولاية حضره كل من الرواد محمد الصالح يحياوي،

وعمار ملاح، وإسماعيل محفوظ أما الرائد مصطفى مراردة فكان لازال في تونس، وأخبرتهم أنني سأذهب إلى تونس للمشاركة في اجتماع المجلس الوطني للثورة الجزائرية وتركت الرائد محمد الصالح يحياوي على رأس الولاية الأولى بالنيابة.

توجهت منفردا إلى المطار العسكري ببومرداس على متن سيارة أحد السكان يسمى "الكواشي بن عطية"، وارتديت هذه المرة لباسا مدنيا لكني حملت معي مسدسا، وركبت في طائرة عسكرية للنقل. كان ضمن ركابها أعضاء من الهيئة التنفيذية من بينهم عبد السلام بلعيد، وحطت الطائرة بمطار بنزرت العسكري في تونس والذي كان لا يزال خاضعا للفرنسيين، وكان عبد السلام بلعيد قد أخبرني أنه حالما يصل إلى تونس سيجد سيارة خاصة ستقله إلى مدينة تونس، وهو ما حدث فعلا فقد كانت الأمور منظمة بامتياز.

لقاء حاد مع بوضياف

لما وصلت إلى مدينة تونس استقبلني العديد من مجاهدي الأوراس في المطار على غرار شقيقي بلقاسم وصالح السوفي وإبراهيم بوتمجت والسعيد عبيد والعياشي حواسنية والرائد أبو بكر من الولاية الخامسة، ووجدت الجميع يتكلم عن بن بله، وألحوا علي أن أذهب لمقابلة أحمد بن بله قبل أن ألتقي أيا من قادة الثورة، لكنني أصررت على مقابلة محمد بوضياف لأنني كنت قد سمعت من الشهيد مصطفى بن بولعيد أنه المنسق بين الداخل والخارج، فقلت لهم "إما أن تأخذوني عند بوضياف أو سأطلب من وزارة الداخلية التونسية أن ترسل معي ضابطا أو شرطيا ليأخذني عنده"، فأوصلوني إلى الفيلا التي يقيم فيها بوضياف بالعاصمة تونس، ولم يكن سبق لي وأن التقيت بهذا الزعيم الثوري، فدخلت إليه ولفت انتباهي عدم وجود أي شخص معه، فسلمت عليه وعرفته بنفسي ثم سألته عن أحواله، فصرخ علي متجهما:

"ماكوش (لستم) رجال اللي جيتو (لأنكم قبلتم المجيء لحضور اجتماع المجلس الوطني للثورة)"، فقد كان بوضياف غاضبا وساخطا لأن أغلب رجال الثورة مالوا إلى جانب أحمد بن بله والتفوا حوله ونسوا بأنه أب الثورة الجزائرية، وقلت له بعد أن فوجئت بهذا الرد الحاد "لقد تلقينا دعوة لحضور اجتماع المجلس الوطني وجئنا على أساسها إلى هنا".

فقال لي بوضياف بنفس الحدة "إبقوا في مهماتكم، فهؤلاء يتلاعبون" وكان يقصد بن بله وجماعته، فغضبت من الأسلوب الحاد الذي استقبلني به بوضياف في أول لقاء يجمعنا وأنا الذي جئته من الأوراس وفضلته على بن بله وقلت له "إسمع يا سي محمد، لو كان هناك رجال، ما جئنا اليوم إلى هنا".

غادرت فيلة بوضياف لكني كنت أتفهم في نفسي سبب غضب هذا الرجل الذي يرى نفسه أب الثورة الجزائرية والأحق بزعامتها من بن بله الذي يقف وراءه الزعيم المصري جمال عبد الناصر.

انقسام زعماء الثورة

اشتد الخلاف بين قيادة الأركان العامة والحكومة المؤقتة خاصة بعد إسقاط طائرة استطلاع فرنسية على الحدود في التراب التونسي وأسر طيارها في 21 جوان 1961، وألح بورقيبة على ضرورة أن تسلمه الحكومة المؤقتة الطيار الفرنسي، ضاربا في نفس الوقت حصارا تموينيا ورقابة على الحدود، وأمرت الحكومة المؤقتة هيئة الأركان العامة بتلبية طلب الرئيس التونسي، وبعد أيام من التردد سلم بومدين الطيار الأسير، فكانت القطيعة مع الحكومة المؤقتة، وفي 15 جويلية 1961 قدمت هيئة الأركان العامة المشكلة من العقيد هواري بومدين والرواد علي منجلي وأحمد قايد وعز الدين استقالتها لرئيس الحكومة المؤقتة ووجهت بالمناسبة مذكرة تضمنت انتقادات لاذعة لممارسات وزراء الحكومة.

وتوجه العقيد هواري بومدين رفقة أحمد قايد وعلي منجلي إلى ألمانيا الغربية بعد أن شكلوا تكتلا مع ضباط جيش الحدود الذين تضامنوا معهم،

أما الرائد عز الدين العضو الآخر في هيئة الأركان فقد كان يميل إلى صف الحكومة المؤقتة وكريم بلقاسم لذلك لم يذهب معهم، بل أرسلته الحكومة المؤقتة إلى ضباط جيش الحدود لاستمالتهم لصفها وتأليبهم ضد بومدين وصاحبيه لكنهم تجاهلوه.

وحاولت هيئة الأركان العامة أن تكسب تعاطف الزعماء الخمسة المسجونين، فأرسلوا عبد العزيز بوتفليقة إليهم في السجن وعرض عليهم تفاصيل الأزمة التي وقعت بينهم وبين الحكومة المؤقتة، لكن مشكلة بوضياف أنه كان يؤيد موقف كريم بلقاسم ويفضل التعاون معه بقصد منع أحمد بن بله من الوصول إلى السلطة، ولهذا كان بن بله البديل بالنسبة لهيئة الأركان في مواجهة الحكومة المؤقتة بقيادة الباءات الثلاثة، خاصة بعد أن أبدى بن بله تأييده لموقف قيادة الأركان بخصوص أزمة الطيار الفرنسي.

وخرج الزعماء الخمسة من السجن وشكلوا كتلتين متصارعتين ثلاثة ضد اثنين، أحمد بن بله ومحمد خيضر ورابح بيطاط من جهة، ومحمد بوضياف وحسين آيت أحمد من جهة ثانية وحول هاتين الكتلتين التف قادة الثورة بشكل متضاد، ولكن كتلة بوضياف - أيت أحمد كانت ضعيفة لأن كلاهما كان يرى نفسه أولى بالزعامة من الآخر، فآيت أحمد يعتقد أنه أفضل من بن بله وبوضياف لأنه كان قائد المنظمة السرية بعد المرحوم محمد بلوزداد وقبل أن يتولاها بن بله، ولهذا السبب انعزل آيت أحمد بعيدا عن كتلتي بن بله وبوضياف.

كتلة بن بله

تحالفت هيئة الأركان ومعها جيش الحدود مع كتلة بن بله، وانضم إليها قادة الولايات الأولى والخامسة والسادسة وجزء من الولاية الثانية، بالإضافة إلى فرحات عباس رئيس الحكومة الجزائرية المؤقتة السابق، ومحمدي السعيد قائد أركان المنطقة الشرقية قبل توحيد هيئة الأركان، واعمر أوعمران القائد الأسبق للولاية الرابعة وعضو لجنة

التنسيق والتنفيذ، بالإضافة إلى ياسف سعدي الذي عيّنه بن بله فيما بعد مسؤول المنطقة الحرة (العاصمة) وكان يساعده مصطفى فتال.

كتلة بوضياف

وضمت كلا من كريم بلقاسم الوزير الأسبق للقوات المسلحة والولاية الثالثة وجزء من الولاية الثانية بقيادة العقيد "الصالح بوبنيدر" وفديرالية جبهة التحرير في فرنسا، وبن يوسف بن خدة رئيس الحكومة المؤقتة.

أما الولاية الرابعة فقد اتخذت موقفا معارضا من قادة الخارج بما فيهم الزعماء الخمسة وهيئة الأركان العامة والحكومة المؤقتة، واقترحت بالمقابل أن يتولى قادة الولايات مسؤولية قيادة البلاد.

مؤتمر طرابلس 25 ماي - 7 جوان 1962

أقمت يومين في تونس، وعملت في هذه المدة القصيرة على جس نبض الأجواء قبل الذهاب إلى طرابلس فالتقيت الزعماء الخمس بمن فيهم أحمد بن بله وأعضاء الحكومة المؤقتة ورئيسها بن يوسف بن خدة، ولاحظت خلال لقاءاتي المتعددة مع زعماء الثورة نوعا من التباين في وجهات النظر. لكن أحمد بن بله كان أكثر هؤلاء الزعماء شعبية ونفوذا وهو الذي دعا إلى إنشاء مكتب سياسي يتولى قيادة الجزائر بعد الاستقلال، وخلال اللقاء الذي جمعني به دافعت عن ضرورة أن يضم المكتب السياسي الباءات الثلاث (كريم بلقاسم، لخضر بن طوبال، وعبد الحفيظ بوصوف) إلى جانب الزعماء الخمسة (بن بله، بوضياف، آيت أحمد، خيضر، وبيطاط).

وخلال لقائي بالعقيد هواري بومدين قائد هيئة الأركان العامة حذّرني من الثقة العمياء بتوقيف القتال مع الفرنسيين، فقد ينقلبون على جيش التحرير في أي لحظة، وكانت لي هواجس تجاه الفرنسيين وقد عززها بومدين بقوله هذا، فلطالما نكث الفرنسيون عهودهم.

وفي 25 ماي 1962 توجه أعضاء المجلس الوطني للثورة الجزائرية إلى العاصمة الليبية طرابلس لعقد مؤتمرهم الرابع، وأقمت رفقة عدد من

المؤتمرين في فندق المهارة، وقد تشكلت لجنة برئاسة محمد خيضر لاستشارة المؤتمرين فردا فردا حول تشكيلة المكتب السياسي لجبهة التحرير الوطني الذي سيستلم الحكم من الهيئة التنفيذية المؤقتة بعد الإعلان الرسمي عن استقلال الجزائر، وكانت هذه اللجنة تتصل بالمؤتمرين وتسألهم عن الأشخاص المؤهلين ليكونوا أعضاء في المكتب السياسي، وعندما التقيت بخيضر جددت التأكيد على أن الزعماء الخمسة بالإضافة إلى الباءات الثلاث هم الأولى بقيادة الجزائر المستقلة، لكن هيئة الأركان العامة رفضت هذا الاقتراح وأصرت على إبعاد الباءات الثلاث من المكتب السياسي واقترحت بالمقابل أن يضم هذا المكتب إلى جانب القادة الخمسة التاريخيين عضوين آخرين هما العقيد محمدي السعيد والحاج بن علا.

وبلغني ليلتها كلام يفيد أن كل ممثل لولاية عسكرية يملك وكالات نوابه بإمكانه الانتخاب بهم، فتوجهت إلى عبد الحفيظ بوصوف وزير التسليح والاتصالات العامة الذي أرسلني إلى ضابط يدعى "عمار" مكلف بالاتصال مع الولايات فقال لي هذا الأخير "سأرسل لنوابك في الولاية الأولى برقية حتى يبعثوا لك بوكالاتهم" وهو ما حصل فيما بعد، حيث أرسل كل من محمد الصالح يحياوي وعمار ملاح وإسماعيل محفوظ بوكالاتهم لي.

واجتمع أعضاء المجلس الوطني للثورة الجزائرية في مقر مجلس شيوخ الملك الليبي بطرابلس، وترأس هذا الاجتماع محمد الصديق بن يحيى ونائبيه العقيد علي كافي وعمر بوداود رئيس فدرالية فرنسا، وقد كنت أول من طلب الكلمة وقلت "أرجو من مكتب المؤتمر أن يعلن للمجلس أن وكالات مجلس الولاية الأولى عندي وأنا الذي أمثلهم" وكنت قد سلمت وكالات نوابي الثلاث إلى رئيس المؤتمر يوما قبل الاجتماع، وخشيت أن لا يُعتد بهذه الوكالات بعدما وصلتني أخبار تتحدث عن مساعي العقيد الحاج لخضر القائد السابق للولاية الأولى لدى الحكومة المؤقتة لحثها على عدم الاعتراف بالنواب الجدد الذين عينتهم في مجلس الولاية الأولى والذين عارض الحاج لخضر تعيينهم.

لكن لخضر بن طوبال أحد الباءات الثلاث كان يظن أنني في صف خصومه في هيئة الأركان فاعترض على ذلك قائلا "إداريا أنت متأخر".

فغضبت من هذا الرد حيث جرت العادة أن يتم التعامل مع مثل هذه الأمور بمرونة، كما أنني كنت من المطالبين بضم الباءات الثلاث إلى المكتب السياسي لجبهة التحرير الوطني، وبالتالي كنت أنوي التصويت لصالحهم، فإذا ببن طوبال يرفض قبول وكالات نوابي فرددت عليه بشدة "ماذا يعني إداريا متأخر! هل تريدون منا أن نأتيكم بصحيفة السوابق العدلية أو شهادات الميلاد من البلدية!! ولكن عندما سكت البارود تكلم الجبناء".

وتدخل أحمد بن بله ودافع عن موقفي قائلا "عنده وكالات ومن حقه التصويت كالبقية".

لكن بن يوسف بن خدة رئيس الحكومة المؤقتة هاجم بن بله بشكل مستفز "لم أفهمك... كل مرة تغير مواقفك".

وكان يقصد أن بن بله هو من عارض في تونس التصويت بالوكالات لكنه هذه المرة يدافع عن الأمر الذي عارضه من قبل، لكن بن بله كان يرى بأنه ما دام أن بقية الولايات من حقها التصويت بالوكالات فلماذا تمنع الولاية الأولى من التصويت بالوكالات هي الآخرى، واستاء أحمد بن بله لما اعتبره "إهانة" ورد بعنف وبكلام غير لائق، فاستاء أعضاء من المجلس الوطني للثورة وخاصة أعضاء الحكومة المؤقتة وغادروا الاجتماع.

وانفض المجلس دون المصادقة على تشيكلة المكتب السياسي لجبهة التحرير الوطني، وإن كان قد حصل الاتفاق على تبني النهج الاشتراكي في تسيير الدولة الجزائرية المستقلة، لكن الشرخ توسع بين قادة الثورة، وتأسفت لهذه النهاية المؤلمة للثورة الجزائرية التي انتصرت على الاستعمار الفرنسي لكن زعماءها وقادتها ضيّعوا هذا الانتصار فقلت لهم "إنه الانتصار الضائع".

بقي أعضاء المجلس الوطني للثورة الجزائرية بضعة أيام في طرابلس في انتظار التئام الجو مجددا لحسم ما كان معلقا، إلا أن حسين آيت أحمد

غادر طرابلس باتجاه سويسرا بعد أسبوع من تعليق الجلسات، أما محمد بوضياف وكريم بلقاسم فعادا إلى الحدود التونسية الجزائرية، في حين ذهب أحمد بن بله ومحمد خيضر إلى القاهرة، ورجع بن يوسف بن خدة إلى مقر الحكومة المؤقتة في تونس.

عزل هيئة الأركان العامة

من جهتي توجهت إلى تونس ومنها واصلت طريقي إلى الحدود والتقيت في غاردماو بالعقيد هواري بومدين فسألته "ما العمل الآن؟" فقال لي بومدين: "ارجعوا إلى أماكنكم واجعلوا السلطة نصب أعينكم". وكان بومدين مصمما على السيطرة على السلطة وانتزاعها من الحكومة المؤقتة وباءاتها الثلاث خاصة وأن معه جيش الحدود القوي وعدة ولايات بجنبه ومعه رجل سياسي ذو رصيد تاريخي وشعبي كبير اسمه "أحمد بن بله".

وفي هذه الفترة قرّر بن يوسف بن خدة بصفته رئيسا للحكومة المؤقتة اتخاذ قرار حاسم يتمثل في عزل العقيد هواري بومدين وأعضاء هيئة الأركان العامة من مناصبهم وتكليف الرائد موسى بن أحمد بقيادة أركان الجيش بالنيابة، وأعطى الأوامر بإلقاء القبض على بومدين فأراد الحرس التونسي توقيفه ولكن بومدين تمكن من الإفلات من قبضة بورقيبة الذي كان يدعم الحكومة الجزائرية المؤقتة، والتجأ قائد هيئة الأركان المقال إليَّ في المركز الجديد للولاية الأولى في ثكنة "بوحمامة" رفقة السعيد عبيد. واستطاع العقيد بومدين استمالة ضباط جيش الحدود إلى صفه، وأعطاهم أوامره بالتجمع في مدينة طاورة بسوق اهراس ، ولم يتمكن الرائد موسى بن أحمد أن يفعل شيئا في مواجهة انسياق ضباط وجنود جيش الحدود وراء أوامر العقيد هواري بومدين رغم إقالته.

ومن جهة أخرى أرسلت هيئة الأركان المقالة مجموعة من ضباط الولاية الثانية الموالين لها إلى قسنطينة للسيطرة على الولاية والإطاحة بالعقيد صالح بوبنيدر الذي كان من أشد المعارضين لهيئة الأركان، وكان من بين هؤلاء الضباط الرائد قايد أحمد والرائد

الهاشمي هجرس والشاذلي بن جديد ومحمد عطايلية، غير أن جنود العقيد بوبنيدر تمكنوا من إلقاء القبض عليهم.

الاستقلال

وجرى الاستفتاء على تقرير المصير في الفاتح من جويلية 1962 وصوتت الأغلبية الساحقة من الشعب الجزائري لصالح الاستقلال، وانتهت مرحلة أليمة من كفاح شعب استمرت لعقود، لكنها بالمقابل فتحت جبهة داخلية للصراع على السلطة.

وفي 4 جويلية 1962 وبعد يوم واحد من إعلان نتائج الاستفتاء واستقلال الجزائر رسميا عن فرنسا، عقدت ندوة صحفية حضرها صحافيون جزائريون وفرنسيون شددت فيها على أن الحكومة المؤقتة ليس لها الحق في إقالة أعضاء هيئة الأركان لأنهم معينون من المجلس الوطني للثورة الجزائرية، وطالبت قيادة الولاية الثانية بإطلاق سراح كل من الشاذلي بن جديد وأحمد قايد ومن معهم من ضباط جيش الحدود. ونددت "بالثورة المضادة وبالمتآمرين والماهرين في إدارة المناورات... بنشاطاتهم التعسفية وغير القانونية المتعلقة بإقالة هيئة الأركان والمتعلقة أيضا بالاتفاقيات المبرمة مع منظمة الجيش السري..."

الولاية السادسة تنضم إلى كتلة بن بله - بومدين

بقي بومدين خمسة عشر يوما في مدينة طاورة بسوق اهراس ثم ذهبت معه رفقة سعيد عبيد لمقابلة العقيد شعباني قائد الولاية السادسة (الصحراء) في نواحي بسكرة، وكانت مواقف هذه الولاية متقاربة مع مواقف الولاية الأولى لأن الشهيد مصطفى بن بولعيد هو الذي ساهم في إنشائها. وخلال هذا اللقاء تحدثنا مع العقيد شعباني عما وقع في مؤتمر طرابلس الذي غاب عنه، وأبدى قائد الولاية السادسة غضبه من الحكومة المؤقتة ووصف وزراءها بالسياسيين الانتهازيين وسماهم بالطابور الخامس وشدد على ضرورة توحيد قيادة الجيش، وخلال هذا اللقاء ضمن العقيد "بومدين" وقوف الولاية السادسة إلى صفه في صراعه مع الحكومة المؤقتة.

الصراع على العاصمة

السيطرة على العاصمة تعني السيطرة على مركز الدولة بكل ما يمثله ذلك من أهمية استراتيجية واقتصادية إذ أن الكثير من المساعدات الاقتصادية وحتى العسكرية الآتية من دول صديقة أصبحت تتدفق على ميناء الجزائر، لذلك كانت هناك منافسة بين الحكومة المؤقتة وهيئة الأركان والولاية الرابعة على إحكام قبضتهم على العاصمة فأرسلت الحكومة المؤقتة في 19 مارس 1962 تاريخ توقيف القتال كلا من الرائد عز الدين ومعه مجموعة من الضباط، وأبلغت قيادة الولاية الرابعة التي كانت تسيطر على العاصمة بأن الرائد عز الدين سيخول مسؤولية الإشراف عن منطقة الجزائر الحرة بعد فصلها عن الولاية الرابعة.

من جانبها كلفت هيئة الأركان كلا من ياسف سعدي ومصطفى فتال وأحمد بن شريف بتشكيل خلايا في العاصمة لتسهيل مهمة دخول الجيش إليها وزودتهم بالأسلحة لتحقيق هذا الهدف، أما الولاية الرابعة فبعد أن تنازلت عن الجزائر العاصمة لصالح رجال الحكومة المؤقتة أعادت ضم العاصمة إليها وبسطت سيطرتها على مينائها في 29 جويلية 1962، كما انتقدت اتفاقية إيفيان ومزقتها، ودعت إلى ضرورة توحيد الجيش والقيادة لتجنب الحرب الأهلية.

مجموعة تلمسان

بعد الإعلان الرسمي عن نتائج الاستفتاء على استقلال الجزائر في 3 جويلية قام أحمد بن بله بالدعوة لاجتماع في تلمسان وذلك برعاية أحمد مدغري والي تلمسان، حيث نزل بن بله في مدينة وجده المغربية في 11 جويلية 1962، وعبر الحدود واستقبل في مغنية مسقط رأسه استقبال الأبطال رفقة كل من محمد خيضر وبومنجل وسي عثمان قائد الولاية الخامسة، وفي تلمسان استقبله الوزير أحمد فرانسيس وسط جموع هائجة، فالولاية الخامسة كانت تدعم بشكل علني كتلة بن بله - بومدين رغم أن إحدى مناطقها (المنطقة السابعة بقيادة يحيى غريب) وقفت إلى جانب الولاية الرابعة في هذه الأزمة.

وظهر جليا أن أحمد بن بله أصبح في كل مرة يستقطب مزيدا من الأنصار والحلفاء إلى صفه خاصة بانضمام فرحات عباس أول رئيس للحكومة المؤقتة إلى جناحه، وبذلك أصبحت جماعة وجدة التي صارت تسمى جماعة تلمسان أشد تمثيلا في المجالين السياسي والعسكري في نظر المراقبين الأجانب من جماعة تيزي وزو:

في المجال السياسي:

- أحمد بن بله: نائب رئيس الحكومة المؤقتة، ورئيس المنظمة السرية سابقا، وأحد الزعماء التاريخيين في الخارج.
- رابح بيطاط: وزير دولة في الحكومة المؤقتة، وأحد الستة المفجرين للثورة وأول قائد لوسط الجزائر (الولاية الرابعة).
- محمد خيضر: وزير دولة في الحكومة المؤقتة وعضو الوفد الخارجي.
- فرحات عباس: رئيس الحكومة المؤقتة السابق.
- أحمد فرانسيس وزير في الحكومة المؤقتة.

في المجال العسكري:

- العقيد هواري بومدين رئيس هيئة الأركان العامة وقائد جيش الحدود.
- الرائد علي منجلي عضو هيئة الأركان العامة.
- الرائد أحمد قايد عضو هيئة الأركان العامة.
- العقيد الطاهر زبيري قائد الولاية الأولى (الأوراس).
- العقيد سي عثمان قائد الولاية الخامسة (وهران).
- العقيد محمد شعباني قائد الولاية السادسة (الصحراء).
- الرائد العربي بن رجم عضو مجلس قيادة الولاية الثانية الذي استطاع أسر قائد الولاية والسيطرة عليها رفقة الرائد رابح بلوصيف.

وبالإضافة إلى كل هذه القيادات كانت جماعة تلمسان تحظى بدعم قوي وفعال من مصر التي زودت أحمد بن بله بالسلاح الثقيل وبالفنيين والتقنيين، فضلا عن الدعاية الإعلامية التي كانت تقف وراء بن بله وجماعته وتشحذ وراءه همم الأنصار وتضعف من عزيمة الخصوم.

اجتماع تلمسان

توجهت مع العقيدين بوميدن وشعباني في سيارة واحدة إلى تلمسان لعقد اجتماع تاريخي سيضم أبرز قادة الثورة المتحالفين مع أحمد بن بله، وتعمدنا تجنب المرور عبر أراضي الولاية الرابعة حتى لا نقع في الأسر، فعبرنا شمال الصحراء عبر بوغزول ومنها دخلنا إلى تيارت ثم عين تيموشنت وسرنا إلى أن وصلنا إلى تلمسان، ثم التحق بنا كل من بن بله وخيضر وفرحات عباس وأحمد فرنسيس ومحمدي السعيد واعمر أوعمران والأستاذ أحمد بومنجل والحاج بن علا وأحمد قايد وعلي منجلي والحاج لخضر، واتفقنا على ما يلي :

الندوة الصحفية التي عقدتها جماعة تلمسان،
وأظهر فيها واقفا خلف بن بلة

1 . دخول العاصمة.
2 . دعوة المناوئين إلى الدخول في النظام.
3 . عودة المكتب السياسي للنشاط في العاصمة بعد أن منعته قيادة الولاية الرابعة.
4 . المكتب السياسي يبقى مشكلا من الزعماء التاريخيين الخمسة بالإضافة إلى محمدي السعيد والحاج بن علا.
5 . تنظيم انتخابات لتشكيل المجلس التأسيسي.
6 . توحيد القيادة والجيش.
7 . تنظيم مهرجانات شعبية لتوعية الجماهير بالقرارات التي تم اتخاذها (لم ينظم سوى مهرجان واحد بتيارت).

مجموعة تيزي وزو

عندما أعلن المحامي أحمد بومنجل المتحدث الرسمي باسم مجموعة تلمسان في ندوة صحفية في 22 جويلية 1962 عن التشكيلة الجديدة للمكتب السياسي الذي اقترحته هيئة الأركان، فإن محمد بوضياف لم يعجبه القرار فأعلن عن استقالته من المكتب السياسي الذي اقترحته هيئة الأركان بمؤتمر طرابلس وقررا إنشاء لجنة وطنية للدفاع عن الثورة في تيزي وزو.

وتتشكل مجموعة تيزي وزو من:

– محمد بوضياف نائب رئيس الحكومة المؤقتة زعيم تاريخي من الستة المفجرين للثورة.

– كريم بلقاسم نائب رئيس الحكومة المؤقتة وأحد الستة المفجرين للثورة.

– العقيد محند أولحاج قائد الولاية الثالثة.

أما حسين آيت أحمد فقد كان يعارض جماعة تلمسان لكنه لم يتحمس للتحالف مع بوضياف وكريم بلقاسم، وكان يرى نفسه أولى بالزعامة من بن بله وبوضياف، وبالنسبة لبن يوسف بن خدة رئيس الحكومة المؤقتة فرغم

وقوفه في وجه هيئة الأركان العامة في البداية إلا أنه فضل عدم التورط في حرب أهلية وشيكة، في حين وقع العقيد صالح بوبنيدر قائد الولاية الثانية أسيرا لدى قوات نائبيه الرائدين العربي بن رجم ورابح بلوصيف، وهو ما جعل مجموعة تيزي وزو أقل تمثيلا مقارنة بمجموعة تلمسان.

إلقاء القبض على بوبنيدر والسيطرة على الولاية الثانية

وقف عدد من ضباط الولاية الثانية إلى جانب هيئة الأركان رغم أن العقيد صالح بوبنيدر قائد الولاية كان من أشد المعارضين لبومدين وبن بله، وكان من بين هؤلاء الضباط الرائد العربي بن رجم الذي يتمتع بشعبية بين جنود الولاية الثانية والتحق به الرائد رابح بلوصيف في عين مليلة، كما التف حوله الكثير من جنود الشمال القسنطيني، ودعمته الولاية الأولى بكتيبة من الجنود وزودته بالسلاح والذخيرة وأمدته بالشاحنات العسكرية والمؤن.

وزحف الرائد العربي بن رجم بقواته على مدينة قسنطينة مركز الولاية الثانية ليلة 24 إلى 25 جويلية 1962، فاحتل دار العمالة (مقر الولاية) وحاصر المدينة فوقعت مواجهات مع جنود بوبنيدر وسقط العديد من القتلى والجرحى في هذه الاشتباكات لكن قوات بن رجم كانت أكبر عددا وعدة وأشد إصرارا على حسم المعركة فسقطت قسنطينة تحت أيديهم واعتقل العقيد صالح بوبنيدر ثم اعتقل لخضر بن طوبال وزير الحكومة المؤقتة خطأ على ما أعتقد، وتم تحييد الولاية الثانية من الصراع بل أصبحت قواتها جنبا إلى جنب مع قوات الولايات الموالية لهيئة الأركان المدعمة بجيش الحدود، وكان هدفي توحيد الجيش لأن الأزمة كانت تهدد الثورة برمتها، ولم يبق من الولايات التي تدعم الحكومة المؤقتة سوى الولاية الثالثة بقيادة العقيد محند أولحاج الموالي لكريم بلقاسم والمتحالف مع محمد بوضياف، أما الولاية الرابعة (وسط الجزائر) فلم تكن تقف إلى جانب الحكومة المؤقتة كما أنها لم تكن متفقة مع هيئة الأركان، وكانت تظهر الحياد ولكن الحقيقة عكس ذلك.

الفتنة تستيقظ مجددا

شرع المكتب السياسي في إعداد القوائم التي ستترشح باسم جبهة التحرير الوطني لانتخابات الجمعية الوطنية التأسيسية لكن حدث ما كان يخشى منه. فقد استقال بوضياف من المكتب السياسي بعد أربعة أيام، ورفض حسين آيت أحمد المشاركة في اجتماعاته، وتولت جماعة بن بله عملية اختيار المرشحين، لكن الولاية الرابعة (وسط الجزائر) اعترضت في منتصف أوت 1962 على ترشح مجموعة من الشخصيات في منطقة الجزائر على غرار الشيخ خير الدين، و"عبد الرحمان فارس رئيس الهيئة التنفيذية المؤقتة، بالإضافة إلى المحامي شنتوف (مدير ديوان لخضر بن طوبال في وزارة الداخلية)، غير أن المكتب السياسي لجبهة التحرير الوطني رفض احترازات الولاية الرابعة على هذه الشخصيات، وتشنجت العلاقة بين الطرفين بعد تمسك كل طرف برأيه. وفي يوم 19 أوت 1962 نشر المكتب السياسي قائمة الأسماء التي رشحها للانتخابات التشريعية القادمة التي ستجرى بدون مشاركة الأحزاب أو الأحرار، فلجأت الولاية الرابعة إلى العنف للاحتجاج على اللجنة الانتخابية التي عينها المكتب السياسي. وحتى هيئة الأركان استاءت لعدم استشارة بن بله لهم في اختيار المرشحين لانتخابات المجلس التأسيسي.

جيوش جماعة تلمسان تزحف نحو العاصمة

بعدما منعت الولاية الرابعة المكتب السياسي من الاجتماع بالعاصمة وسيطرتها على ميناء العاصمة الذي يعد منطقة حيوية لتدفق المساعدات الخارجية إلى الجزائر، أعطى بن بله الضوء الأخضر لجيش هيئة الأركان للتدخل وحسم الأمر مع الولاية الرابعة عسكريا بعدما فشلت العديد من اللقاءات لفض الخلافات سلميا.

وعقدنا في سطيف نهاية أوت 1962 اجتماعا لقادة الجيوش ضم كلا من العقيد هواري بومدين قائد هيئة الأركان، الرائد العربي بن رجم مسؤول الولاية الثانية بعد الإطاحة بالعقيد صالح بوبنيدر، العقيد عثمان قائد الولاية الخامسة، العقيد محمد شعباني قائد الولاية السادسة، بالإضافة إلى الرائد

أحمد قايد والرائد علي منجلي عضوي هيئة الأركان، وشريف بلقاسم، وشاركت في هذا الاحتماع بصفتي قائدا للولاية الأولى، وتقرر في هذا الاجتماع تحويل اسم جيش التحرير الوطني إلى الجيش الوطني الشعبي، ولم يكن يحمل هذا الاسم أي جيش في العالم آنذاك باستثناء جيش الصين الشعبية، وقال بومدين معلقا على هذا الاسم "هذا يرهب العدو كما يرهب الأصدقاء"، وكان من المفروض أن يعلن بن بله عن هذه التسمية لكن بومدين سبقه إليها، واتفقنا بشكل رسمي على تنظيم الفيالق للزحف على العاصمة.

وفي 30 أوت 1962 تحركت فيالق أربع ولايات عسكرية مدعمة بجيش الحدود والتي قاربت الأربعين ألف مقاتل حسب خيضر، وكان هذا الجيش مدعما بالأسلحة الثقيلة القادمة من مصر، وتحركت قواته على ثلاث جبهات لمحاصرة الولاية الرابعة والدخول إلى العاصمة.

المحور الأول : وتوليت قيادة فيالق الولاية الأولى المدعمة بكتائب جيش الحدود من مدينة المسيلة باتجاه العاصمة عبر عين الحجل وسيدي عيسى (تابعة لولاية المسيلة حاليا).

المحور الثاني : توجه العقيد "شعباني" بجيش الولاية السادسة معززا بقوات جيش الحدود باتجاه العاصمة عبر عين وسارة (تابعة لولاية الجلفة حاليا) في أقصى جنوب الولاية الرابعة.

المحور الثالث : زحف العقيد عثمان من الجهة الغربية بقوات الولاية الخامسة ومعه ضباط الولاية: قايد أحمد، وعبد العزيز بوتفليقة وشريف بلقاسم الذي كان على رأس فيالق جيش الحدود (الجهة الغربية) متجها عبر الشلف إلى العاصمة.

أما العقيد هواري بومدين فاتخذ من فندق في مدينة بوسعادة (شمال ولاية المسيلة حاليا) مقرا لقيادة العمليات. وقاد ياسف سعدي مجموعة من العمليات ضد جنود الولاية الرابعة في العاصمة.

الولاية الرابعة تختار المواجهة العسكرية

عندما أعطى محمد خيضر أمرا لجيش هيئة الأركان والولايات بالزحف نحو العاصمة اعتبرت قيادة الولاية الرابعة ذلك انقلابا عسكريا على الحكومة المؤقتة التي كانت برأيهم تمثل الشرعية رغم اختلافهم معها، وقرروا استعمال السلاح لمنع هذا الجيش من الاستلاء على العاصمة بالقوة على حد قول العقيد يوسف الخطيب قائد الولاية الرابعة.

وقسمت الولاية الرابعة جنودها المدعمين بالشباب الذين تم تجنيدهم بعد توقيف القتال إلى ثلاث وحدات:

- الرائد يوسف بن خروف قاد القوات المتمركزة في سيدي عيسى.
- الرائد رمضان عمار عسكر بقواته غربا في نواحي الأصنام (الشلف حاليا)
- الرائد لخضر بورقعة وعسكر بقواته في ضواحي عين وسارة.

ولم يقف مع الولاية الرابعة سوى الولاية الثالثة التي ساندتها في الاشتباكات الأولى ثم أمرت كتائبها بالانسحاب بعد اشتداد هجوم قوات هيئة الأركان، أما فدرالية جبهة التحرير في فرنسا فساندت مواقف الولاية الرابعة وكذلك فعل حسين آيت أحمد الذي وجد في الولاية الرابعة حليفا له بعد أن خسر ولاء الولاية الثالثة لصالح كريم بلقاسم وحليفه بوضياف.

الفتنة الكبرى

تحركت قوات الولاية الأولى تحت قيادتي باتجاه منطقة عين حجل (تابعة لولاية المسيلة حاليا) مدعمة بالكتيبتين الحادية عشر والثالثة عشر من جيش الحدود وعلى رأسها النقيب بوتلة ونائبه الملازم الثاني خالد نزار، وعند بزوغ الفجر تراءت لنا قوات الولايتين الثالثة والرابعة عن اليمين وعن الشمال، ولم تقع يومها مواجهات بين الطرفين وتراجعت قوات الولايتين إلى مواقع خلفية بعد أن اطّلعت ربما لأول مرة عن حجم القوة المتقدمة أو ربما لاختيار مواقع أكثر تحصنا تسمح لهم بالتصدي لنا بفعالية أكبر، ولم يكن كلاّ الطرفين متحمسا لقتال إخوة له ساهموا متّحدين في دحر الاستعمار.

وواصل الجيش الذي تحت قيادتي التقدم نحو مدينة سيدي عيسى (شمال المسيلة حاليا) لكننا واجهنا في الطريق سدا بشريا من المدنيين اعترضوا طريق الرتل العسكري وألقوا بأنفسهم على الشاحنات العسكرية لمنعها من التقدم مخاطرين بأنفسهم وكانوا يهتفون بحرقة وألم "سبع سنين بركات"، وصعدت فوق إحدى الحافلات التي أقلت المتظاهرين وارتجلت أمام الناس كلاما أكدت فيه أن "العاصمة حررها الجميع وليست ملكا للولاية الثالثة أوالرابعة التي منعت المكتب السياسي لجبهة التحرير من الاجتماع، والميناء مليء بالأدوية والأغذية التي أرسلتها الدول والشعوب الصديقة للشعب الجزائري وجيش التحرير لكنهم حرمونا منها". وانحرف الرتل العسكري متجاوزا جموع الناس، لكنه ما إن تقدم لمسافة قصيرة حتى جوبه بإطلاق كثيف للنار أوقع عدة جرحى في صفوفنا، وكان الرد عنيفا بقذائف الهاون التي يجيد جيش الحدود استخدامها بدقة نظرا لحسن تدريبه، وانسحبت قوات الولايتين الثالثة والرابعة نظرا لشدة القصف الذي تعرضت له، في الوقت الذي توجهت حينها إلى بيت كان به مسؤولون من الولايتين الثالثة والرابعة لم يسبق وأن تعرفت عليهم، وشرعت في مفاوضات معهم، وحاولت إقناعهم بعدم اعتراض قواتنا وشرحت لهم وجهة نظرنا، وردوا علي دون أن يقنع أي طرف الآخر. وفي تلك اللحظة شرعت قوات الولايتين في ركوب الشاحنات ومغادرة المكان، فأرسل أحد قادة الوحدات من يخبرني بذلك، فأمرت الجنود بالسماح لهم بمغادرة المكان الذي كنا نطوقه.

عندما تقدم جيشنا باتجاه مدينة سور الغزلان مرورا بجبل ديرة تعرضت مقدمة القوات إلى قصف شرس بالمدفعية وبندقية رشاشة من نوع هوتشكيس مضادة للطيران احترت كيف تمكنت الولاية الرابعة من الحصول على هذا السلاح المدمر الذي أوقع العديد من الإصابات، مما أدى بجنود مقدمة الرتل إلى الهروب إلى الخلف لتفادي كثافة النيران تاركين وراءهم شاحنة تحمل سلاح رشاش مضاد للطيران من نوع هوتشكيس.

وخشيت أن يقوم جنود الولاية الرابعة بالاستيلاء عليه. فناديت على الجنود أن يلحقوا بي وجريت إلى مقدمة الرتل لأحمي الشاحنة المحملة بالأسلحة مجازفا بحياتي أمام شدة إطلاق الرصاص، وصاح الضابط محمد معارفية "ماذا يفعل.. سيردونه قتيلا!!" وأسرع الجنود خلفي وتمكننا من حماية الشاحنة لكن تم تطويقنا بإحكام من اليمين ومن اليسار في الوقت الذي ابتعدت الكتيبتين 11 و13 عن قلب الجيش لمحاولة تطويق المناوئين، وكان لا بد من استقدام الكتيبتين من جديد لأن المدافع والأسلحة الثقيلة كانت بحوزتنا، وفورا أمرت النقيب محمد الصالح بلعباس من الولاية الأولى بالالتحاق بالفيلق المتحرك يسارا وإبلاغه بأمر الإسراع، ولكن ما إن سار النقيب حتى أصابته رصاصة في بطنه أردته قتيلا، فأشعل موته غضب جنود الولاية الأولى واحتدمت المعركة بين الطرفين بضراوة غريبة، وقام جندي يدعى عبد الحميد كراش كاتب للقتيل بلعباس بالرد بعنف على المناوئين في الطرف المعارض لأنه كان يحب القتيل كثيرا، فكان الرد قويا مما مكننا من فتح الطريق وتمكنا من الخروج من التطويق والتحقت الفيالق التي كانت في الخلف ، لقد كانت مأساة بحق، وقد أسرنا العديد من الجنود الذين تم إطلاق سراحهم فيما بعد، وإثر هذه المناوشات اقتنعت الولاية الثالثة أنه لا جدوى من مقاتلة إخوان لهم في السلاح، في حين ظلت الولاية الرابعة مصرة على التصدي لقواتنا لاعتقادهم أن قوات الداخل أحق بالقيادة من القوات الآتية من الحدود.

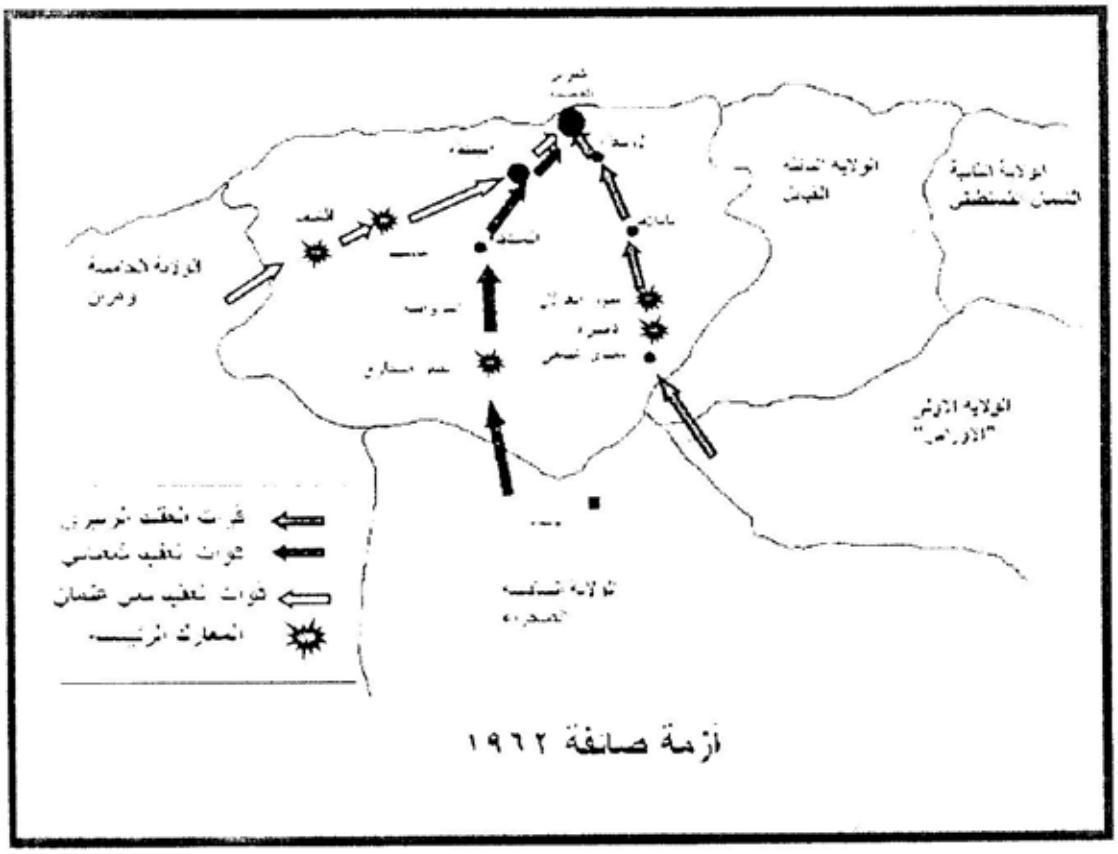

المحاور التي سلكها جيش جماعة تلمسان لدخول العاصمة.

لقد كان كل طرف يرى بأنه على حق لذلك كان القتال عنيفا، ولو أن الكفة كانت تميل لصالح جيش هيئة الأركان والذي كان يتقدم بهدوء رغم المعارك التي كانت تقع باستمرار، ورافقنا في مسير صحافيون جزائريون وأجانب كانوا يكتبون على الشاحنات العسكرية والسيارات المدنية بدماء الجنود القتلى وهو ما استهجنته.

وفي صباح الغد تقدمت قواتنا نحو مدينة سور الغزلان (جنوب ولاية البويرة)، لكن قوات الولاية الرابعة تصدت لنا هذه المرة بمفردها بعد انسحاب قوات الولاية الثالثة وجرت معركة دامية بين الطرفين، حسمناها لصالحنا، واقتنع مسؤولو الولاية الرابعة أن قوات "بن بله" مصرة على الوصول إلى العاصمة حتى ولو سقط المزيد من القتلى في صفوف المجاهدين من الجانبين، لذلك قررنا التجاوب إيجابيا مع المبادرة السلمية التي كان يقودها بن بلة لوقف الاقتتال.

وصل أحمد بن بله إلى سور الغزلان بواسطة طائرة هليكوبتر تابعة للهيئة التنفيذية واجتمع معي وطلب مني مرافقته إلى الشلف حيث سيلتقي مع قادة الولايات الأخرى لمناقشة كيفية إيجاد حل سلمي للأزمة، والتقيت في هذا الاجتماع كل من العقيد سي عثمان قائد الولاية الخامسة والعقيد شعباني قائد الولاية السادسة والعقيد يوسف الخطيب قائد الولاية الرابعة والعقيد محند أولحاج قائد الولاية الثالثة بالإضافة إلى العقيد بوبنيدر قائد الولاية الثانية الذي لم يطح به بعد. واقترحت الولاية الرابعة في هذا الاجتماع أن يتولى قادة الداخل تنظيم مؤتمر جديد للمجلس الوطني للثورة واختيار أعضاء المكتب السياسي، وأيد هذا الرأي كل من محند أولحاج وصالح بوبنيدر، هذا الأخير دعا إلى عزل بومدين وإقصائه من الحكم، لكنني وشعباني وسي عثمان اعترضنا على هذا الاقتراح ورفضنا فكرة إلغاء الشخصيات الوطنية التي قادت الثورة، وانفض الاجتماع دون اتفاق، غير أن الولاية الرابعة تراجعت عن فكرة صد المتقدمين بالقوة.

عدت إلى قواتي في سور الغزلان ثم انتقلت إلى بوسعادة للاتصال بقائد الأركان هواري بومدين وأبلغته بما حدث في الشلف، ثم رجعت إلى قواتي وواصلنا الزحف نحو العاصمة وتجاوزنا بلدة بئرغبالو القريبة من مدينة عين بسام، وعبرنا جبال تابلاط (تابعة لولاية المدية حاليا) دون أن نتعرض لمقاومة تذكر، ثم بلغنا مدينة الأربعاء على مشارف العاصمة، والتحقت شرطة الهيئة التنفيذية المؤقتة بنا، وقد كنا نواجه في الطريق مظاهرات شعبية تناشد إخوة السلاح بوقف الاقتتال فيما بينهم، وكانت صرخاتهم مدوية "سبع سنين براكات"، أرادوا أن يشكلوا حاجزا بشريا يفصل بين المتقاتلين ليوقفوا بأجسادهم الصدام القاتل، وبعد أن رضخت الولايتين الثالثة والرابعة للسلطة الجديدة دخلت قواتنا إلى العاصمة وقابلتهم الجماهير بالأهازيج والفرح لانتهاء الأزمة وتوحد الجيش تحت قيادة واحدة، وعسكرنا في ثكنة "علي خوجة" الكبيرة في طاقارة (مقر وزارة الدفاع حاليا).

وعلى الجبهة المقابلة سار العقيدان بومدين وشعباني بالجيش إلى أن بلغوا مدينة البليدة القريبة من العاصمة بعدما اشتبكوا في معارك شرسة مع قوات الولاية الرابعة في قصر البخاري وعين بوسيف وعدة مناطق تابعة لولاية المدية حاليا، ولكن بن بله أوقفهم عن التقدم أكثر، وكان يتنقل في طائرة هيليكوبتر رفقة العقيد يوسف الخطيب قائد الولاية الرابعة لفض الاشتباك بين الطرفين بعد أن اتفقا على إنهاء النزاع المسلح الذي أدى إلى سقوط كثير من القتلى، حيث استقر المكتب السياسي في فيلا جولي (المقر الحالي لبنك الجزائر المقابل لقصر الشعب) في 4 سبتمبر 1962، وقرر مجلس الولاية الرابعة في 7 سبتمبر دمج قواتهم في الجيش الوطني الشعبي، ودخل أول طابور من الجيش الموالي لبن بله إلى مدينة الجزائر في 9 سبتمبر 1962 وكان على رأسه العقيد هواري بومدين الذي استقبل حينها استقبال الفاتحين، وأسدل أول فصل من فصول الصراع على السلطة في الجزائر المستقلة.

ملاحق الحوارات

ونطق العقيد

إن الكم الهائل من المكالمات والاستفسارات التي تلقتها جريدة الحوار بمجرد إعلانها الشروع في نشر مذكرات المجاهد العقيد الطاهر زبيري يؤكد مدى أهمية أن يتحدث رمز من رموز ثورة التحرير عن تجربته الثورية ذلك لأن ما يعاب على الرموز التاريخية الفاعلة أنهم لا يكتبون ولا يتحدثون عن تجاربهم إلا نادرا وبصفة مقتضبة لا تخرج عن الكليشيهات المعهودة التي لا تحمل من الحقائق سوى معلومات عامة يعرفها القاصي والداني.

وثانيا وهذا هو الأهم أن الجزائريين مسؤولين ومهتمين ومن الدهماء لايزالون متعطشين لمعرفة تاريخ الثورة الذي لم يعلم منه إلا القليل القليل، خاصة عندما يكشف عنه شخصية كبيرة ومعروفة بمواقفها المبدئية الثابتة كالعقيد زبيري شاركت في صنع ملاحم وبطولات أثناء الثورة إذ يشهد للقائد الطاهر زبيري أنه كان شهما مقداما قاد شخصيا العشرات من المعارك ببطولة أسطورية تعجز على تصويرها الأفلام.

إن أهمية مذكرات العقيد قائد الولاية التاريخية الأولى تكمن في أنه من الشخصيات الوطنية القليلة التي ظلت ثابتة على الموقف ولم تبدل تبديلا بل الأهم من ذلك فإن الرجل ظل وفيا لمبادئه ولم تغره المناصب حتى بومدين الذي سانده في انقلابه على بن بله عاد وانقلب عليه عندما لاحظ أن الأمور لم تتغير ولم يسرها في نفسه وقال لبومدين صراحة "انقلبنا على بن بلة لنسقط في الـ"بنبلية" أو هكذا نقل عنه.

من العاصمة إلى الأوراس هاربا من بطش بومدين عقب محاولة الانقلاب الفاشلة في ٦٧ ثم تونس ثم شد الرحال إلى سويسرا مغاضبا كان العقيد أول "حراق" في تاريخ الجزائر المستقلة يتنقل بين سويسرا وفرنسا دون وثائق هوية بعد أن رفض له طلب اللجوء في سويسرا.

العقيد لم يدخل الجزائر إلا شامخ الوجه بعد أن هدأت الأنفس في زمن الشاذلي بن جديد وظل يعيش بين كنفات الأوراس والجزائر وها هو يدلي بشهادته بنفس الشهامة والشموخ والصدق والنزاهة عن الثورة وما بعدها بحلوها ومرها دون أن يخاف لومة لائم. وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

نصر الدين قاسم

رئيس تحرير يومية الحوار

حوار مع المجاهد الطاهر زبيري يتحدث لمجلة « أول نوفمبر »
الشعب الجزائري هو الذي قاد واحتضن الثورة الجزائرية

بمناسبة الذكرى الثانية والخمسين لاندلاع ثورة أول نوفمبر الخالدة ، خص المجاهد العقيد الطاهر زبيري مجلة أول نوفمبر بحوار تطرق فيه لاندلاع الثورة التحريرية الكبرى، والظروف التي أحاطت بها، مفصلا في الكثير من الأوضاع والصعوبات التي واجهتها ومتوقفا عند الدور الذي لعبه الشعب الجزائري بعد الحرب العالمية الثانية.

• مجلة أول نوفمبر : السيد الطاهر زبيري ، بصفتكم أحد مناضلي الحركة الوطنية ممثلة في حركة انتصار الحريات الديمقراطية ومن الرعيل الأول لثورة التحرير الكبرى ، هلا حدثتنا عن الأجواء والظروف التي أحاطت باندلاع الثورة التحريرية الكبرى؟

الطاهر الزبيري: في البداية ، أرحب بمجلة أول نوفمبر شاكرا المجهود الجبار الذي تقومون به . بخصوص سؤالكم فقد كنا حقيقة مناضلين في حركة انتصار الحريات الديموقراطية أو حزب الشعب الجزائري ننشط في نواحي الونزة وسوق أهراس أي في القاعدة النضالية حيث الظروف تتميز بحركية جديدة أفرزتها نتائج الحرب العالمية الثانية ، وهنا كانت فيه حديث عن إمكانية تجاوز العمل السياسي والمضي قدما نحو العمل المسلح وهو ماتمثل حقيقة في تأسيس المنظمة الخاصة سنة 1947 .

كما لابأس أن أذكر أنني بدأت أتشرب العمل النضالي بوادي الكبريت ، وهي محطة قطارات كانت تلتقي بها ثلاثة قطارات (الونزة ، تبسة ، سوق اهراس) التي كان يشتغل بها أبي وهذا بفضل أخي بلقاسم الذي يكبرني سنا والذي لازال على قيد الحياة .

لقد كان فيه أمل كبير بعد انتصار الحلفاء وهذا على خلفية التصريحات التي أقرها ميثاق الأطلسي ، لكن مجازر 8ماي 1954 وعقم العمل السياسي أدى إلى إعادة بعث النقاش داخل هياكل الحزب والذي تحول إلى أزمة هددت مصير الحرب والنضال ككل.

• في ماذا تتمثل هذه الأزمة ؟

الأزمة التي أصابت الحزب جراء التفاعلات المختلفة في تلك المرحلة وأدت إلى انقسام الحزب إلى تيارين متصارعين ، المصاليين من جهة والمركزيين من جهة ثانية ، والتي كادت أن تؤدي بنضال الشعب الجزائري وتضحياته إلى الأبد وهو ماكان يفرح الإستعمار الفرنسي .

• لماذا تسارعت الأحداث إلى إعلان الثورة ؟

كما قلت سابقا فإن مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية قد عرفت تحولات في العالم كله : لاسيما عند الشعوب المستعمرة ، حيث اندلعت الثورات في تونس والمغرب وكذا في الهند الصينية التي وصلت فيها إلى مرحلة حاسمة ، وبقيت فقط الجزائر دون رد فعل يستجيب للمرحلة .

أذكر أن مصطفى بن بولعيد كان قد ذهب إلى مصالي الحاج ، في محاولة لرأب الصدع أولا ، ويقترح عليه إعلان الثورة ثانيا. لكنه استشعر منه أنه لايزال رهينة صراع لاينتهي فعاد يائسا من كل قيادات الحزب . لتبدأ مرحلة جديدة قوامها المسارعة بإعلان الثورة والالتحاق بالشعوب الثائرة حيث تم مباشرة إتصالات عديدة للتحضير للثورة في إطار جماعة 22 ثم جماعةال6 .

• هل وجدتم لدى الشعب الجزائري استعدادا أو ميلا للثورة؟

الشعب الجزائري دائما ثائر ، لكن وضعية الجزائر كانت جد معقدة بل مستحيلة بالمقارنة مع كل الشعوب المستعمرة ، حيث كانت فرنسا تعتبر الجزائر أرضا فرنسية ، على خلاف تونس والمغرب المرتبطتين باتفاقية

حماية . ورغم القمع الإستعماري وحروب الإبادة التي تعرض لها، ومع انطفاء بارقة الأمل في الإستفادة من مبدا تقرير المصير، فقد أخذ الشعب الجزائري يستبشر بالحراك الذي صار يحيط به.

• كيف بدأت التحضيرات للثورة ؟

طبعا العملية لم تكن بالسهلة في الأوضاع التي كنانعيشها ، ومع ذلك شرعنا في الإتصال بالرجال الذين تتوفر فيهم شروط كتمان السر والإيمان بحتمية الكفاح المسلح كما عملنا على البحث عن السلاح ، فيما تجدر الإشارة إلى القاءات التي حدثت هنا وهناك تحضيرللعمل الثوري منها اللقاء الذي جمعنا بديدوش مراد ، والذي تحدث فيه عن الثورة بعد أن استعرض الأوضاع التي يمر بها الحزب . فقيل له أنتم تتكلمون عن الثورة فأين السلاح ؟ فأجابهم بحمية وإيمان : ((السلاح سيأتي...)) أما باجي مختار ، فقد زارنا بلونزة واجتمع بنا عند مسعود البربري ، مناضل بالحزب ، حيث ألقى كلمة بالمناسبة تكلم فيها عن حتمية الثورة مذكرا بتاريخ الثورات بالعالم .

فحاول البعض ممن حضر الإجتماع أن يقول له أنتم تتكلمون فقط ...فرد عليهم بقوة وحزم أعدكم أن الثورة لم يبق أمامها سوى شهر واحد .

مجلة أول نوفمبر : وهل كان لدى باجي مختار علم بتاريخ اندلاع الثورة ؟

الطاهر الزبيري : ولا واحد كان لديه علم بذلك حيث أن قادة الثورة فيما بعد اجتمعوا وحددوا التاريخ وبقي سريا إلى آخر لحظة وهذا كما هو معروف لاعتبارات أمنية .

• وماذا عن العناصر التي حضرتموها للكفاح المسلح ؟

سبق و أن قلت أن الأمر لم يكن بالسهل لا من حيث الرجال ولا من حيث السلاح ، ولا من حيث الحركة حيث اضطررنا إلى إرسال الفوج المشكل إلى باجي مختار بجبال بني صالح وأولاد بشيح بالقرب من سوق اهراس .

ليلة أوا نوفمبر تأخر موعد وصول المناشير بسبب اعتقال باجي مختار .

• قبل أيام من إعلان اندلاع الثورة ماهو الجديد في ناحيتكم ؟

بعد أن عاد باجي مختار برفقة ديدوش مراد من الجزائر محملين بالأمر بإعلان الثورة افترقا في سمندو ، لكن لما وصل باجي مختار إلى بوشقوف رجع إلى عنابة عن طريق القطار حيث دخل مكتبة بالمدينة سأل فيها عن خريطة لسوق أهراس فأجابته القيمة على المكتبة وكانت فرنسية بالنفي . وبمجرد خروجه من المحل دخل رجل شرطة في زي مدني فسأل صاحبة المحل عن ماذا كان يبحث الرجل ؟ فقالت إنه يبحث عن خارطة لمنطقة سوق اهراس . مباشرة تم اعتقال باجي مختار وعند استنطاقه قال أنا فلاح ويهمني أن أعرف الأراضي.

ثلاثة أيام وهو معتقل وفي اليوم الرابع الذي يسبق ساعة الصفر أطلق صراحه حيث نزل المشروحة واتصل بالجماعة ، وأعطى أوامره بعدم القيام بأي عمل حتى يلحق بهم. ولحسن الحظ أن المناشير والأوامر كان يحملها رجل أخر كان يرافقه عن بعد لذلك لم تتمكن السلطات الاستعمارية من إثبات أي شيئ ضده .

• واندلعت الثثورة ؟

الطاهر الزبيري : نعم في اليوم الموعود وعل الساعة الصفر سمعنا أن الثورة قد اندلعت في أغلب مناطق التراب الوطني .

• ولم تشاركوا في عمليات اليوم الأول ؟

الطاهر الزبيري : ذلك صحيح ، حيث تأخر موعد وصول المناشير بسبب اعتقال باجي مختار .

• كيف كان انطباع الشعب الجزائري مع شروق شمس ذلك اليوم الأغر؟

فرح واستبشار ، وتم إجراء مقارنات مفادها يجب أن تنجح هذه الثورة مثلما كانت ثورات الهند الصينية وغيرها ، عموما الجو الثوري بدأ يسود الجزائر تدريجيا لكن بتخوف وحذر شديدين .

• متى بدأتم عملياتكم كفوج ؟

تقريبا بعد أسبوع من اندلاع الثورة . قمنا بتخريب المولد الكهربائي للونزة وقتل أحد الخونة وقطع الخط الهاتفي ، لكن أهدافنا في الحقيقة تركزت على تشكيل الأفواج والخلايا والحصول على قطع السلاح سواء عن طريق نصب الكمائن أو الإشتراط على الملتحقين بالثورة القيام بعملية ونزع سلاح الجهة المستهدفة. لكن معركتنا حقيقة كانت مع رحلة البحث الشاقة عن السلاح .

• وماذا عن المجاهدين الذين كانوا تحت قيادة باجي مختار؟

الفوج الذي كان تحت إمرته قام بعدة عمليات منها منجم وادي الشحم حيث غنمت أسلحة وذخائر ، ومحاولة تفجير خط السكة الحديدية الرابط بين عنابة وسوق اهراس ..وإسقاط قطار بعد تفكيك سكته قادم من وادي الكبريت في طريقه إلى عنابة .

• ماهي الصعوبات التي واجهت الثورة في الأشهر الأولى ؟

زيادة على قلة العدد ، والنقص الفادح للسلاح والذخيرة فإن أهم المشاكل التي يمكن إيرادها هنا هي الحصار والقمع الذي فرضته قوات الإحتلال الفرنسي وكذا الحرب النفسية التي كانت تقوم بها الإدارة الإستعمارية .

• الحلول التي أقدمت عليها الثورة في هذا الجانب؟

بالنسبة لنقص العدد فهو مشكل تم تجاوزه مع الوقت ، بعد آن فرضت الثورة نفسها في الميدان ، كما أن نقص السلاح دفع القائد مصطفى بن بولعيد للانتقال إلى تونس قصد تزويد الثورة بالسلاح والذخيرة وهو ما أوقعه في يد قوات الاحتلال ضف إلى ذلك أن العلاقة الوثيقة بين بن بولعيد في الأوراس وديدوش مراد في الشمال القسطنطيني ، وشيهاني

وزيغود يوسف فيما بعد جعل المنطقة الثانية تفك الحصار على الأوراس بواسطة هجومات 20 أوت 1955 إلى أن جاء مؤتمر الصومام 1956 ليعطي دفعا كبيرا للثورة التحريرية .

• بدأت الثورة في البداية بإمكانيات متواضعة . فماهي أسباب نجاحها في رأيكم؟

كل الناس يدعون أنه كان لهم دور كبير في الثورة . المركزيون ، العلماء وغيرهم . لكنني بهذا الخصوص أقول أن الثورة قادها الشعب الجزائري من خلال الفلاح ، العامل الفقير ، حتى أن بيان أول نوفمبر توجه مباشرة إلى الشعب الجزائري وقد بدأنا الثورة قطرة فقطرة حتى وصلت إلى مرحلة اللارجوع وليس لمستوى الاستعداد، إن الشعب الجزائري هو الذي احتضن الثورة من خلال تقديم النفس والنفيس، الإيواء الإطعام، صدى مظاهراته وإضراباته كانت ترددها الجبال وصرخات الدعم والمطالب كانت تخترق الآفاق لتصل إلى طاولة المفاوضات دعما وإسنادا للوفد المفاوض ... وبهذا انتصرنا لكن مقابل ثمن غال وجسيم تكبده شعبنا لكي ينال حريته واستقلاله.

• اهي الرسالة التي يمكن توجيهها للأجيال الصاعدة والجزائر تحتفل بالذكرى الثانية والخمسين لاندلاع ثورة التحرير الكبرى؟

مايمكن قوله اليوم هو أن الجزائر حررها الشهداء وكل المخلصين والوطن اليوم بين أيدي الجزائريين بعد أن دفع ثمن غال ، فإذا كنا قد تحررنا بصعوبة فإن المحافظة على استقلالنا هي مهمة أصعب .

إن مايمكن قوله لأبنائنا أن تحرر الجزائر قد تم بطريقة نادرة ، الأصدقاء والأشقاء يحسدوننا عليه .

لذلك فنحن مدعوون للتمكين للمؤسسات . خاصة والحمد لله أن دماء الشهداء لم تذهب سدى ....لقد كانت مجرد وشاية تدفع قوات الإحتلال

إلى تقييد أطراف المعتقل بين سيارتي جيب وتتجه السيارتان كل واحدة إلى وجهة ليقطع الرجل إلى شقين اثنين هذه عينة بسيطة لما كان يجري لأبناء الشعب الجزائري ......

نحن كجنود في ميادين المعركة ، كان يمر الموت بالقرب منا في كل لحظة ، لكن الأعمار بيد الله كما يقال . لكن المسألة مختلفة بالنسبة للشيوخ الأطفال ، والنساء كونهم عزلا غير أنهم لم يفتقروا يوما للشجاعة وهنا أتذكر دوما صورة تلك المرأة التي تتحدى قنبلة الطائرات في القرى والمداشر وهي تنتقل في الجبال والأحراش حاملة على كاهلها قربة ماء .

بحثا عن مجاهدين عطشى بين تلك الجبال والوديان لتروي ضمأهم (وتنهمر الدموع من عينيه ...) الشاهد عندنا هو أن الشعب الجزائري هو الذي قاد الثورة واحتضنها حتى النصر بالمقابل كان الثمن غاليا . ومن هنا تراني دائما أدعو إلى ترسيخ قيمة الجزائر من منطلق قيمة التضحيات التي تم تقديمها ثمنا للحرية.

العقيد الطاهر زبيري آخر قادة الأوراس في حوار لـ"اليوم":

مجزرة ساقية سيدي يوسف جاءت بعد أسرنا خمسة فرنسيين في معركة جبل واسطة

أمريكا وبريطانيا تدخلتا للوساطة بين تونس وفرنسا بعد المجزرة

العقيد الطاهر زبيري أخر قادة الولاية الأولى "أوراس النمامشة" وبطل معركة جبل واسطة بالقرب من الحدود التونسية الجزائرية، يروي شهادته حول كيفية أسر خمسة عساكر فرنسيين والقضاء على 11 آخرين في 11 جانفي 1958، وانتقاما من هذه العملية الناجحة ارتكب الجيش الفرنسي مجزرة ساقية سيدي يوسف التي أخذت فيما بعد أبعادا دولية. ويروي زبيري تفاصيل ضغطهم على العدو حتى لا ينفذ حكم الإعدام على الرائد أحمد بن شريف.

أجرى الحوار: مصطفى دالع

• اليوم : ما هي الخلفيات والأسباب التي دفعت فرنسا إلى ارتكاب مجزرة ساقية سيدي يوسف؟

العقيد الطاهر زبيري: كثير من السياسيين اليوم يتحدثون عن مجزرة ساقية سيدي يوسف، القرية التونسية الواقعة على الحدود مع الجزائر لكن دون الرجوع

إلى خلفيات هذه المجزرة، والتي تعود إلى الكمين الذي أسرنا فيه خمس جنود فرنسيين وقضينا على أحد عشر آخرين في حين استشهد مجاهدين من جيش التحرير، وذلك في 11 جانفي 1958 بجبل الواسطة الذي لا يبعد عن قرية ساقية سيدي يوسف سوى بنحو أربع كيلومترات فقط.

• كيف تم التحضير لهذا الكمين؟

كان للفرنسيين مركز عسكري متقدم لا يبعد عن الحدود التونسية سوى بنحو 30 كيلومترا، واعتاد جنوده القيام بدوريات واعتقالات لأبناء الشعب واللاجئين الجزائريين الهاربين من جحيم الحرب والذين بنوا أكواخا بين الحدود الجزائرية التونسية ولم يكتف الجيش الفرنسي بتنغيص حياة اللاجئين الجزائريين على الحدود بل كان يسلب منهم أرزاقهم وقوتهم اليومي الذي بالكاد يسد رمقهم، وعمل الفرنسيون على دس مخبرين في أوساط الشعب لجمع المعلومات حول تحركات جيش التحرير الوطني، وعدد أفراده ونوعية تسليحهم خاصة أن الحدود كانت منطقة عبور للمجاهدين، وعندما يريد الجيش الفرنسي الاتصال بهم يقوم بحملة اعتقالات تضم هؤلاء المخبرين إلى جانب أبناء الشعب حتى لا يكتشف أمرهم، وازدادت شكاوي الناس من المداهمات الفرنسية والظلم والاضطهاد الممارس ضدهم وكان لابد علينا من الرد على همجية الفرنسيين.

• كنت حينها قائدا للفيلق الثالث بالقاعدة الشرقية برتبة رائد؟

كنت قبلها برتبة نقيب وقائدا للمنطقة الثالثة وللفيلق الثالث بالقاعدة الشرقية(سوق اهراس) ثم رقيت إلى رتبة رائد وأصبحت عضوا في مجلس قيادة القاعدة الشرقية، وعينت نائبي موسى حواسنية قائدا للفيلق الثالث الذي بقيت على اتصال دائم به، وعندما تزايدت شكاوي اللاجئين من اعتداءات الجيش الفرنسي وكانوا ينتظرون منا أن نتدخل لتأديب الفرنسيين، قررنا نصب كمين للكتيبة الفرنسية بالمركز المسمى 28 وقلت لقادة الفيلق الثالث لا بد من نصب كمين محكم وتوجيه ضربة قوية للفرنسيين وقلت لهم "هذه المرة ليس ضرب الحيطان والهرب عند بورقيبة" وهناك من تحفظ على هذا الأمر...

• لماذا تحفظوا على مهاجمة الفرنسيين رغم أننا كنا في حالة حرب؟

لأن الرئيس التونسي لحبيب بورقيبة كان يضغط مرارا على قادة الثورة لكي لا يقوم جيش التحرير بأي عمليات عسكرية ضد الفرنسيين على الحدود أو على الأراضي التونسية خاصة وأن الفرنسيين هددوا بورقيبة بمتابعة المجاهدين إلى داخل التراب التونسي وفعلوا ذلك، كما أن قادة الثورة ممثلين في لجنة التنسيق والتنفيذ أعطوا أوامرهم بتجنب القيام بعمليات عسكرية على الحدود.

• كيف كانت الخطة التي رسمتموها لتأديب الفرنسيين؟

هيأنا ثلاث فصائل مسلحة ودعمنا قياداتها بثلاث قادة آخرين، فالفصيل الأول بقيادة العياشي حواسنية ونائبه بغدوش عبد السلام، الفصيل الثاني بقيادة حمى لولو ونائبه بن علاله، أما الفصيل الثالث فبقيادة صالح مسادي المدعو نهرو ومعه نائبه، وكانت الخطة تقوم على رصد تحركات الكتيبة الفرنسية التي اعتادت التنقل من المركز 28 إلى المناطق الحدودية أين يتجمع اللاجئون، في حين يتمركز مجاهدو الفصائل الثلاثة في أماكن محصنة طبيعيا بجبل الواسطة وعند مرور الكتيبة الفرنسية (نحو 120 جندي) وسط الغابة تم إمطارهم بوابل من الرصاص واحتدمت المعركة بين الجانبين، حيث قتل 11 جنديا فرنسيا وأصيب العديد منهم بجراح وقع خمسة منهم أسرى بين آيدينا وغنمنا أسلحتهم. كما استشهد منا مجاهدين اثنين.

• كيف تعاملتم مع الأسرى الفرنسيين؟

انسحبنا من ساحة المعركة وأخذنا معنا الأسرى وابتعدنا عن مركزنا وذهبنا إلى جبل أحمد على الحدود مع تونس وخشيت أن يعلم التونسيون

بأمر الأسرى فيضغط بورقيبة على قادة الثورة لتسلم الأسرى وإعادة الأسرى إلى فرنسا لذلك التزمنا السرية، وخبأتهم عند أخي الحاج بلقاسم الزبيري الذي كان مسؤول مركز عبور أصبح يسمى مزرعة موسى حواسنية الواقع داخل الأراضي التونسية، وفي نفس الليلة أحضرت ثلاث أطباء جزائريين تابعين لجيش التحرير من مدينة الكاف التونسية، وهم بشير منتوري، بوذراع وابراهيم غياط، وقاموا بمعالجة الأسرى الأربعة المصابين، في حين لفظ الأسير الخامس أنفاسه في الطريق إلى الحدود التونسية.

• ما هو رد فعل قيادة الثورة بعد هذه العملية؟

حاولت في البداية إخفاء حقيقة الأسرى حتى لا تتعرض قيادة الثورة لضغوطات بورقيبة، خاصة بعد الاحتجاجات شديدة اللهجة التي تقدمت بها فرنسا إلى تونس وقد استدعتني لجنة التنسيق والتنفيذ وكان من بين من التقيتهم عبان رمضان ورضا مالك وبومنجل وسألوني عن معركة "القوارد" ولكن لم نتحدث عن معركة جبل واسطة ولم يطلبوا مني تسليم الأسرى، ولكن بعد ازدياد الضغوط الفرنسية والتونسية لتحرير الأسرى قررت الدخول مع فصيلين من الجنود وعبور خط موريس حتى لا أكون مطلوبا لدى السلطات التونسية أو لدى مسؤولي الثورة.

• أين كنت عندما وقعت مجزرة ساقية سيدي يوسف؟

كنت حينها قد دخلت التراب الجزائري وسمعت بالمجزرة من خلال الراديو فبعد 28 يوم من أسر الجنود الفرنسيين وعجز المسؤولين الفرنسيين والتونسيين من تحريرهم قام الطيران الفرنسي في 8 فيفري 1957 بقصف وحشي لقرية ساقية سيدي يوسف التي كان يسكنها الكثير من اللاجئين الجزائريين ويتردد عليها أفراد من المجاهدين لاقتناء بعض الحاجيات خاصة أن القرية كان بها سوق شعبي والقصف كان في ساعة الذروة لذلك كان عدد الضحايا كبيرا سواء في أوساط الجزائريين أو في أوساط التونسيين.

• هل استشهد مجاهدون في هذا القصف؟

ليست لي معلومات في هذا الشأن لكن هذا الأمر غير مستبعد لأن الكثير من المجاهدين كانوا يترددون على هذه القرية.

• ماذا عن بورقيبة كيف تعامل مع هذه المجزرة؟

ثارث ثائرة بورقيبة لهذه المجزرة وانتقد بشدة ما قامت به القوات الفرنسية، وكانت للرئيس التونسي سمعة دولية خاصة لدى المعسكر الغربي لأنه رفض تبني النمط الاشتراكي والدخول تحت نفوذ جمال عبد الناصر، وبعد وقوع المجزرة تدخل نائب وزير الخارجية الأمريكي "ميرفي" الذي مازال على قيد الحياة إلى جانب المسؤول الدبلوماسي البريطاني "بيلي" للوساطة بين تونس وفرنسا، وأخذت القضية أبعادا دولية، وكان ذلك في صالح الثورة الجزائرية حيث سجلت الجمعية العامة للأمم المتحدة القضية الجزائرية في جدول اعمالها في 20 سبتمبر 1957.

• كيف أنقذت الرائد أحمد بن شريف من تنفيذ حكم الإعدام؟

الزبيري: عندما كان الرائد أحمد بن شريف مارا على المنطقة الثانية للقاعدة الشرقية متوجها إلى الولاية الرابعة رفقة عدد من المجاهدين القت القوات الفرنسية القبض عليهم وحكمت على أحمد بن شريف وآخرين بالإعدام وبأحكام متفاوتة، وعندما وصلنا الخبر سمحنا للأسرى بكتابة رسائل إلى ذويهم ونشرت بعض الصحف الفرنسية هذه الرسائل وتم التأكد بأنهم لا زالوا على قيد الحياة، وبعدها وجهنا تحذير للسلطات الفرنسية من مغبة تنفيذ حكم الإعدام على أحمد بن شريف ورفاقه وهددناهم بقتل أسراهم إن هم أعدموا أسرانا.

• هل حدث تبادل للأسرى إذن؟

لا لم يحدث تبادل للأسرى ولكن حكم الإعدام على بن شريف لم ينفذ وأطلق سراحه بعد الاستقلال، أما الأسرى الفرنسيين فبعد نحو أشهر من أسرهم سلمناهم لممثلي الهلال الأحمر الجزائري والذين كان من بينهم النقاش، بلهوان، وتومي. وذلك بطلب من قيادة الثورة ليتم إطلاق سراحهم فيما بعد.

وثـــــائـــــق

DIRECTION DE LA SURETE
NATIONALE EN ALGERIE

SOUS-DIRECTION
DE LA POLICE JUDICIAIRE

Fichier Central

DIFFUSION URGENTE

RECHERCHES

ADDITIFS et RECTIFICATIFS à la Diffusion Urgente N° 133/55 du 12 Novembre 1955

I. — ADDITIFS

Photographies des individus condamnés à mort et évadés de la Prison Civile de Constantine le 10 Nov. 1955

BENBOULAID Mostefa

TAIBI Brahim

LAIFA Mohamed

KROUMA Hamadi

ZEBIRI Taher

MICHRI Lakhdar

DEZIANI Mohamed

ARIF Hassine

ZAIDI Slimane

HAFTARI Ali

BOUCHEMAL Ahmed

II. — RECTIFICATIFS

N° 2. — TEIBI Brahim, lire : TAIBI Brahim.
N° 3. — MECHERI Lakhder ou MICHRI Lakhder.

DESTINATAIRES :

Tous Services de Police et de Gendarmerie d'Afrique du Nord

M. le Directeur Général de la Sûreté Nationale
FICHIER CENTRAL - PARIS

Pour information.

P. le Directeur de la Sûreté Nationale en Algérie,
Le Contrôleur Général des Services de Police Judiciaire,
Signé : REMEGIS.

العقيد الطاهر زبيري يقلد الحبيب خطاف رتبة ملازم أول (الأوراس).

جانفي 1957. الطاهر زبيري مع صالح مشنتل في عملية استنطاق أسرى معركة الواسطة.

1961. من اليسار الى اليمين : غوڤالي اعمر، الطاهر زبيري، لخضر القنطري، محمد نورالدين(بالبندقية) والأخير على اليسار محبوبي.

العقيد الطاهر زبيري مع الحبيب خطاف مع مجاهدي فصيلة التموين في 1960.

في 1961 غابة البراجة (الأوراس).
واقفون من اليسار إلى اليمين : علي باعو، مصطفى قاسمي، محمد الصغير هلايلي(في الوراء)، الطاهر زبيري، محمد الشريف جار الله، الحبيب خطاف، منصور رحال.
الجالسون من اليسار إلى اليمين : محمد الصغير قارة وحويلي بن نابس.

في 1957. من اليسار الى اليمين : الحاج لخضر جلايلية، الطاهر زبيري، عمارة بوقلاز، العياشي بنعازة.

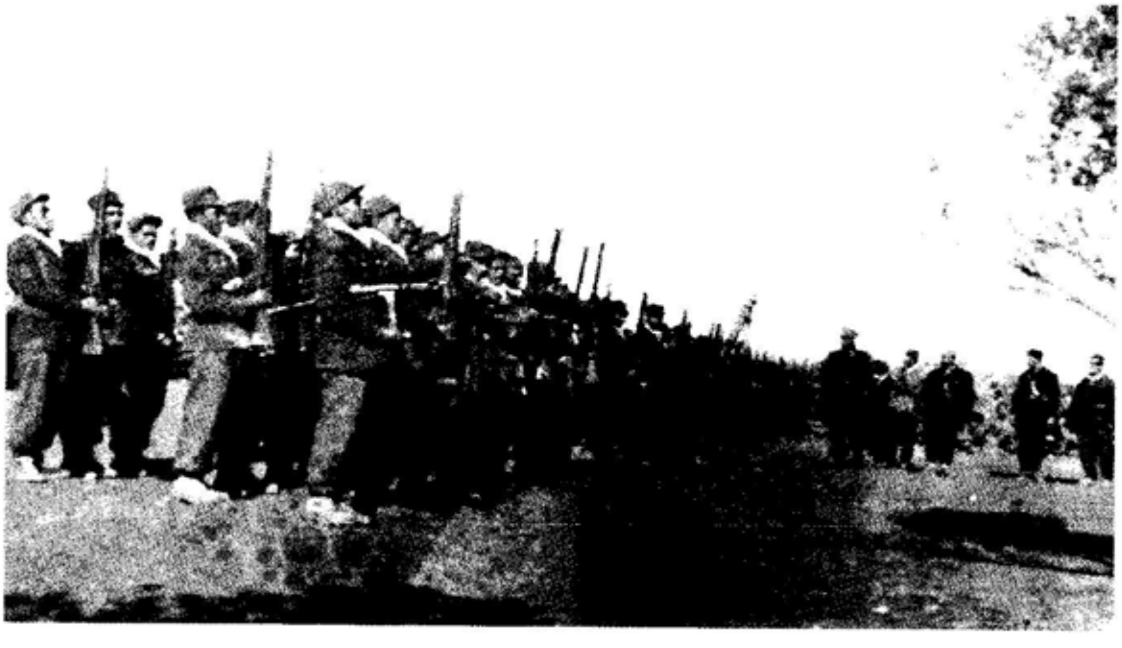

زيارة العقيد عمارة بوقلاز لتفقد الفيلق الثالث (1957).

1957 : الرائد الحاج لخضر جلايلية مع النقيب زبيري.

1958 : الطاهر زبيري برفقة محمدي السعيد (الكولونيل ناصر) وهواري بومدين.

أوخر 1957. الطاهر زبيري في أجتماع مع قادة الفيلق الثالث للقاعدة الشرقية.

صالح زبيري
الشقيق الأصغر
للعقيد الطاهر زبيري
استشهد في بداية 1958.

ARMÉE DE LIBERÁTION NATIONALE
ALGÉRIENNE

Cher frère si Tahar Zebiri

J'ai embrassé ta lettre qui m'a fait pleurer . Tu ne sais pas pourquoi ? par ce que c'est un rêve pour moi . Aprés des mois de souffrance dans les geol es du colonialisme Français nous voilà au milieu de nos fréres , au milieu des rangs de notre jeune Armée que nous retrouvond plu s solide , notre Armée qui a fait des progrés considérables dans tous les domaines . je n'ai jamais penser retrouver notre Armée arrivée à ce stade . Gràce à Dieu , nous saluons tous les fréres qui ont pu s'organiser et continuer la LUTTE .

Maintenant nous nous trouvons dans les rangs de notre Armée , voilà ce q u e nous avons souhaité dans la prison ; nous l'avons aujourd'hui . .

Je n'oublierai jamais les fréres de la prison de Constantine .

Tu ne sais pas comment j'imagine ce film inoubliable c'est HISTORIQUE . Grace à Dieu , seul ,puissant ,et c'est par son aide que nous sommes arivés à atteindre nos fréres . Considéro nous comme les revenants d'un autre Monde .

Souci de l'avenir de not re Cher Pays , cher frère ce que je te demande ..... C'est de doubler et redoubler ton effort et de continuer à lutter avec acharnemant contre notre ennemi

Jete felicite ~~tt~~ pourton courage aucours de la participation aux accrochages , dont les frères m'ont donnés les details

N'oublies pas que nous aussi avec LAIFA nous avons de serieux engagements... Le devoir nous appel à faire tous les jours des abnegation s .... J'ai demandé à L'E.M. de venir dans votre region , les frères m'ont autorisés a [illegible]us voir .

Ma parole d' honneur, et [illegible]ux , un de ces jour vous me verrez parmis vous ..... En [illegible]ire est certaine elle est entre nos mains ....A b[illegible]

Salutations Fraternelles [illegible] Patriotiques .

Ton frère

MOSTEFA Ben Boulaid

قنـــــــاة الجزائـــــــر
algeriachannel.net

GOUVERNEMENT PROVISOIRE
DE LA
REPUBLIQUE ALGERIENNE
-:-:-:-:-:-:-:-:

Vice Présidence du Conseil

Ministère des Forces Armées

CONTROLE & INSPECTION

Ref : N°20/CI/RRS/E/M.F.A.

SECRET
CONFIDENTIEL

PROPOSITION

Vu notre enquête et constation au sein de la wilaya une, nous vous proposons la création d'un TRIBUNAL MILITAIRE PERMANENT sur la frontière, pour juger les différents cas, d'éléments nuisibles à la révolution, ce qui aidera énormément les chefs de zônes et de bataillons dans leur tâche.

Ce Tribunal sera composé d'éléments révolutionnaires ; loin du favoritisme et dé l'esprit régionaliste, jouissant d'une bonne réputation au sein de l'A.L.N.A et du peuple.

Les décisions et condamnations prises par ce Tribunal seront exécutables sur le champs. Car c'est indispensable pour rehausser le morale des djounoudes et rafermir la discipline.

Ce Tribunal sera sur la même position que celui fait par notre regretté héros le Colonel Amirouche dans la Wilaya 3.

Actuellement les chefs de zone, n'ont pas le temps et la compétence voulus pour mener à bien les enquêtes necessaires dans les différents cas, pour trancher les questions et prendre les décisions en conséquence.

La tâche principale et le but de la création de ce Tribunal sera d'aider les responsables sincères dans leur travail et résoudre certaines difficultés, ce qui les allèger énormément.

Le I6 Avril 1959

Le Commandant Tahar Zebiri

(Cachet : Ministère des Forces Armées – Contrôle et Inspection)

GOUVERNEMENT PROVISOIRE
DE LA
REPUBLIQUE ALGERIENNE
-:-:-:-:-:-:

Ref : N° 34 /CI/RS/B/M.F.A

Vice Présidence du Conseil
Ministère des Forces Armées

CONTROLE & INSPECTION

Le Commandant Tahar Zebiri

au

Vice Président du Conseil
Ministre des Forces Armées

Le 17 Avril 1959, nous avons rencontré SI TAYEB OFFICIER de la Zône 2 Wilaya 6.

D'après notre première constation, c'est un homme conscient, imprégné de principes révolutionnaires, assez simple, ayant une bonne instruction arabe et français.

Après une bonne discution, il nous a parlé de la situation actuelle de la Wilaya 6 au point de vue :

1°) MORALE

2°) MATERIEL

3°) ACTIONS MILITAIRES

4°) ACTIONS ENNEMIES

5°) CADRES

6°) EFFECTIF

7°) POPULATION CIVILE

8°) La Mort au champs d'honneur du Frère Si Haouess et son remplacement éventuel

9°) Son Passage à la wilaya une.

Il nous a relaté objectivement la situation de la wilaya 6, avec une analyse concrète de toutes les difficultés actuelles s'y trouvant.

1°) M O R A L E : Nos soldats ont un m orale assez bon. Leur grand espoir est de voir un jour leurs frères, se trouvant en deça du barrage de les ravitailler en armes et munitions. Car ils ont du courage, de la bravoure et l'enthousiasme propres à nos moujahidinnes, mais cela ne suffit pas pour combattre l'ennemi, il faut autre chose.

. . . / . . .

. . / . . . 2

2°) **MATERIEL** : L'armement et surtout les cartouches, nos soldats en manquent beaucoup, et le peu de cartouches dont ils disposent, ne suffit vraiment pas pour faire de grandes actions.

A) **HABILLEMENT** : Ils se débrouillent a avoir des tissus et font coudre sur place des vêtements plus ou moins ressemblant aux tenues militaires.

B) **PATAUGAS** : Ils ont manquent totalement. Aussi ils ont font eux-mêmes. Ils ont des cordonniers qui font des chaussures de toile, avec en guise de semelle des morceaux de pneux d'automobile.

C) **RAVITAILLEMENT** : Ils ont organisé avec l'aide de la population, un service de ravitaillement qui marche assez bien. Les Soldats ne sont pas privé.

3°) **ACTIONS MILITAIRES** : Géographiquement la Wilaya 6 est découpée en 3 zônes, et il y a deux points stratégiques qui sont les routes nationales de BISKRA & DJELFA. Nos djounoudes sont implanté dans les régions de Biskra, Laghouat, Djelfa, Bou-Saada, et les monts des Ouled Naiels entièrement.

Vu le manque de munitions, ils essaient de tendre des embuscades sur les routes préscitées, mais l'ennemi ne prête pas son flan. Ceux sont d'importants convoies escortés par l'aviation et les blindés qui empruntent ces routes, or il n'est pas possible à nos unités de faire quoi que ce soit, étant donné qu'ils manquent de munitions. Aussi les Chefs Militaires ne peuvent absolument pas prendre aucune initiative d'une action quelconque. Car nos moujahidinnes ont toutes les qualités de patience, d'abnégation, de courage, mais cela ne suffit pas pour combattre un ennemi superieur a eux, en materiel et en effectif. Ils ne demandent pas grand-chose, simplement des munitions. Dès qu'il y a un accrochage l'aviation ennemie les immobilise sur place, en volant a basse altitude (mittraillage, lancement de rocquettes etc;) Ils n'ont pas les munistions necessaires pour les pièces , M.G. - 24/29 - BREEN pour faire des tires aériens. Ainsi que des mortiers et bazooka pour détruire les petits postes de cadrillage. Car se sont ces postes la, qui gênent leur déplacement et action ainsi que le travail psychologique de

. . . ./ . .

. . / . . .3

la population civile.

4°) **ACTIONS ENNEMIES** : Etant donné que l'ennemi sait que nos Moujahidinnes n'ont pas beaucoup de munitions, il essaie par tous les moyens de leur faire gaspiller le peu qu'ils ont en, et ceci en faisant d'importantes operations de ratissage englobant tous les points stratégiques sensés d'être occupés par nos unités. Or, ces dernières évitent toujours des actions pareilles, l'ennemi de son côté les pourchasse.

5°) **C A D R E S** : La Wilaya 6 a une grande pénurie en cadres et surtout des inspecteurs et commissaires Politique pour le travail de la population civile et l'endoctrinement des soldats, manquant d'hommes instruits pour les différents travaux administratifs et de Secrétariat.

6°) **E F F E C T I F** : Cette Wilaya manque d'hommes et de l'effectif voulu pour une plus grande implantation et la répartition des unités sur toute sa périphérie.

7°) **POPULATION CIVILE** : Notre population civile dans la Wilaya 6 a un bon morale, et aide beaucoup l'A.L.N, mais il y a une partie qui est rétisente par rapport a ce qui s'est passé dans leurs régions -Bou saada, Laghouat, Sidi-Aissa ; de la part des unités de Bellounise et de Meftah, lesquelles heureusement n'existent plus ; et se sont ces traces de mauvais moments qu'ils ont passé avec les prétendus moujahidinnes des bellounistes et meftahistes, qui les rendent aussi méfiant et hésitant à l'égard de nos unités

En Conclusion la Wilaya 6 a un besoin préssent en munistions et cadres ayant une bonne formation politique en vue de faire un travail éducatif au peuple, de l'organiser et surtout la partie qui est encore hésitante , de mener en son sein une grande action psychologique, de la propagande pour contrecarer celle de l'ennemi.

D'après le frère Si Tayeb, la Mort au champs d'honneur du frère Si Haouess a occasionnée un vide au sein de la Wilaya, car il était aimé par tout le monde, lorsque nous lui avons posé la question, si sur place se trouverait un homme capable de le remplacer ? Il nous a répondu "que sur place on ne pourrait pas trouvait l'homme qu'il faudrait."

. . . / . . .

../.....4

A son passage à la Wilaya 1, malgré le peu de temps qu'il est resté, il a constaté qu'il y avait environ 400 djounoudes qui sont en état de dissidence dans la zône 2 pour la plupart ceux qui étaient sous le commandement du Commandant HADJ LAKHDAR.

Les causes de ceci, sont le manque de cadres, de discipline et d'organisation.

Ces dissidents occupaient a son passage, le point stratégique du passage du ravitaillement des autres unités, et ne laisse aucune unité passer pour se ravitailler.

Dù côté ennemi, il parait qu'il y a environ une année il n'y a pas eu d'opérations militaires dans certaines régions de la Wilaya I.

Le 25 Avril 1959

Le Commandant Tahar Zebiri

GOUVERNEMENT PROVISOIRE
DE LA
REPUBLIQUE ALGERIENNE

VICE PRESIDENCE DU CONSEIL,
MINISTERE DES FORCES ARMEES

CABINET MILITAIRE.

N° 62 /ORG/S/MFA .

SECRET

DECISION.

A compter du 20 Juillet 1959 le Commandant Tahar ZBIRI est désigné pour prendre la Direction du Sous-Groupement II comprenant :

- Le 2° Bataillon : BENBOULAID (Lt AGGOUN)
- Le 8° Bataillon : ABBANE (Lt ALLAHOUM)
- Le 9° Bataillon : AMIROUCHE (Cne ABDEL MOUMENE).

Le Commandant Tahar ZBIRI rejoindra sa nouvelle affectation dans les meilleurs délais possibles, il est relevé de ses fonctions de contrôleur.

TUNIS, le 18 Juillet 1959.

Le Vice-Président du Conseil,
Ministre des Forces Armées.

DESTINATAIRES/

- Le Chef d'EM/EST
- Le Cdt de la Frontière
- Le Cdt ZBIRI
- Le Capitaine ABDELMOUMENE
- Le Lt ALLAHOUM
- Le Lt AGGOUN
- ARCHIVES
- CHRONO.

[illegible]
DE LA
REPUBLIQUE ALGERIENNE

MINISTERE DES LIAISONS
GENERALES & COMMUNICATIONS

Au Frère Cdt Tahar Zebiri de la Wilaya 1

OBJET : Convocation au C.N.R.A.

Cher Frère,

Au nom de la Conférence Nationale des chefs militaires de la Révolution qui vient de clore ses travaux, je suis chargé de vous prier d'assister aux prochaines assises du Conseil National de la Révolution Algérienne qui se tiendront le 12 Décembre 1959 à Tripoli.

Les travaux du Conseil devant débuter le jour même à 8 heures du matin, je vous serais très obligé de vouloir bien prendre vos dispositions pour être sur place au plus tard l'avant-veille, c'est à dire le 10 Décembre.

La situation actuelle de la Révolution, à l'heure où la lutte de notre peuple atteint tout à la fois une phase difficile et d'espérance, rend indispensable la réunion du C.N.R.A. qui confirmera de manière éclatante la vigueur de nos institutions et de notre combat.

Fraternellement,

Tunis, le 11 Novembre 1959.

A. BOUSSOUF

MINISTERE ... REPUBLIQUE ALGERIENNE

Tunis, le 28 Juin 1959.

Commandant ZBIRI TAHAR à Monsieur
le Ministre des Forces Armées.

Monsieur le ministre,

J'ai l'honneur de vous écrire pour exposer respectueusement à votre bienveillante compréhension, ce qui suit:

Depuis mon entrée à l'ALN et à notre KPA j'estime que j'ai toujours eu une attitude conforme à la dignité du Moudjahid que vous aimez à exiger de vos subordonnés.

Fort dé ces références, fier d'avoir toujours obeï - quel que fut mon sentiment - aux ordres, c'est avec confiance, quant à l'interprétation, que je soumets à votre autorité la présente requête.

Actuellement, je suis chargé d'un travail, Monsieur le Ministre, qui quel que soit son utilité, j'en suis convaincu, peut être mené à bien par nimporte qui.

Et pour tout vous dire en un mot, je souffre Monsieur le Ministre d'être tenu à l'ecart du domaine où, - j'ai conscience de l'avoir prouvé - j'ai montré quelques qualités.

En plus de ma préférence pour la vie du maquis, il y'a également autre chose qui dépasse les penchants d'un homme et c'est son utilité dans tel ou tel domaine.

Ne voulant et ne recherchant que l'efficacité, je suis certain que mes dispositions pour le combat seraient beaucoup plus utiles que mon actuelle présence à Tunis.

Je vous demande donc Monsieur le Ministre de me permettre de retourner au maquis.

Et s'il m'était permis de vous parler de mes préférences, je vous demanderais de m'affecter au troisième bataillon de la base de l'Est.

Si je cite cette unité, c'est que j'ai des raisons claires e préises. La prémière et qui me parait d'importance est d'abord ma connaissance des hommes et du terrain. Ayant moi même formé les compagnies qui consituent actuellement ce Bataillon, je suis certain de compter sur le dévouement entier des Djounoudes et des Cadres. Ensuite, l'ennemi ayant faitde cette région une zône considérablement fortifiée, je suis parvenu à connaitre toutes les faiblesses de son système défensif et mieux que quiconque je saurais ménager la vie des hommes tout en obtenant les meilleurs rendements.

Cependant ne voulant pas tomber dans l'excés en citant "ce qu'il est possible de faire". Je bornerais simplement à répeter Monsieur le Ministre qu'une telle affectation serait considéré par moi comme une marque de confiance et d'estime et je vous donnerais ma parole de Moudjahid à vous un Moudjahid que j'en serais toujours digne.

Croyez Monsieur le Ministe à mon profond respect

Cdt ZBIRI TAHAR.

Armée Et Front
de Libération Nationale
Algérienne
Base de l'Est

Du Sous Lieutenant commandant
la 7me Ce
aux frère Si Tahar Si
Moussa

Je vous écrie aujourd'hui pour vous
donner les premiers d'étailes (provisoire) sur
nôtre (deuxième) accrochage qui à eu lieu
le 25 fevrier 1956 au Dawar Henencha lieux
dit (El-Guethanza) a la limite El-M'haya

C'est a 7H30 que l'ennemi venait de toute
les posts avec plusieurs centaines de vécules
que nous avons faits face a un ennemis
deux cents fois supérieur en Hommes et
en armements 1H après les premiers coups de
feu c'est l'aviation qui Bombarde et mitraille
sans arrêt. avec les modeles suivants
B-26 quartes. chasseurs a Réactions deux,
marchands quartres) chasseurs Bombardiers
cinq. Hélicoptère Bananes quatres
Et voici nôtre situation après ces pertes
ennemis considérables de nôtre côté vingts sept
27 djenouds Mort au champ d'honneur.
Bulletin provisoire. Maintenant je vous fais savoir
que l'ennemi et sans arrêt dans la 7me Région
avec les restes de djenouds qui restent de
la 7me Ce je me trouve dans
l'obligeance de faire rentrer les
reste le plus tôt possible au
P.C Bataillon pour instructions
a moins de recevoir une autres Ce
dans deux au trois jours
Salutation patriotique
a vous tous de tous les djenouds
chef de Ce
[signature]

A.L.N.

رسالة من حمة غليس إلى الرائد زبيري الطاهر والنقيب موسى حواسنية.

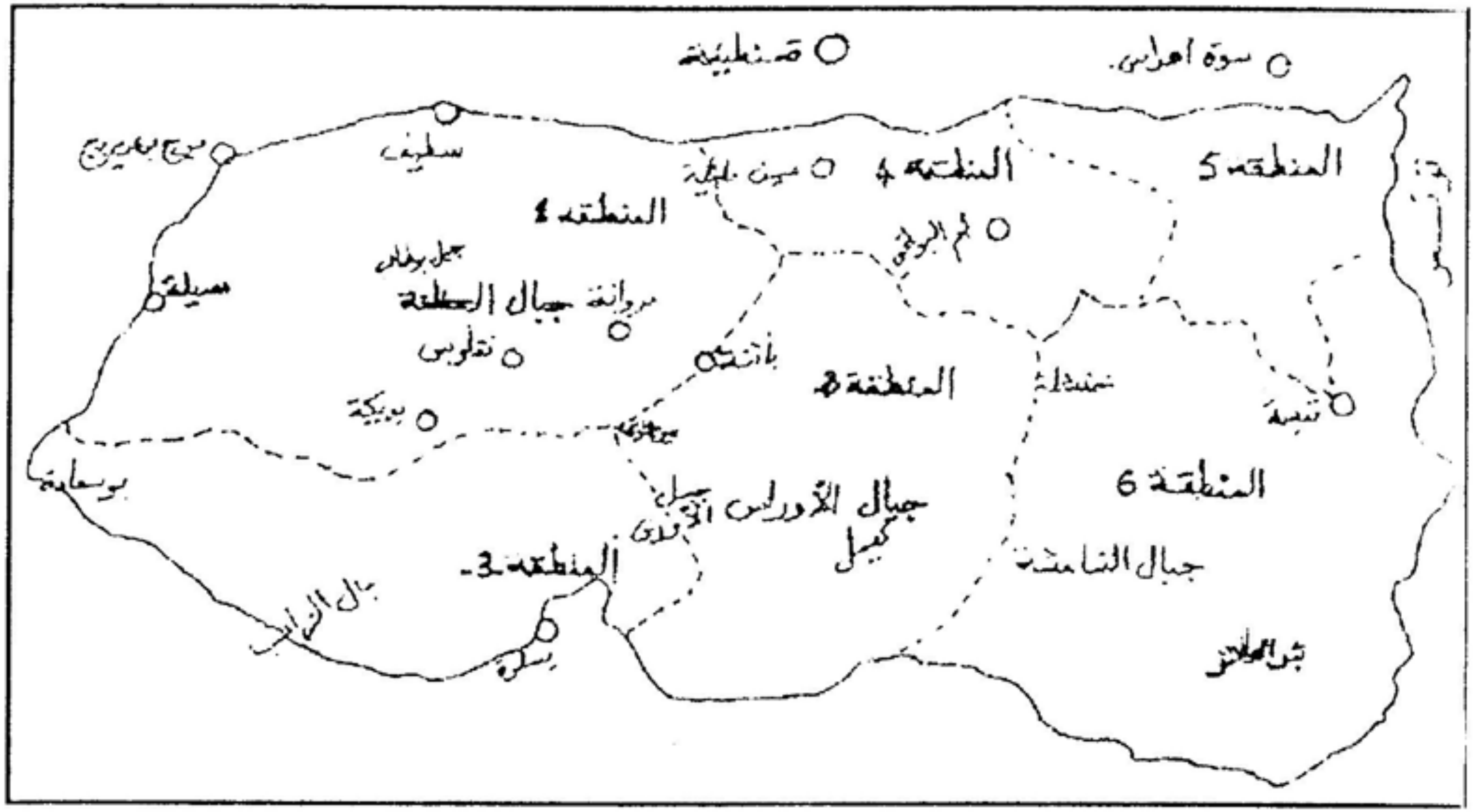

مناطق الولاية الأولى

المنطقة الأولى : جبال الحضنة، سطيف، المسيلة، بريكة
المنطقة الثانية : وفيها يقع مركز الولاية بجبل كيمل بقلب الأوراس
المنطقة الثالثة : جبال الزاب أصبحت تابعة للولاية السادسة
المنطقة الرابعة : أم البواقي، عين مليلة
المنطقة الخامسة : سدراته، مداوروش، العوينات، مرسط
المنطقة السادسة : جبال النمامشة، تبسة، خنشلة، بئر العاتر

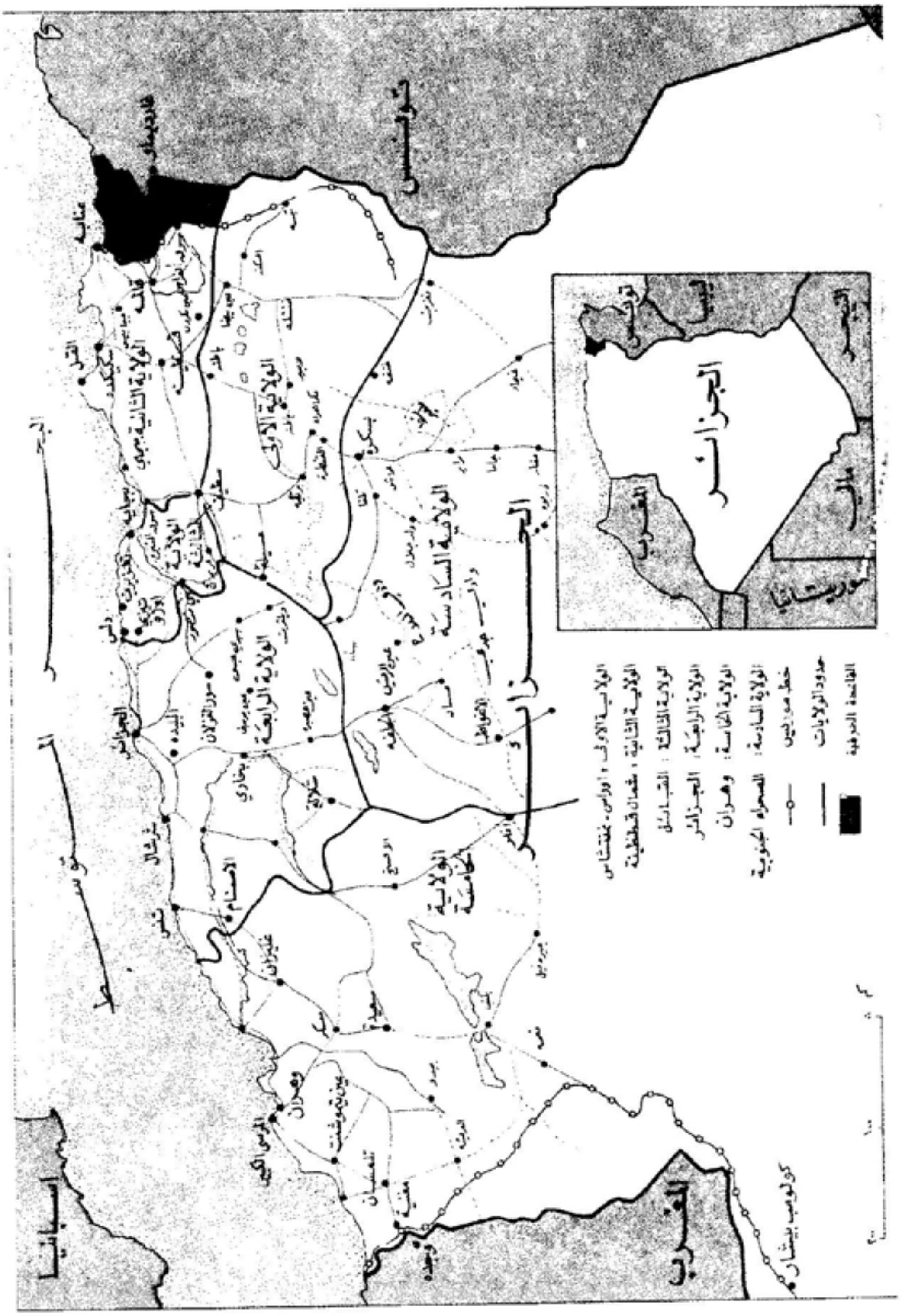

حدود الولايات العسكرية الستة بالإضافة إلى القاعدة الشرقية.

أواخر 1956 : مركز القيادة. المنطقة 3، الفيلق 3. القاعدة الشرقية.
جالس من اليسار إلى اليمين : الزين نوبلي، الطاهر زبيري،
شريف ملاح، حواسنية موسى.
واقف من اليسار الى اليمين : احمد القبايلي، بوراوي عبد الرحمان،
حواسنية العياشي.

أواخر 1957 : من اليسار الى اليمين : الطاهر زبيري، الزين نوبلي، بوديسة
الصافي، شريف ملاح وموسى حواسنية.

الفهرس

ـ الفصل الأول : معاناة الطفولة 17
ـ الفصل الثاني : البحث عن وطن 29
ـ الفصل الثالث : الطريق إلى الحرية 43
ـ الفصل الرابع : فجر الثورة 59
ـ الفصل الخامس : ليالي الاعتقال 81
ـ الفصل السادس : الهروب من السجن 99
ـ الفصل السابع : إعدام جبار عمر 121
ـ الفصل الثامن : اغتيال مصطفى بن بولعيد 139
ـ الفصل التاسع : الأوراس يغيب عن الصومام 161
ـ الفصل العاشر : بطولات ومعارك بالقاعدة الشرقية 175
ـ الفصل الحادي عشر : إنقلاب العقداء 197
ـ الفصل الثاني عشر : مهمة مستحيلة 217
ـ الفصل الثالث عشر : آخر قادة الأوراس 239
ـ الفصل الرابع عشر : الانتصار الضائع 265
ـ ملاحق الحوارات 295
ـ وثائق 313

الطباعة
وحدة الرويبة ANEP
2008

مذكرات آخر قادة الأوراس التاريخيين

العقيد الطاهر زبيري من مواليد 4 أفريل 1929 بدوار أم العظايم بولاية سوق اهراس. انظم إلى حركة انتصار الحريات الديمقراطية (حزب الشعب الجزائري) في 1950. كان ضمن أول فوج مسلح شكله باجي مختار واعتقل في أواخر ديسمبر 1954 بجبل سيدي أحمد إثر اشتباك مع العدو. حكم عليه بالإعدام وتمكن في 10 نوفمبر 1955 من الفرار مع البطل مصطفى بن بولعيد من سجن الكدية. عين قائدا للفيلق الثالث بالقاعدة الشرقية ثم رقي إلى رتبة رائد وعضو في مجلس قيادة القاعدة الشرقية. تولى قيادة الولاية الأولى (الأوراس) في 1960 إلى غاية الاستقلال. أصبح قائدا لأركان الجيش الوطني الشعبي في 1963. في جوان 1965 شارك في التصحيح الذي قاده هواري بومدين ضد أحمد بن بله وفي ديسمبر 1967 قاد عملا عسكريا ضد هواري بومدين لإجباره على التنازل عن جزء من صلاحياته لمجلس الثورة.

كان العقيد وبإلحاح من أصدقائه، لما يختزنه من أحداث وقصص حول الكفاح المرير، ينوي كتابة هذه المذكرات بعد الاستقلال مباشرة بالاستعانة بأحد الكتاب المعروفين ولكن الظروف حالت دون ذلك، فالبلاد عرفت أزمات سياسية عقب هذه المرحلة فأوليت للعقيد مسؤوليات لتوحيد الصفوف وجمع الشتات وفاءا لشهداء الثورة.

ضف إلى ذلك وجود حساسيات تاريخية خلال تلك المرحلة لم تكن هذه المذكرات إلا أن تزيدها تعقيدا خصوصا وأن الكثير من الأشخاص كانوا لا يزالون على قيد الحياة.

اليوم وقد رأت هذه المذكرات النور فهي حسب المؤلف ضرورة يمليها عليه ضميره بدافع تصحيح بعض الأخطاء التي وقع فيها من كتب عن الثورة من كتاب ومؤرخين حول وقائع وأحداث كان فيها العقيد طرفا وشاهد عيان.

قنـــــاة الجزائـــــر
algeriachannel.net

ISBN: 978-9947-21-440-4
Dépôt légal: 3742-2008

تصميم الغلاف: بديعة ميات